أسست عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

العدد (٥٧٥) رجب ١٤٣٤ هـ / مايو - يونيو ٢٠١٣م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

«الوعي» تشارك في معرض الكتاب الإسلامي (٣٨)

- الحوار النبوي وفق منهج الشورى
- الاتجار بالبشر في التشريع الإسلامي
- «طوب قابي».. قصر عثماني تتيره المخطوطات

العدل مسار البناء

مجانًا مع العدد «براعم الإيمان»

مجلة

الوعي الإسلامي

تهديكم جديد إصداراتها

صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ الكويت هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
البريد الالكتروني: info@alwaei.com - manager@alwaei.com

الافتتاحية

العدل والعدالة

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

العدالة محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة، قال تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾(النحل:٩٠)، والعدل من الوصايا العشر التي أنزلها الله في كتابه، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾(الأنعام: ١٥٢)، فالوصية منهج متكامل بالتعامل في جميع المجالات، التي قامت به الأرض والسماوات، ومن أعظم مقومات المجتمعات، وهي من شيم الأنبياء، وتتشدها النفوس، وتطلبها الفطرة والعقول، وهي نظام كل شي، فكيف نوفق في تطبيقها؟ فالإنصاف عزَّ في هذه الأيام، وسيطر مكانه الخلاف، فصارت الحاجة ماسّة إلى المنهج السليم، والقسطاس المستقيم، لنزن الأمور، ونبتعد عن الجور، ولا يزال الناس على طريقة الغلو والطعن فيمن يخالفهم، والمبالغة في نقدهم، بلغة شديدة، وعصبية عجيبة، لا يبالون بتصدير الأحكام، عدواناً وجهلاً، وما سلك هؤلاء سبيلاً مستقيماً، ولا تحروا منهجاً قويماً، بل منهجاً بعيداً عن الإنصاف، لهجته بالغة الاستخفاف، فالقواعد والأصول اللازمة للوصول للحق والصواب في المجالات والحوارات، وفي نقل الأخبار والشهادات،العدل والوفاء، والبذل والعطاء، وإنزال الناس منازلهم، ودفع الظلم عنهم، وليس من عادة الكرام سرعة الانتقام، ومن أساء فعلى نفسه اعتدى، ومن طال تعديه كثرت أعاديه، فالتعصب المذموم والغلو المشؤوم كم جلبا للإنسان من شر، وأوقعا صاحبهما في خُسْر، وكم يعقب صاحبهما من ضير، ويحرم بسببها من خير! وبناء على ما جاء في الآيات وقواعد التعامل البينات قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة: ٨).

فاحرص على الإنصاف، ولا تضخم الخلاف، واحذر آفة الانحراف، فمن مال إلى الحق مال إليه الخلق، واستعن على العدل بقلة الطمع، وشدة الورع، فإن في حفظ المودّات ورعاية الحرمات حسن الوفاء، وطيب الثناء، والرسوخ في الإنصاف بحاجة إلى قدر كبير من خلق رفيع، ودين متين، فاحذر قلة الإنصاف، فالإنصاف طريق الائتلاف.

ألا وإن الله قد حفظ لكل عامل عمله، وأحصى على كل عاص زلله.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٧٥ | رجب ١٤٣٤ هـ
العام الخمسون
مايو - يونيو ٢٠١٣ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ -
الكويت - هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.com
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي الوزارة أو المجلة.

في هذا العدد

العدل طريق التحضر والبناء..
نستمد من مفهومه معنى تكريم الله
لبني الإنسان.

٦

تصدقوا قبل أن تكونوا أغنياء

٣٢

العدل أساس الملك

٤٤

حوادث السير

٥٦

صناعة التأليف.. إطلالة على الضوابط

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٢٤٧٨٩١١- ٢٢٤٧٨٩١٢ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٢٤٧٨٩١٠ (٠٠٩٦٥)

- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ - رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة - رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا - شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٦)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار
●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

٣	الافتتاحية/ العدل والعدالة	فيصل يوسف العلي
٦	دعوة/ تصدقوا قبل أن تكونوا أغنياء	عبدالعزيز العسكر
٨	حوار/ د.صلاح سلطان	دار الإعلام العربية
١١	خواطر/ أرض الأحلام	هنادي الشيخ نجيب
١٢	فكر/ الحوار النبوي وفق منهج الشورى	عبد بن محمد بركو
١٤	قرآن/ من قوانين النصر في الذكر الحكيم	حسن أبوالفضل
١٧	فكر/ المساواة في المنظور الإسلامي	حسين سباهي
٢٠	ملف العدد/ العدل مرتكز حضاري لنهضة الأمم	د.محمد المشطاوي
٢٢	ملف العدد/ إنصاف الفقه يجدد المعرفة الإسلامية	د.محمد سعيد باه
٢٦	ملف العدد/ وسطية الإسلام تضمن كل الحقوق	دار الإعلام العربية
٢٨	ملف العدد/ القيم.. وضعية أم دينية؟ (العدالة نموذجًا)	عبدالوهاب المصري
٣٢	ملف العدد/ العدل أساس الملك	محمد فؤاد
٣٥	مناسبات/ «الوعي» تشارك في معرض الكتاب الإسلامي الـ ٣٨	التحرير
٣٦	دراسات/ الأوقاف دعامة للمجتمع المدني	د.محمد بدرالدين
٤٠	دراسات/ الاتجار بالبشر في التشريع الإسلامي	د.رضا إسماعيل
٤٤	دراسات/ حوادث السير	د.سيد حبيب
٤٨	دراسات/ الأمثال العاميّة بين الثقافة الموروثة وبين العقيدة الصحيحة	رشيد الحسن
٥٢	لغة وأدب/ القول المأثور في تصحيح الصواب المهجور	عبدالله أيت الأعشير
٥٤	لغة وأدب/ الكتب الممنوعة	عزالدين عنابة
٥٦	لغة وأدب/ صناعة التأليف.. إطلالة على الضوابط	محمد النادي
٥٨	لغة وأدب/ التراث العربي لا يفتقر للبعد الدرامي	التحرير
٥٩	لغة وأدب/ حديث الرعية	محمود بكر
٦٠	تراث/ حسن البيان في نظم مشترك القرآن	صالح عبدالخالق
٦٥	لغة وأدب/ سر المرأة المستكينة	محمد ثابت
٦٦	استطلاع/ «طوب قابي».. قصر عثماني تنيره المخطوطات	رئيس التحرير
٧٠	أسرة/ كيف يتجاوز الآباء المنافسة السرمدية بين الأبناء	بشرى شاكر
٧٢	أسرة/ دعاء الآباء.. صلاح الأبناء	أحمد المتوكل
٧٤	أسرة/ التعدد بين عدالة الشريعة وتجاوزات الإفراد	مياسة النخلاني
٧٨	تحقيق/ الإنسان.. صانع التنمية	دار الإعلام العربية
٨٠	منارات/ صنعاء.. نبض الحياة	دار الإعلام العربية
٨٢	تاريخ/ تفسير تاريخ المسلمين (٢)	د.أحمد الشال
٨٤	أعلام/ مصطفى حجازي.. شيخ المحققين	التحرير
٨٧	طب/ لماذا حرم ديننا الحنيف الخمر؟	د.محمد الصديقي
٨٨	فتاوى الوعي	محمود الكبش
٩٠	الوعي نت	خالد محمد
٩٢	بريد القراء	علاء عبدالفتاح
٩٦	ينابيع المعرفة	تركي النصر
٩٨	مسك الختام/ النفاق الناعم	د.خالد راتب

كلمة العدد

إنكار الذّات

حاصر جيش المسلمين بقيادة الأمير الفاتح مسلمة بن عبدالملك الملقب بـ«خالد بن الوليد الثاني» ذات يوم حصنًا، وقد استعصى فتح الحصن على الجنود، فوقف مسلمة يخطب بينهم ويقول لهم: أما فيكم أحد يقدم فيحدث لنا نقبًا في هذا الحصن؟

وبعد قليل تقدم جندي ملثّم، وألقى بنفسه على الحصن، واحتمل ما احتمل من أخطار وآلام، حتّى أحدث في الحصن نقبا، كان سببا في فتح المسلمين له، وعقب ذلك نادى مسلمة في جنوده قائلًا: أين صاحب النقب؟

فلم يجبه أحد، فقال مسلمة: عزمت على صاحب النقب أن يأتي للقائي، وقد أمرت الآذن بإدخاله علي ساعة مجيئه، وبعد حين أقبل نحو الآذن شخص ملثّم، وقال له: استأذن لي على الأمير، فقال له: أأنت صاحب النقب؟

فأجاب: أنا أخبركم عنه، وأدلكم عليه، فأدخله الآذن على مسلمة، فقال الجندي الملثّم للقائد: إن صاحب النقب يشترط عليكم أمورًا ثلاثة: ألّا تبعثوا باسمه في صحيفة إلى الخليفة، وألّا تأمروا له بشيءٍ جزاء ما صنع، وألّا تسألوه من هو؟، فقال مسلمة: له ذلك، فأين هو؟ فأجاب الجندي في تواضع واستحياء أنا صاحب النقب أيها الأمير، ثمّ سارع بالخروج.. فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلي صلاة إلّا قال في دعائه: اللّهمّ اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة.

بالفعل هذه القصة تكشف حقيقة إنكار الذّات التي تعد من أعلى درجات السمو في النفس البشرية، حيث لا يرى الإنسان نفسه مطلقًا، وليس له حظٌ في حياته، وإن كان حلالًا ومقبولًا في عرف الناس، مضحيًا في سبيل الآخرين، صادق الكفاح من أجل مبادئه وعقيدته ووطنه.

التحرير

الاشتراكات
• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

تصدقوا قبل أن تكونوا أغنياء!

عبدالعزيز صالح العسكر
عضو الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

دعا أنبياء الله تعالى ربهم فاستجاب لهم، نوح يستغيث بالله ويطلب منه أن ينجيه من الكرب العظيم، وأيوب يشكو إلى الله ما مسه من ضر، ويونس ينادي الله تعالى وهو في الظلمات: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وزكريا يطلب الولد وهو شيخ كبير وامرأته عقيم، ولهؤلاء الأربعة عليهم السلام قال تعالى: ﴿فاستجبنا له﴾، فنجى نوحًا من الكرب، وكشف الضر عن أيوب، ونجى ذا النون من الغم، ووهب زكريا ابنه يحيى.. فلماذا استجيب لهؤلاء ولغيرهم من الأنبياء؟

لقد جاء الجواب بعد ذكر قصصهم مباشرة في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

نعم: كانوا يسارعون في الخيرات: وقت الرخاء والعافية والغنى، يسارعون ويسابقون، فيعدون العدة للشدائد والكروب والمحن والأمراض والابتلاء، عرفوا الله في الرخاء فعرفهم في الشدة، سبحانه وتعالى وجلت قدرته وله الحمد ملء السموات والأرض.

ولقد كانت استجابة الأنبياء لربهم قوية عاجلة، والدعوة التي وجهت لهم ننادي بها نحن اليوم لنكون من أتباعهم، يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

وقال الله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الحديد: ٢١).

أما الآيات التي وردت في ذكر الأنبياء الذين دعوا ربهم فاستجاب لهم فهي:

١- قول الله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(الأنبياء: ٧٦).

٢- قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣-٨٤).

٣- قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾(الأنبياء: ٨٩-٩٠).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(الأنبياء:٩٠).

وأمام هذه النصوص الكريمة أقول: وبعد تجارب في أعمال البر والمعروف على مدى عقود من الزمن، وجدت نفسي بعدها وفي يوم من الأيام وبعد تجربة مع بعض من منَّ الله عليهم بثروة كبيرة أتذكر قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (التوبة: ٧٥-٧٦).

ولقد وجدت أن أسرع الناس مبادرة إلى الصدقة ومساعدة الضعفاء والمساكين وبناء المساجد وغيرها من وجوه البر والإحسان هم من غير الأثرياء، وأكثرهم من النساء وكبار السن، أو من وصايا أموات!

هذه ظاهرة لا يجادل فيها أحد في أيامنا وزماننا الحاضر، فلماذا وصل بنا الحال إلى ذلك؟ حاولت تلمس أسباب هذه الظاهرة فوجدت مايلي:

أولًا: إن حب الدنيا والتعلق بشهواتها يكبر مع الإنسان، ويزداد كلما ازدادت الثروة، وسبب ذلك أن من حصل على الثروة يشعر بأنه لم يحصل عليها إلا بعد جهد، ثم إن غيره من بعض أقاربه أو جيرانه أو زملائه لم يحصلوا عليها، فهو يخاف من ذهابها أو «نقصها»، ثم رجوعه إلى «مستواهم» المادي.

ثانيًا: إن الأثرياء يرون أن مستوى إنفاقهم كبير.. السيارة بمبلغ ضخم، والمسكن فاخر جدًا وغال جدًا، وقد أتبعوا ذلك بسيارات الأبناء والأجهزة المستعملة في المنزل.. فتلك النفقات جميعها «منهكة» للثروة، فكيف يبقى (في نظرهم) مجال للبر والإحسان إلا بمبالغ يسيرة زهيدة، أما غير الأثرياء

بعض المترفين في غفلة عن الموت لا يدركون قيمة الحياة الدنيا

فسياراتهم متواضعة ومساكنهم متواضعة، ولذلك ينفقون في وجوه البر والإحسان أضعاف ما يبذله «بعض» الأغنياء والأثرياء والمترفين.

ثالثًا: الالتصاق بالشهوات والتهالك عليها ونغمة الملايين وترددها في سمع الغني تضعف الرغبة في ثواب الآخرة، فتكون العاجلة ومباهجها ومظاهرها أحب إليه وأقرب إلى ذهنه، فهو يسابق إليها ويسارع إليها ولا يفوت فرصة فيها، وإذا حاول أن يتغلب على نفسه وشهوته فقد يصل إلى مستوى أن يوصي ببناء مسجد بعد موته أو إنشاء وقف خيري!! وأكررها «بعد موته» أما في حياته فإن الفرصة لاستثمار تكاليف المسجد، أو الوقف مازالت ممكنة وهي في نظره أولى، وإذا مات أصبح رهينة سخاء ورثته، وكثيرًا ما يختلفون حول ذلك، ويعارض بعضهم بذل أي شيء في مسجد أو وقف، فلن يكونوا أحرص منه على آخرته، نسأل الله العافية والهداية.

أما غير الأثرياء فقد أراحهم الله من ذلك العناء، وسخت أنفسهم بالبذل في وجوه الخير، وبنوا لله مساجد أمتعوا أبصارهم برؤيتها وهم أحياء، وتوالت فرص الخير لهم، وكل عمل بر يقود إلى غيره، فقوي حب الآخرة والثقة فيما عند الله، والتلذذ بالبذل، وخاصة إذا رأوا آثاره وفوائده وهم أصحاء أشحاء، وهذا خير الإنفاق كما ورد في الأثر «أن تتصدق وأنت صحيح شحيح».

رابعًا: يضع الشيطان أمام الأثرياء شبهات وأوهامًا ليس لها حقيقة، وتروج أقوال المرجفين والمثبطين، وقد سمعت من ذلك كثيرًا.. ومن تلك الشبهات والأوهام:

أ- الفقراء كذابون متحايلون!

ب- المساجد كثيرة وننتظر حتى تمتلئ!

ج- قد أنفقنا كذا يوم كذا، متناسين قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر:٦)، وكأن إنفاق سنة في العمر يكفي، وأن دفع الزكاة الواجبة- أو بعضها- يكفي!

د- غيري أكثر ثروة مني فاذهبوا إليه!

وهكذا من أوهام يمليها دعاة الباطل والمرجفون والمنافقون في كل زمان وكل مكان.

خامسًا: يقع ذلك كله لبعض المترفين والأغنياء في غفلة عن الموت، وعدم فهم لقيمة الدنيا وأنها متاع وظل زائل، ويصحب تلك الحال قسوة في القلب، وتبلد في الإحساس، فإذا حصل لبعضهم ما يفجعه في ماله أو ولده طالت حسرته، وعضَّ أصابع الندم في وقت قد لا ينفعه فيه الندم، هذا إن لم يفجأه هادم اللذات قبل أن يعد العدة لملاقاة الله تعالى.

سادسًا: أما في الآخرة فقد ورد أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام لطول الحساب وصعوبته، والحساب صعب، إذ يحاسب كل فرد عن كل درهم من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وليس له من ماله إلا ما قدمه لآخرته، أما ما خلفه فمصلحته لوارثه وحسابه عليه.

أسأل الله الكريم الرؤوف الرحيم أن يعيننا على أنفسنا، وأن يجعلنا من أوليائه الصالحين وحزبه المفلحين، وأن يجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا، وأن يقينا شح نفوسنا وسيئات أعمالنا، وأن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر.

د.صلاح سلطان الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية:

إذا اشتد الهجوم على الإسلام فاعلم أن الشجرة أثمرت

حسن يسري - القاهرة
دار الإعلام العربية

أكد الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر الدكتور صلاح سلطان على مجموعة من الخطوات متسلسلة لا بديل عنها، لإعادة الروح للحضارة الإسلامية، كما أكد في الوقت ذاته أن ما يتعرَض له الإسلام من عدوان متكرر من قبل الغرب ينعكس إيجابيًا عليه، وعلى الرغم من ذلك شدّد على أن المسلمين مطالبون بالانفتاح على الآخر.. وأوجز خلاصة تجربته، خاصة في الولايات المتحدة الأميركية بتقدير واحترام مكانة الإنسان.. إلى التفاصيل.

● بداية.. خضتم تجربة كفاح مشرِّفة مع التعليم، تخطيتم خلالها العديد من الحواجز، وأهمها الفقر والغربة.. ما الذي تحمله هذه التجربة من قيم تفيد جيل الشباب؟

بعد بسم الله، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد ﷺ، أود أن أرحب بـ«الوعي الإسلامي» أولًا في «المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية»، وأقول: إن هذه التجارب الصعبة التي خضتها، وعانيت منها، تتبلور عندي في احترام وتقدير الإنسان، فأهم شيء عندي هو كرامة الإنسان، فالله تعالى يقول: (ولقد كرمنا بني آدم)، لذلك أول شيء طبقته هنا عندما تولّيت مسؤولية «المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية» أن حقوق الأفراد يجب أن تصل إليهم قبل أن يطلبوها، فكرامة الإنسان عندي تأتي في المقام الأول، وهذا ما حاولت أن أغرسه هنا في المجلس.

الأمر الثاني: وهي القيم التي يجب أن يتعلم منها الشباب، حتى تكون عونًا لهم في مستقبلهم، هو أنني دائمًا أعمل على التوازي، لا على التوالي.. فعلى سبيل المثال، هنا في المجلس نقوم في اليوم الواحد بعدد كبير من الأنشطة المتنوعة، من ندوات ولقاءات وحوارات، يمكن أن تأخذ منا وقتًا كبيرًا، لو تمّ تطبيقها على التوالي.. لكن لأننا نعمل بشكل متوازٍ

لدينا عدد كبير من الأنشطة نقوم بها يوميًا، وذلك بتوظيف الكوادر الموجودة في نفس هذا الاتجاه.

بوصفك رئيسًا للمركز الأميركي للأبحاث الإسلامية بولاية أوهايو الأميركية، ومن خلال تجاربك في دول مختلفة خصوصًا الغربية منها، ووجود حالة من التنوع والتعدد الثقافي لتلك الشعوب،

● ما الأثر الذي تركه المسلمون على تلك المجتمعات، وهل تراه أثرًا إيجابيًا أم سلبيًا بسبب التضليل الإعلامي؟

عندما ترى هذا الهجوم الكبير والمتعمَّد على الإسلام، تعلم أن الشجرة قد أثمرت وأينعت، فالناس لا ترمي الشجرة غير المثمرة بالحجارة، إلّا بعد نضج الثمرة، ووضوح ذلك النضج عيانًا بيانًا على أرض الواقع.. لذلك أقول وبفضل الله تعالى، هناك تأثير كبير جدًا أحدثه المسلمون في تلك المجتمعات الغربية، وأذكر لكم على سبيل المثال لا الحصر، بعد أن خرج بعض المسلمين من بعض البلدان العربية فارين بدينهم تحت نيران السجن والمعتقلات، كان هناك نحو ثماني مراكز إسلامية في كل أميركا الشمالية، وهي أميركا وكندا، أصبح الآن بفضل الله أكثر من ٣٠٠٠ مركز إسلامي هناك، وهناك أكثر من ٧٠٠ مدرسة إسلامية، ولم تكن هناك مدرسة إسلامية واحدة، والتي تعرف بنظام الـ full time، لم يكن هناك ولا مؤسسة سياسية إسلامية واحدة، أصبح الآن هناك أكثر من ١٧٠ مؤسسة سياسية إسلامية، كما يوجد الآن عمدة مدينة، ومحافظ من المسلمين، أي رئيس مجلس للمدينة، إضافة إلى أعضاء مسلمين في الكونجرس الأميركي.. أصبح المسلمون رقمًا صعبًا في أي انتخابات أمريكية، وأصبح أي مرشح رئاسي أميركي، يضع في حسبانه أمر تأييد أو عدم تأييد المسلمين له، ولم يعد اليهود وحدهم ومنظمة الأيباك هي اللاعب الرئيسي في الانتخابات الأميركية، أو هي التي

تلاقي الحضارتين الغربية والإسلامية مرهون بالتوافق

تحدد الرئيس القادم بما تشكله من جماعة ضغط على الكونجرس الأميركي، بل أصبح المسلمون طرفًا مهمًا في هذا الأمر. وبناء عليه، أؤكد على أن المسلمين ينطلقون بقوة وبعزم، رغم تلك الحملات المنهجة التي تحاول النيل منهم، وتشويه صورتهم.

● هل يمكن أن تتلاقى الحضارتان، الغربية والإسلامية؟ وكيف في ظل اختلاف رؤية كل منهما للأخرى؟ بمعنى أن الحضارة الغربية تؤمن بمبدأ تصادم الحضارات، بينما الحضارة الإسلامية تؤمن بتواصلها؟

بالطبع يمكن أن تتلاقى الحضارتين، لكن نحن الذين ندعوا إلى ذلك الالتقاء ومظاهره من تعاون وتعارف وتواصل، فالإسلام هو دين السلام، وهذه هي مبادئنا وثوابتنا التي يجب أن نتحرك وننطلق منها، رغم أن الغرب هو الذي تبنّى نظرية التصادم The Clash of Civilizations عن طريق «صمويل هنتنجتون»، وهو أستاذ علوم سياسية، وكاتب أمريكي معروف.. فلا يعقل أن تنادي الولايات المتحدة بالعدالة، ونبذ التمييز العنصري بين السود والبيض، داخل المجتمع الأميركي، ثمّ تمارس ذلك بأبشع أنواع القهر والاستبداد ضد الشعوب الأخرى.. فالسياسة الأمريكية تقوم على التمييز العنصري بين الشعوب، والقهر والاستبداد، واستنزاف ثروات الشعوب، فعلى أمريكا أن تتعامل مع النسيج العربي وثورات الربيع العربي، بقدر ما تتعامل به مع الأمريكيين من تساو في الحقوق والواجبات.

وهذا التلاقي بين الحضارتين، مرهون بما يتعامل به المشروع الغربي مع المشروع الشرق أوسطي العربي الإسلامي، ليس بمنطق الاستلحاق لكن بمنطق الوفاق، والسباق الشريف بين الحضارتين، بمعنى أن نصنع الحضارة العالمية معًا، لا أن نكون ذيلًا لأحد، ونحن لن نقبل أن نكون ذيلًا على الإطلاق لأحد، حتّى لو أدى هذا الأمر إلى التدافع الذي أمرنا الله به سبحانه وتعالى.

● متى يستطيع المسلمون أن يعيدوا ثانيًا مجد حضارتهم، وهل من خطوات عملية لذلك؟

المسلمون مطلوب منهم اليوم أن يعيدوا كل المنظومة العملية التي تعيد لهم مجد حضارتهم من جديد، لكي تبدأ الرسالة الإيمانية قبل كل شيء.. هذه المنظومة العملية يجب أن تنطلق بدءًا بالجوانب الإيمانية، ثمّ الجوانب الأخلاقية، ثمّ الجوانب العلمية والفكرية، ثمّ الجوانب العمرانية والحضارية، وبغير هذا التسلسل لا يمكن أن نبني حضارة مميزة، ولا يمكن أن نستعيد هذا المجد مرة ثانية.. فالجانب السياسي الآن أصبح يطغى على كل حياتنا، وأصبح الناس مشغولين بالجانب السياسي، بشكل كبير، وأصبح ٨٠٪ من الأمّة الآن يتكلم في السياسة، ومع استمرار واقتراب كل استحقاق انتخابي أو أزمة تمر بها الأمّة يصبح المجتمع كله منشغلا بالسياسة بنسبة ١٠٠٪، وهذا نذير خطر على الدعوة الإسلامية، وعلى بدء انطلاق وبناء الحضارة الإسلامية.

وأنا أصرخ بأعلى صوتي، بعد أن كنت أنادي بصوت خافت في الدعاة والعلماء، وكل العاملين بالحقل الإسلامي بصفة خاصّة أن يعودوا إلى التوازن في العمل، كما قلت بدءًا بالجانب الإيماني، ثمّ الجانب الأخلاقي، ثمّ الجانب العلمي والفكري، ثمّ الجانب العمراني والخدمي والمجتمعي، لكن أن يتجه كل أفراد الأمّة إلى بوتقة العمل السياسي بغير خبرة ولا تجربة ولا رسوخ، فهذا ما أخشاه على المشروع الإسلامي.. ومع ذلك عندي أمل كبير جدًا في أن يلتقي النبوغ

والعبقرية المصرية، وما تمثله من قلب الوطن العربي والإسلامي، مع الخبرة والتجربة التركية، وما تمثله من تأثير أسيوي وأوروبي، مع الانطلاقة الماليزية الكبيرة والضخمة، فإذا اجتمع هؤلاء الثلاثة، أصبحت قاطرة حضارية عالمية ضخمة، سوف تحاول الكثير من الدول أن تشتري ودّ هذه المنظومة الكبرى الجديدة، وأعتقد أن هذا الأمر بات قريبًا، وليس بعيدًا.

تعرض منزلكم في الولايات المتحدة الأميركية لاعتداء من أحد المتعصبين.. هل ترى أن حالة الكراهية والاحتقان الموجودة ضد المسلمين في هذه المجتمعات يمكن أن تتغيّر؟ وكيف؟

حتّى أكون منصفًا يجب أن ينفتح المسلمون مع غيرهم، وأن يقيموا علاقات اجتماعية، وتواصلًا مجتمعيًا هادفًا مع غير المسلمين، ونحن نحاول أن نقوم بدورنا في هذا المجال من تقديم دورات لهم، وآخر هذه اللقاءات كانت في فرنسا عن كيفية معاملة غير المسلمين في المجتمع الغربي، وكيف نتعامل مع غير المسلمين في الجوانب الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والسياسية، دون التخلي عن ثوابتنا ومبادئنا، وهنا أقول لكم «عندي استقراء شفوي» بعد أحداث سبتمبر، وما ترتب على ذلك من بعض الاعتداءات على بعض المسلمين، إن المسلمين المعتدى عليهم كانوا من المنعزلين عن المجتمع، أما المسلمون غير المنعزلين الذين كانت لديهم علاقات اجتماعية ناجحة مع غير المسلمين، أدى ذلك إلى ذهاب بعض الأميركيين والأميركيات لكي يحرسوهم، ويحرسوا مراكزهم الإسلامية، حتّى إن إحدى الأمريكيات غير المسلمات ارتدت الحجاب تضامنًا مع المسلمات المحجبات واللاتي تعرضن للإيذاء.

فحتّى نكون منصفين أقول: إن الأمر يبدأ من عندنا نحن المسلمين، يجب أن ننفتح على المجتمع الغربي، بثوابتنا ومبادئنا الإسلامية، مع الوضع في الاعتبار بأن الغرب له أحقاد تجاه المسلمين، لكن لابد للفريقين أن يعملا لإزالة تلك الأحقاد والكراهية، التي بثها الإعلام المضلل.

• هل ترى أن المجتمع العربي بدأ يتخلص من حالة التغريب الثقافي التي تمّ وضعها من قبل الاستعمار وأعوانه؟ أم أننا نقبع تحت آثاره ووطأته؟ وكيف يتخلص المجتمع العربي من آثار ذلك التغريب؟

لا شك أن ثورات الربيع أحدثت في المجتمع العربي نوعًا من العزة والكرامة، أدركوا أن لهم تاريخًا وجذورًا وحضارة، وأنهم ينتمون إلى تاريخ وثقافة ودين، توقف على إثرها الزحف العربي وراء المشروع الغربي، والواقع أن هذا الزحف تراجع كثيرًا نحو المشروع الغربي، ولم يعد قويًا كما كان قبل ثورات الربيع العربي، كما تراجع الذين كانوا يدعون إلى المشروع الغربي، خوفًا على أنفسهم، وخوفًا من ذلك المد القوي للمشروع الإسلامي، إضافة إلى سقوط الكثير منهم من قادتهم وزعمائهم، ممن كانوا ينادون بالمشروع الغربي، والواقع أننا إذا أردنا التخلص من حالة التغريب الثقافي التي تمّ وضع المجتمع العربي فيها، يجب أن نعلم أن الإنسان بطبعه مولع بتقليد القوي، وأن الضعيف دائمًا ما يتأثر بالقوي في كل المجالات، فيجب أن نصل إلى مرحلة القوّة في كل شيء، إيمانيًا.. أخلاقيًا.. اقتصاديًا.. اجتماعيًا.. نأكل مما نزرع، نلبس مما نصنع، علميًا أن نتفوق في المجال العلمي على من سبقونا، وأن تكون لنا براءات اختراع مميّزة في كل المجالات، عندئذ، سوف نكون في موضع الريادة والقدوة من غيرنا.

• تعلم أن اللغة هي أحد المكونات الحضارية المهمة لأي أمّة، فكيف نحيي لغة الضاد، لتكون مكونًا حضاريًا ينهض بأمّتنا؟

اللغة العربية تحتاج إلى مراحل أربع، فالناس الذين يتعسرون في العربية لابد من تصحيح اللغة لديهم، في جانب النطق، وجانب الكتابة، وجانب الاستماع، وجانب القراءة.. ثمّ الخطوة الثانية، كيف يجيد هؤلاء اللغة العربية بشكل سلس وميسّر.. ثمّ مرحلة تذوق اللغة العربية، ومعرفة أهميتها، وأنها لغة القرآن الكريم ولغة أهل الجنة، وأنها من أفضل وأقوى اللغات الموجودة على الأرض.. ثمّ مرحلة صناعة الأدباء، فنحن غاب عنا أدباء مثل الرافعي، والعقاد، ومحمود شاكر، وغيرهم، ونحن نريد إعادة هؤلاء مرة أخرى إلى واقعنا، حتّى يكونوا ميزانًا للحفاظ على اللغة العربية.. فلابد من إعادة بناء اللغة العربية، لتكون مكونًا حضاريًا مهمًا ينهض بأمّتنا.

أرض الأحلام!

هنادي الشيخ نجيب
كاتبة صحافية - لبنان

قصة أهديها إلى كلّ محبطٍ، وضع في ظروف قاسية وصعبة.

قصة أضعها بين يدي كلّ طامح عازم، عارضه محيط معقّد، وواجهته تحديات فاقت كلّ التوقعات.

قصتنا تخاطب مَنْ حزن، وأرعد وأزبد، عندما أخفق، وعجز أن يغيّر النتيجة لصالحه، محتجًّا بالقدر.

وعاجز الرأي مضياعٌ لفرصته
حتى إذا فات شيءٌ عاتب القدرا

لا أرويها تشاؤمًا، ولا تلاومًا، ولا حتى ندمًا، بل اعتبروها- قرّاءنا الكرام- دفعة إلى الأمام، ودفقة لتجاوز الآلام.

هاجر مزارع هولندي إلى جنوب إفريقيا، للبحث عن فرص جديدة، لحياة أفضل. وكان قد باع كلّ ما يملك، آملًا بشراء قطعة أرض خصبة، ليحوّلها إلى مزرعة ضخمة. قابل المزارع تاجر أراضٍ أقنعه بتملك قطعة لا مثيل لها في المنطقة، فتحمّس لها ودفع ثمنها ماله كلّه، لكنّه عندما وصل ليعاين أرض أحلامه، اكتشف أنه وقع ضحية عملية غشّ مدروسة، لقد اشترى مساحة جدباء لا تصلح للزراعة، ليس هذا فحسب، بل وجد أنّ «أرض أحلامه» تعجّ بالعقارب والأفاعي السامة.

جلس على ركام حلمه يندب حظه المتعوس، وظرفه المنحوس، وإذا بفكرة غير متوقعة تخطر على باله: لماذا لا ينسى أمر الزراعة والمزرعة، ويحاول أن يستفيد من كثرة الأفاعي في أرضه؟ لماذا لا يسعى لإنتاج مضادات السموم الطبيعية؟

لم يسترسل طويلًا في التفكير، وراح يعدّ نفسه لهدف جديد فرضته الظروف المحيطة..

واستطاع -بفضل مرونته في التعامل مع المستجدات-، أن يحوّل مزرعته إلى أكبر منتج للقاحات السموم في العالم، محقّقًا نجاحًا باهرًا، لتخصّصه- وحده- في مجال تربية الأفاعي والعقارب، والاستفادة منها.

واستنادًا إلى ما وصل إليه ذلك المغامر، يقول الباحثون: من أراد أن يكون ناجحًا، فليرفع سقف طموحاته إلى أعلى ما يكون، وليخفض مستوى توقعاته إلى أدنى ما قد يكون.. وليكتب آراءه وأهدافه بقلم رصاص، حيث التعديل والتصحيح، ولا ينسى أن يدوّن مبادئه وقيمه بقلم جاف، حيث الرسوخ والثبات.. وذلك يعني أن يبدأ الطامحون في توطين أنفسهم مع أسوأ الاحتمالات، وافتراض أدنى التوقعات، ومحاولة التصالح مع الواقع، والاشتغال بإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

فإذا دهمتكم مصيبة، حاولوا أن تجدوا لها وجه خير، وإليكم هذا المثال:

لو قدّم لكم أحدهم كوبًا من الحامض، ليفسد عليكم مزاجكم، بحجة أنه يضيفكم ويكرمكم، فما عليكم إلا أن تضيفوا إليه حفنة من السكر، وقليلًا من الماء، لتتمتعوا بشراب الليمون المنعش!!

فحتى نحوّل ما كرهناه اليوم إلى ما نحبّه غدًا، لابدّ من التفكير باحتمال: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة:٢١٦)، كما أنّه من الضروري أن نستعدّ بثلاثة أمور:

بالصبر، كي نتحمّل ما لا يمكن تغييره.

بالشجاعة، لكي نغيّر ما يمكن تغييره.

وبالحكمة، للتمييز بين الاثنين.

شبابنا الأعزاء، في مسيرة السعي الإيجابي لتحقيق الأحلام، احرصوا ألّا تتحسروا على ما فاتكم، فإنّ ما لم يُكتب لكم، فهو عسير عليكم، ولن تنالوه ولو بقوتكم.. لكن ثقوا بأنكم لم تفقدوا شيئًا إن وجدتم ربكم، كما أنكم لن تربحوا شيئًا إن فقدتم الطريق الموصلة إليه فماذا ينفع الإنسان لو حاز على ملك كسرى، وقلبه بالباطل مكسور؟ وماذا يفيده لو حصل على سلطان قيصر، وأمله عن الخير مقصور؟!

إنّ علينا إلا أن نتوكل على الله، ونطمئن، لأننا نتعامل مع غالب على أمره، لطيف بعباده، رحيم بخلقه، حسن الصنع في تدبيره.. وإنّنا لا ندري ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق:١).

الحوار النبوي وفق منهج الشورى

عبد بن محمد بركو- كاتب مغربي

الشورى إحدى القواعد الأساسية في نظام الحكم في الإسلام، والغاية منها منع الاستبداد في الرأي، أو الانفراد في اتخاذ القرار الذي يخصُّ جميع قضايا الأفراد،

وقد نصَّ القرآن الكريم على الشورى في آيتين، حيث خاطب الله تعالى فيهما رسوله محمدا ﷺ وأمره بالمشاورة، قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران: ١٥٩).

والأمر بالشورى في الآية للوجوب، لأن الأصل في الأمر الوجوب، ما لم يصرف عن ذلك بقرينة، ولا صارف له هنا، والآية الثانية هي: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

وسميت السورة كلها باسم الشورى، نظرًا لأهميتها ووجوب الالتزام بها، وقرنها القرآن

بالصلاة والزكاة واجتناب الفواحش، مما يدل على أهميتها الفائقة.

والتزم النبي ﷺ بأمر ربه، فكان يدعو للشورى، متخذًا منها منهجًا للحوار، حيث كان يشاور أصحابه في مختلف أمورهم الدينية والدنيوية، وقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى أن الشورى في الإسلام تعدُّ منهجًا أساسيًا للتفاهم والحوار.

منها قوله ﷺ «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم» .

وقال أبوهريرة رضي الله عنه: «لم يكن أحد أكثر مشاورة من الرسول» .

وأعطى النبي ﷺ مبدأ الشورى للحوار والمناقشة وتبادل الآراء أفقًا لا محدودًا، حيث استشار أصحابه الكرام في وقائع مهمة كثيرة، واستمع لآرائهم، واستفاد من تجاربهم وخبراتهم، كاستشارتهم قبل موقعة بدر، في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، عندما علم ﷺ بخروج قريش من مكة بعددها وعدتها، تريد القضاء على المسلمين في دار الهجرة، فجمع صحابته من المهاجرين والأنصار، وعرض عليهم الموقف من مختلف نواحيه، ثم قال يطلب مشورتهم: «أشيروا علي أيها الناس»، فقام أبوبكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما عن فريضة الجهاد والثقة في النصر، ثم قام المقداد بن عمرو، وكان خرج من قريش ولحق بالمسلمين في سرية عبيدة بن الحارث ودنا من المصطفى، وقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة: ٢٤)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد- بأقصى الجنوب- لجالدنا معك دونه حتى تبلغه.

فدعا له المصطفى بخير، ثم التفت ﷺ إلى الأنصار، ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد، وعاد يقول: «أشيروا علي أيها الناس».

سأل نقيبهم «سعد بن معاذ»: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟».

أجاب المصطفى: «أجل».

فقال سعد: «فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله».

وهكذا سار بهم رسول الله ﷺ على بركة الله، حتى نزل بماء بدر، لتكون معركة بدر الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ الإسلامي بخاصة، والتاريخ الإنساني بعامة، وقد قبل ﷺ رأي الحباب بن منذر بن الجموح في النزول قرب ماء بدر.

واستشار النبي ﷺ صحابته الكرام رضي الله عنهم في أمر الخروج من المدينة قبل موقعة أحد.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب «رحمه الله»: استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج إليهم، وكان رأيه ألّا يخرجوا، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه السكك، والنساء من فوق البيوت، ووافقه عبدالله بن أبي -رأس المنافقين- على هذا الرأي، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة- ممن فاتهم بدر- وأشاروا على رسول الله ﷺ بالخروج، وألحوا عليه، فنهض ودخل بيته، ولبس لأمته، وخرج عليهم، فقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج، ثم قالوا: إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل، فقال: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»، فخرج في ألف من أصحابه، واستعمل على المدينة عبدالله بن أم مكتوم».

وهكذا مرة أخرى أخذ ﷺ برأي الأكثرية من أصحابه في صورة عظيمة من أروع صور الحوار وقبول الرأي الآخر.

واستشار النبي ﷺ أصحابه في كثير من الأمور المهمة والقضايا الملحة.

وأراد (عليه أفضل الصلاة والسلام) بالمشاورة «الاطلاع على أي وجيه، وتقليب وجهات النظر في الموضوع، والانتباه إلى مختلف الجوانب، والأدلة والأحكام التي يتفطن لها الجماعة أكثر من الواحد، والقضاء على عادة جاهلية باطلة، وهي الاعتماد على زجر الطير لاتخاذ القرار في الخروج والعمل، أو الإحجام والقعود».

وهكذا انبثق الحوار النبوي من مبدأ الشورى الذي جاء به القرآن الكريم، واتسعت ميادينه وتعددت مجالاته من قضايا الفرد والأسرة إلى قضايا الأمة وشؤون الحكم، إلا ما ورد فيه نصٌّ قطعي، فلا مجال فيه للشورى إلا استثناء، أما الأمور الظنية فتجري فيها الشورى باتفاق.

لقد أرسى النبي ﷺ أسس الحوار انطلاقًا من مبدأ الشورى ومنهجه، وسار الصحابة (رضي الله عنهم) على طريق الحوار والمناقشة والإقناع وقبول الرأي الآخر، «ابتداء من مبايعة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم مبايعة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ترشيح أبي بكر له، وكذلك التشاور في خلافة عثمان، والمبايعة عن رضا المسلمين في خلافة علي، واتخاذ أبي بكر وعمر بعض الصحابة مستشارين لهما.

من قوانين النصر في الذكر الحكيم

حسن أبو الفضل
باحث دراسات قرآنية

أجهدت نفسي في فهم هذا الذي يحدث من إفساد في الأرض وسفك للدماء، فلا تحليل المحللين ولا سياسة السياسيين ولا كلام المتكلمين استطاع شرحه وتفسيره، ولكن ما إن تأملت كتاب الله عز وجل مستفسرا حتى سبق إلي بالجواب، ولما أنته بعد من السؤال، وكأني استغربت كما استغربت الملائكة في قول الله عز وجل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، بعد أن أخبرت باستخلاف الإنسان في الأرض. ولكنها إرادة الله تعالى وحكمته في تمييز الخبيث من الطيب، وما يقع الآن في سورية ووقع قبلها هو ضرب من هذه الحكمة.

ولما قال سبحانه ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران:١٧٩)، مخاطبا جيل الصحابة رضي الله عنهم، دل ذلك على أن ما دونه من الأجيال أولى بهذا التمييز إلى عصرنا هذا. فلا تقوم فتنة إلا ويتبين لك هذا من هذا، على مستويات الشعوب والعساكر والسياسيين والحكام إلى الدعاة، ومنه كان الناس على ثلاثة أصناف:

- صنف ساكت معتزل (١) للفتنة يثنى عليه لما فيه من الخير، ويعاب عليه تركه الانشغال بأمر المسلمين.
- وصنف عدو يحارب المسلمين ويقتلهم، وهذا الصنف مستمر من زمن النبي ﷺ إلى أن استقرت اليوم في فئات: الأولى مجاهرة بالعداوة للمسلمين وبالحرب على أهل السنة. والثانية منافقة تظهر الإيمان عند الضعف وعكسه عند القوة، فكم من عامة المسلمين خدعوا بهم وانساقوا معهم، فاعتقدوا فيهم الدفاع عن المسلمين والضعفاء منهم خاصة، ولكن ما إن ظهرت سنة الفتن هذه حتى أخرجوا شوكتهم متوجهين بها الى إخوانهم، فزيفوا الحقيقة وحرفوها، وساندوا أعداء أهل السنة والجماعة، وهذه هي عقيدتهم عبر التاريخ، فما إن يتمكنوا حتى يبدأ القتل لأهل الدين، وهذه سنة التدافع في خلق الله، والعاقبة للتقوى.

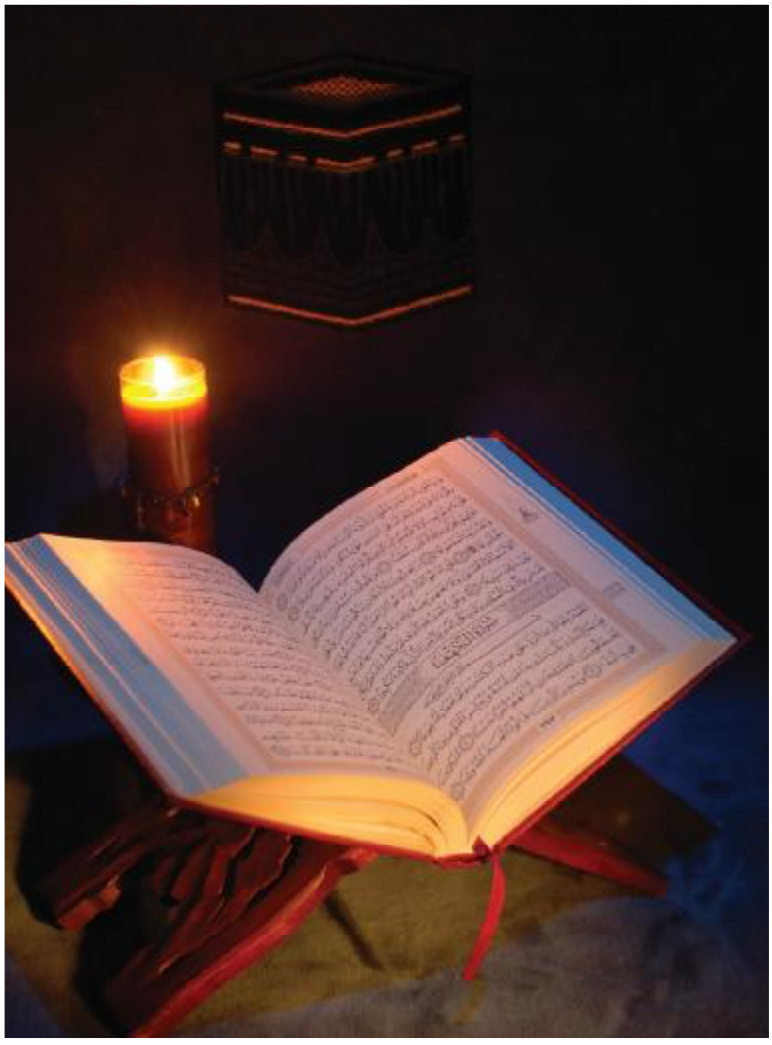

– صنف ثالث يدافع عن الحق بنفسه وماله ولسانه، وهذا الصنف استمر من زمن النبي ﷺ وسيبقى بإذن الله إلى قيام الساعة، وقد وعده الله تبارك وتعالى بالنصر فقال سبحانه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧). فبين عز وجل أن هذا النصر هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» (٢) ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣). وقال تبارك وتعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧) فرتب عز وجل النصر على وجود الشرط الذي هو نصر المؤمنين له، وذلك بنصرهم «لدينه ولكتابه وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا وأن تقام حدوده في أرضه وتتمثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ» (٤)، فهذا إذن هو الشرط الذي إذا تحقق في المؤمنين نصرهم الله عز وجل في كل عصر وفي كل أرض، وكذلك قال سبحانه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١)، وفي هذا تقرير لحقيقة عظمى، وهي أن من سنة الله في رسله أنه ينصرهم بانتصار دينهم وما يهدون ويدعون إليه، وإن طال الزمن واشتدت الفتن والمحن» (٥).

ومن هذه الآيات وغيرها نفهم القوانين والسنن الإلهية التالية:

– سنة التدافع بين الحق والباطل: وهو ما أشار إليه سبحانه في قوله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وهذا الصراع بين الحق والباطل معركة لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها، معركة الحق الواحد مع الباطل المتعدد الأشكال والألوان والأصناف (٦)، معركة إيقافها يفسد الأرض وتحريكها يصلحها، معركة قد يظهر على ظاهرها الشر، ولكن في حقيقتها الخير والنصر.

فالله سبحانه يدفع بأهل الحق أهل الباطل، وقيام المسلمين بهذا الواجب ينفي عنهم شر ذلك الصراع وتركهم لهذا الدفع يجلب عليهم شرا مستطيرا، وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا، كما قال ﷺ «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» (٧).

– سنة الأيام سجال بين الناس: فمن رحمة الله سبحانه أن جعل مداولة الأيام سجالا بين الناس، من شدة ورخاء، وقوة وضعف، وعز وذل، وصحة وسقم، وغنى وفقر (٨)، ولذلك قال عز وجل ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠). والآية وإن نزلت في غزوة أحد إلا أن مضمونها باق إلى يوم القيامة، ففيها بعد العزاء الكريم ذكر تعالى علة هذا الحدث الجلل والسر فيه فقال ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ «أي ليظهر بهذا الحدث المؤلم إيمان المؤمنين (قولا) وفعلا، فالمنافقون رجعوا من الطريق بزعامة رئيسهم المنافق الأكبر عبدالله بن أبي ابن سلول، والمؤمنون واصلوا سيرهم وخاضوا معركتهم فظهر إيمانهم واتخذ الله منهم شهداء» (٩).

فإذن كل هذا القرح المتداول بين الناس، القصد منه معرفة المؤمنين واتخاذ الشهداء. وفعلا ما أعظمه من قرح ذاك الذي تعرض له المسلمون يوم أحد حتى شج النبي ﷺ في رأسه وكسرت رباعيته، وقتل من المسلمين سبعون (١٠). وهذه أعظم مصيبة وقعت للمسلمين في تاريخهم، وبيان رحمة الله تعالى في ذلك أن قال ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤١-١٤٢).

– سنة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف: فإذا ما فشا الظلم وعدم إقامة العدل في أمة من الأمم، فقد تحققت فيها أسباب الهلاك، وحقت عليها سنة الله عز وجل بالهلاك ووقعت عليها القاصمة (١١)، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الأنبياء: ١١)، فبين سبحانه أن الظلم الحاصل من الجماعات موجب للهلاك، والآية في سياق الإخبار «أي قصمنا كثيرا من القرى التي كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين» (١٢).

هذه ليست كل السنن في القرآن، ولكن بعضها مما له قوة الارتباط بزماننا هذا، ولقد ذكرت محنة «أحد» حتى يُعلم أن غيرَها دونها في الألم والشدة، مع بقاء نفس الحكم والغايات إلى قيام الساعة، وهي في قوله سبحانه ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٧٩). ومن أدق ما قرأت في بيان هذه الحكم كلام ابن القيم (رحمه الله) بعد أن عنون بـ: فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في واقعة أحد،

قال «ومنها أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أنْ سبّبَ لعباده محنة ميزت المؤمن والمنافق، فأطلع المؤمنون رؤوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتهم، وعاد تلويحهم تصريحا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق، انقساما ظاهرا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا من نفس دورهم، وهو معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم» (١٣). وما أصوب وما أحكم هذا الكلام، وكأنه قيل في تفسير أحداث هذا الزمان، وفي تعليل محنة المسلمين في كل مكان، وهي تمييز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وقد كان، فامتاز هؤلاء، وهي أيضا معرفة المؤمنين أن لهم عدوا من دارهم لا يفارقهم، وقد كان، فقد نطق العدو الصامت – قبل – بعداوته، وأعلن مساندته للإجرام وللمجرمين بالإعلام والسياسة والسلاح.

هذا ومن قوانين النصر والهزيمة في القرآن الكريم ما يلي:

أ– النصر ابتداء وانتهاء بيد الله عز وجل، وليس ملكا لأحد من الخلق يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء مثله مثل الرزق، والأجل والعمل، قال سبحانه ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٠).

ب– حين يقدر الله تعالى النصر فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة قال تعالى ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠).

ج– هذا النصر له قوانين ونواميس ثابتة عند الله عز وجل، نحن بحاجة إلى فقهها، فلابد أن تكون الراية خالصة لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده، قال تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧) ونصر الله في الاستجابة له والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

د– وحدة الصف ووحدة الكلمة أساس في النصر، وتفريق الكلمة والاختلاف في الرأي دمار وهزيمة، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦) (١٤). فبين تبارك وتعالى أن الاختلاف والتنازع من مقتضيات الفشل والهزيمة، كما أشار عز وجل إلى أن توحيد الكلمة والاجتماع عليها يحتاج إلى صبر، كل ذلك يكون بعد طاعة الله ورسوله ﷺ، فلا يتصور إذن اجتماع الكلمة من غير صبر، ولا هما معًا من غير طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

وبعد هذا، فإن ما وقع وما يقع الآن وما سيقع في بلاد المسلمين، لا يمكن فهمه ولا تفسيره ولا علاجه ولا إدراك الحكمة منه إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام. فإنما هذا فرع من ذاك الذي كان في زمنه عليه الصلاة والسلام وتبع له، وسنن النصر عند الله لا تختلف، وإلا فما الغرض من ضرب المثل والقصص في القرآن!؟

ثم إذا فهم هذا الأمر من كتاب الله عز وجل فكيف يتحرك المسلم تجاه هذه القضايا؟

أ– أن يعلم كل مسلم أن ما يحدث هو بإذن الله وإرادته وحكمته وهو من قدر الله على الجملة.

ب– أن يحتسب ويصبر على ما سفك من الدماء وأن يسأل الله أن يقبل من مات من إخواننا في الشهداء.

ج– أن يدرك أنه وإن كان الظاهر من هذه الأحداث الشر والفساد إلا أن فيها حكمة بالغة، فلعل الله عز وجل يوحد صفوف المسلمين وتتحد كلمتهم بعدها، فكم من تربية كانت بالمخطأ! وكم من نصر جاء بعد المصيبة! وكم من قوة جاءت بعد الضعف والذل!

د– أن يجاهد (١٥) كل مسلم بماله وبنفسه ولسانه في سبيل الإسلام والمسلمين، بقدر الاستطاعة وبحسب الحال والمال، وأن يبذل الجهد في بيان حقيقة القضية دون تأثير من عاطفة ولا خوف من غير الله العلي الكبير، ولكن كل ذلك بشروطه وأحكامه الفقهية المعروفة، والله أعلم.

وفي الختام أسأل الله عز وجل أن ينصر الإسلام والمسلمين في كل مكان، وأن ينصر المجاهدين في سبيله في كل مكان، آمين.

الهوامش

١– بالمعنى اللغوي لا العقدي.
٢– صحيح الجامع (٦٢٤٠–٦٢٦٢).
٣– تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٦ ص، ١٨٠.
٤– أضواء البيان، الشنقيطي، ج٧ ص، ٢٥٧.
٥– أيسر التفاسير، الجزائري ج٣ ص، ١٨٠.
٦– التاريخ الإسلامي، الصلابي، ج١ ص. ٣٣.
٧– سنن أبي داود ٣/٢٧٤–٢٨٥ (سلسلة الأحاديث الصحيحة/١١)
٨– التاريخ الإسلامي، الصلابي، ج١ ص. ٢٩.
٩– أيسر التفاسير، الجزائري، ج١ ص، ٢٩.
١٠– البخاري (٤٠٧٣) وغيره.
١١– التاريخ الإسلامي، الصلابي، ج١ ص، ٣٠.
١٢– أضواء البيان، الشنقيطي، ج٤ ص، ٤٠٨.
١٣– زاد المعاد، ج٣ ص، ١٩٩.
١٤– فقه السيرة النبوية للغضبان ص، ٤٦١–٤٦٢ نقلا عن السيرة النبوية (عرض وقائع وتحليل أحداث)، ج٢ ص١٣٣–١٣٤.
١٥– واجب النصرة على المسلم أمر عام، وله خصوصيات بحسب الزمان والمكان والحال وغيرها.

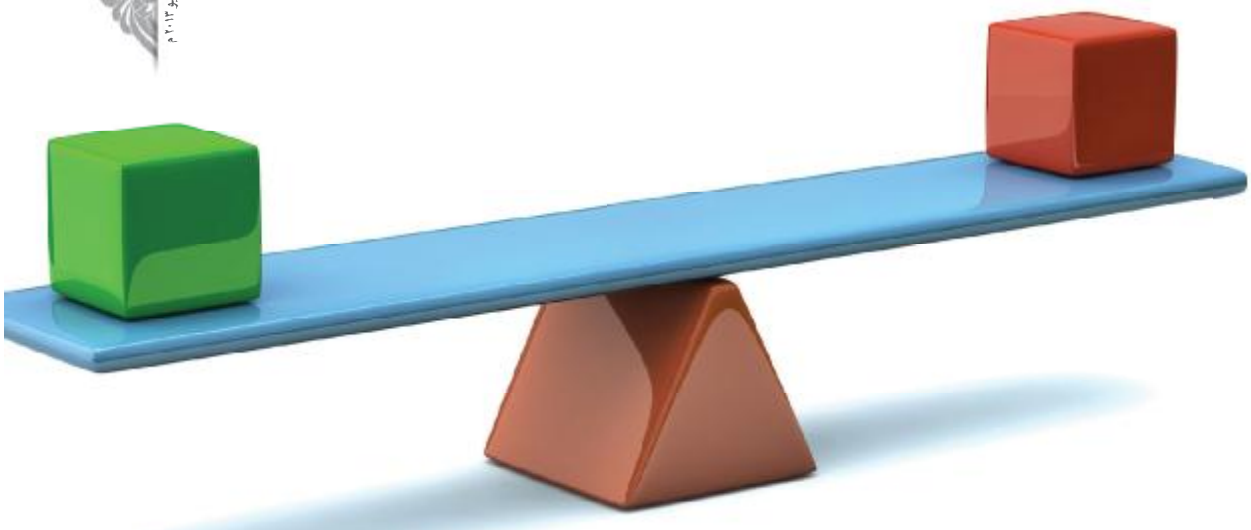

المساواة في المنظور الإسلامي

حسين محيي الدين سباهي
باحث دراسات إسلامية - سوريا

يقرر الإسلام أن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا تفاضل بينهم في هذا الصدد إلا على أساس كفاياتهم وأعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه وأمته، فقضى الإسلام بذلك على تخلخل المجتمع وأراح الناس من متاعب التفريق بين الطبقات ومن مآسي المفاضلة بين الناس تبعًا لاختلاف أنسابهم وأحسابهم وقبائلهم وشعوبهم، وجعل التقوى هي مقياس المفاضلة، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرًا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا﴾ (النساء: ١).

طبيعة المساواة وأسسها في الإسلام

إن رب الناس واحد، والجميع عباده، وإن أباهم واحد وهو آدم، وما لا حيلة للمولود فيه ولا فضل له فيه من نسب أو ثروة أو لون... الخ، فلا يصح أن يكون مقياس التفاضل، وإنما يبدأ التفاضل عند العمل والكسب وما يقدمه الإنسان من خير أو شر، أما أن نتحكم بقيمة معينة في سباق الحياة قبل أن يبدأ الشوط فهذا من أعجب الأمور في نظر الإسلام.

التقوى التي هي أساس التفاضل

والتقوى- التي هي أساس التفاضل- شاملة جميع شؤون الحياة كما هو معروف في الإسلام، فلا تقتصر آثارها على الصلاة والصوم والعبادات، وإنما تشمل سلوك المسلم في جميع حقوق الحياة من علاقة الإنسان بالله وعلاقته بالآخرين في بيته وفي مجتمعه وفي دولته، وقد ظهرت آثار التقوى- كما ظهرت آثار الأخذ بها مقياسًا- في حياة الرسول ﷺ وحياة أصحابه من بعده ومن تبعهم بإحسان.

وفضيلة هذا المقياس أنه لا يوجد طبقة جديدة في المجتمع لها حقوق قبل الناس يتمتع بها الواحد دونهم وليس هو أخف منهم واجبات، يقومون بها ولا يقوم، بل إن هذا المقياس يوجد المجتمع المثالي الواحد المنسجم.

رسول الله يعلن المساواة في خطبة حجة الوداع

في حجة الوداع حيث احتشد الناس من أطراف الجزيرة ليستمعوا إلى النبي ﷺ يبين الحقوق والواجبات، أعلن رسول الله ﷺ مبدأ المساواة في جملة ما أعلن من مبادئ حقوقية واجتماعية فكان فيما قال: «يأيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي فضل على عربي ولأحمر على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

هذا ما أعلنه الرسول ﷺ في السنة الأخيرة من حياته الحافلة، وفي ذلك اليوم العظيم أنزل الله تبارك وتعالى قوله الكريم:

﴿اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣).

وقد أعلن رسول الله ﷺ مبدأ المساواة منذ أول يوم، وفي كل المناسبات، فلما أنزلت عليه الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) جمعهم وقال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني من الله شيئًا.. يا عباس بن عبد المطلب- عم رسول الله- لا أغني عنك من الله شيئًا.. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا.. يا فاطمة بنت رسول الله، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا».

وهكذا بيّن رسول الله أن النسب على رسول الله ﷺ لا يغني عن العمل شيئًا.

المساواة أمام القانون في الحقوق العامة

لقد قرر الإسلام في هذا المجال أن يعامل الناس جميعًا على قدم المساواة أمام القانون وفي الحقوق العامة دون تفرقة بين صعلوك وأمير، ولا بين شريف ووضيع.

ولم يكن الأمر في الإسلام مقصورًا على وضع القواعد، فكرية محضة، وتقرير المبادئ، نظرية خالصة، بل ظهرت المساواة من أول لحظة في الميدان العلمي، فقد شفع مرة أسامة بن زيد، وكان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ في فاطمة بنت الأسود المخزومية، الشريفة في قومها، وكان قد وجب عليها حد السرقة فأنكر الرسول صلوات الله عليه شفاعة أسامة- على حبه له- أي إنكار، وانتهره قائلًا: «أتشفع في حد من حدود الله؟!».

ثم قام فخطب الناس فقال:

«إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وقد قال عمر رضي الله عنه في أول خطبة خطبها بعد توليه إمارة المؤمنين:

«يأيها الناس: إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه».

وقصة عمر رضي الله عنه مع جبلة بن الأيهم- أحد أمراء بني غسان- مشهورة.

وقد أنكر عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص والي مصر ضرب ابنه لقبطي حين سبقه فقال له: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟! وقال عمر قولته المشهورة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».

واقتص عمر رضي الله عنه للقبطي المظلوم من ابن والي مصر، ولم يخل عمرو بن العاص نفسه من لوم عمر وتقريعه.

أهل الذمة

ويستوي في تطبيق هذا المبدأ المسلمون وأهل الذمة، وقد حكم أبو يوسف في قضية على هارون الرشيد لمصلحة نصراني من أهل الذمة، ولما حضرته الوفاة استغفر الله أن لم يسو بينهما في عاطفته القلبية آنذاك وبكى.

وغضب علي بن أبي طالب رضي الله عنه على القاضي حين ناداه بكنيته ونادى اليهودي خصمه باسمه في مجلس الحكم.

المساواة في شؤون الاقتصاد

لقد حرص الإسلام أيما حرص على تقرير المساواة بين الناس في شؤون الاقتصاد، وذلك بالعمل على تحقيق تكافؤ الفرص بينهم، وعلى تقليل الفروق بين الطبقات، وتقريب بعضها من بعض وتحقيق العدالة الاجتماعية في أحسن صورها، ووصلت شريعة الإسلام في مبلغ حرصها على تقرير هذا النوع من المساواة إلى شأو رفيع لم تصل إلى مثله ولا إلى ما يقرب منه أية شريعة أخرى قديمة ولا حديثة.

وقد اتخذ الإسلام لتحقيق هذه الغاية وسائل كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلي:

١- لعل أهم هذه الوسائل جميعًا ما اتخذه الإسلام حيال طرائق الكسب، فقد حرم تحريمًا جميع الطرائق التي تؤدي عادة إلى تضخم الثروات بابتزاز أموال الناس أو غشهم أو التحكم في ضروريات حياتهم أو استغلال عوزهم وحاجتهم، أو عن طريق الانتفاع بالسلطان والجاه واستغلال النفوذ.

حتى إنه أجاز المصادرة بالعدل للأموال التي تأتي عن هذه الطريق الظالمة، واستيلاء الدولة عليها لإنفاقها في مصالح المسلمين.

طرق محرمة

إن هذه الطرق المحرمة تؤدي عادة إلى إيجاد الفوارق الكبيرة بين ثروات الأفراد، ففي تحريمها تحقيق للتوازن الاقتصادي، أيضًا حرم الإسلام عمليات الربا تحريمًا قاطعًا وجعلها من أكبر الكبائر وتوعد مرتكبيها بحرب من الله ورسوله، كما عرفت، حيث قال: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾.

وحيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٩٦- ٢٩٧).

وحرم الإسلام كذلك جميع المعاملات التي تنطوي على غش أو رشوة، وحرم أكل أموال الناس بالباطل ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٨).

٢- الإرث حيث وضع الإسلام للميراث نظامًا حكيمًا رائعًا يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعًا عادلاً، ويحول دون تضخمها وتجمعها في أيد قلة قليلة، إذ هو يفتت رؤوس الأموال إلى ملكيات صغيرة بصورة دورية، ويوسع دائرة الانتفاع بها، وذلك حين يقسم التركة على عدد كبير من أقرباء المتوفى.

وهذه هي أمثل طريقة لتقليل الفروق بين الناس وتقريبهم بعضهم من بعض. وحفاظًا على نظام الإرث وحكمته، حرم الإسلام الوصية للوارث، وإذا كانت لغيره فلتكن في حدود الثلث فقط من التركة.

فأين من هذا النظام الإسلامي الحكيم تلك النظم التي ينقل بعضها جميع ثروة المتوفى أو معظمها إلى البكر من أولاده! ويدع كثير منها المالك حرًا في أن يوصي بتركته لمن يشاء! فتجمعت من جراء ذلك ثروات ضخمة في يد أفراد محدودين من الناس، وقد كان هذا مما أثار حفيظة الفقراء وأورثهم الحقد على المجتمع ونظمه، فنشأت في الجانب الآخر المذاهب المتطرفة التي عاملت الإنسان معاملة القاصر المحجور عليه ومنعته أن يملك ولو من طريق مشروع أو أن يتصرف حتى بأقل شيء!

٣- فرض الإسلام على مختلف أنواع الثروة وجميع مظاهر النشاط الاقتصادي عبادة مالية هي الزكاة وهي حق معلوم، وفرض أنواعًا من الضرائب، مما يكفل تحقيق العدالة الاجتماعية ويسد حاجات المعوزين ويحول دون تضخم الثروات.

٤- هذا إلى أن الإسلام أعطى الإمام الحق في فرض ضرائب أخرى غير ما ذكر إذا كانت المصلحة العامة لا تحقق إلا بذلك، كما أباح له أن يتصرف في توزيع بعض الأموال على وجه يحقق التوازن الاقتصادي بين الناس، ولو أدى ذلك إلى أن يخص ببعض الأموال فئة دون أخرى، ولقد منح عليه الصلاة والسلام جميع أموال الفيء (وهو ما يغنمه المسلمون بلا قتال) من بني النضير للمهاجرين الذين تركوا أملاكهم في مكة وثروات الأنصار المقيمين في أرضهم بالمدينة، وليمنع ذلك التفاوت البعيد في ملكية الأموال بين هذين الفريقين اللذين منهما كان يتألف أول مجتمع إسلامي، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾(الحشر: ٧) أي حتى لا تكون الأموال وقفًا على الأغنياء منكم يتداولونها فيما بينهم، ويقصد بالأغنياء الأنصار إلى أن يقول: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

٥- وأوجب الإسلام على الأغنياء الإنفاق على الفقراء والعاجزين عن الكسب من أقربائهم، على ما هو مفصل في كتب الفقه الإسلامي، بل اعتبر هذا الواجب قائمًا في أوسع من حدود القرابة، حتى لقد ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى اعتبار جماعة يموت أحد أفرادهم جوعًا مع قدرتهم على إنقاذه قتلة مشتركين في دمه، وقد نفى رسول الله ﷺ الإيمان عمن يستطيع إنقاذ أخيه ولا ينقذه «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم».

٦- وأوجب الإسلام على الدولة الإنفاق على الزمن (العاجز عن الكسب) والشيخ الفاني والمرأة إذا لم يكن ثمة من أقربائهم من تجب عليه نفقتهم.

والإسلام لا يفرق في ذلك بين المسلمين وغير المسلمين، فقد رأى عمر رضي الله عنه شيخًا ذميًا يتسول فقرر له نفقته من بيت المال، وقال في ذلك: «ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية وأنت شاب، وتركناك تتسول وأنت شيخ».

٧- هذا، وقد أوجب الإسلام على الأغنياء في موسمين يتكرران كل عام أن يخرجوا من أمواله صدقات للفقراء والمساكين (ونعني بذلك: صدقة الفطر يوم عيد الفطر، والأضاحي في عيد الأضحى) كما حبب إليهم التصدق بفضل أموالهم على الفقراء، وجعل اكتناز الأموال، وهو حبسها دون زكاة، وعدم إنفاقها في سبيل الله، من أكبر المعاصي، وتوعد المكتنزين بأشد العقوبة يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤-٣٥).

ويفسح المجال للتفوق والطموح في الحياة الدنيا، ولكنه من جهة أخرى يحقق تكافؤ الفرص بين الناس في شؤون الاقتصاد، ويعمل على استقرار التوازن الاقتصادي، ويحرص على تقليل الفوارق بين الناس ويقرب بعضهم من بعض، ويحول دون تضخم الثروات، ويقيم جميع العلاقات الاقتصادية بين الناس على دعائم من التكافل والتعاضد والتواصي بالعدل والإحسان ويضع أمثل نظام للضمان الاجتماعي، ويكفل لكل فرد حياة إنسانية كريمة ﴿ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

المراجع

١- القرآن الكريم.
٢- تفسير ابن جرير الطبري.
٣- تفسير ابن كثير.
٤- صحيح البخاري، وشرحه فتح الباري لابن حجر.
٥- صحيح مسلم، وشرحه للنووي.
٦- حقوق الإنسان في الإسلام، د.علي عبدالواحد وافي.
٧- السياسة الشرعية لابن تيمية.
٨- الحرية في الإسلام، محمد الخضر الحسين.
٩- المدنية والإسلام، محمد فريد وجدي.
١٠- العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب.
١١- الآداب الدينية الاجتماعية، للخولي ورفاقه.
١٢- الإسلام وحقوق الإنسان، محمد عبد المنعم خفاجي.

العدل مسار البناء

العدل طريق التحضر والبناء.. نستمد من مفهومه معنى تكريم الله لبني الإنسان، ونمضي في دروبه إلى تكاليف الحياة الدنيا، طمعًا في حسن الختام.. العدل نافذة للضوء.. مسار للتقدم والوئام، وراحة للبال وطاعة لله الذي لا يغفل ولا ينام.. العدل في الأحوال كافة، مع الأفراد وفي الأسرة وداخل المجتمعات، ومع كل الكائنات، بل مع العجماوات والجمادات أيضًا.. وهو ينقلنا إلى مصاف السلف الصالح، حيث الطمأنينة والأمان، ومن هذا المنطلق تخصص «الوعي الإسلامي» ملف هذا العدد لـ «العدل مسار البناء».

فالله «يقيم دولة العدل وإن كانت كافرة، ويزيل دولة الظلم وإن كانت مسلمة».

وإذا ما تم تطبيق المفاهيم الإسلامية بما يتناسب مع وضع الأمة الحالي، فسوف يساعد على نهوض بلداننا، وسيشعر المواطنون مهما اختلفت أديانهم أو أفكارهم بحالة من الرضا والاقتناع، فالآفة الكبرى تكمن في ضياع الحقوق والأمانات، وفي سوء توزيع الأدوار والأدوات.

التحرير

العدل مرتكز حضاري لنهضة الأمم

د. محمد المشطاوي
باحث في المركز العالمي للوسطية

إن مما اتسمت به حضارتنا الإسلامية وقت عزتها ومجدها وعلوها ونهوضها، اتخاذها العدل سبيلًا ومنهجًا ومسلكًا ومقومًا حضاريًا في شتى مناحي الحياة وجوانبها، بل إن مما يلفت النظر في ذلك أن العدل أحد أصول أربعة لجميع الفضائل، «فكليات الفضائل أربعة، عنها تتركب كل فضيلة وهي: العدل والفهم والنجدة والجود»(١).

وقد وقر في وجدان هذه الأمة أن الله يقيم دولة العدل وإن كانت كافرة، ويزيل دولة الظلم وإن كانت مسلمة. وليس هذا بالشيء الكبير إذا أدركنا أن «العدل حصن يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل، وأنكر الظلم حينئذ وذمه، ولا ترى أحدًا يذم العدل.. فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين»(٢).

لقد نظرَتْ هذه الحضارة إلى العدل وكونه مرتكزًا حضاريًا يحدد العلاقة ما بين الفرد وربه ونفسه وأفراد مجتمعه، صابغًا تعاملاته مع هذه الأطراف الثلاثة بمسلك العدل والقسط.. «يقول ابن العربي - رحمه الله-: العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر... وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها، قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات: ٤٠) وعزوب الأطماع عن الأتباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى... وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، لا في سر ولا في علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى»(٣).

وابن العربي يرتكن هنا في حديثه عن العدل وملامحه الكلية في جوانبه الثلاثة إلى تقرير النبي ﷺ لقول سلمان الفارسي لأبي الدرداء في الحديث المشهور: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه» (رواه البخاري).

إذن فقد صار العدل سمتًا عامًا في المجتمع، يسعى إلى تدعيمه والرجوع إليه والتقويم على أساسه، حتى وإن اتسم ذلك في بعض الأوقات بالمسلك

النظري، دون أن يدعمه مسلك عملي تنفيذي، بمعنى أنه يمكن أن يستبطن الظالم أن ما يفعله ظلم بالرغم من إقدامه على فعله.. وخير حينئذ للمجتمع أن يفعل الظلم على أنه ظلم من أن يفعل على أنه عدل، أو أنه ليس ظلمًا، وكل ذلك نابع من استبطانهم قول الله عز وجل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد: ٢٥).

والمجتمع الإسلامي حين يقوم بذلك ويفعله إنما يحفظ كينونته وحيويته، ويتجلى أحد جوانب العدل في المساواة بين أفراد المجتمع ومكوناته، ويتضح ذلك في صور عدة، منها المجال الاقتصادي، والزكاة والصدقة والوقف تتبوأ فيه المكان الأسمى، والمجال الاجتماعي، وحديث الجسد الواحد يعد نبراسًا ودليلًا في هذا، والمجال القضائي، ويأخذ الحث على العدل في التقاضي والتحذير من الظلم في المدونة الحديثية الإسلامية مكانًا رحبًا وواسعًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء: ٥٨)، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة: ٨)، قال ابن كثير: «أي لا يحملكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًا»(٤).

والحديث القدسي: «يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا» (رواه البخاري)، وغير ذلك من المجالات، ومنها المجال العلمي التعليمي، وهو ما يمكننا أن نتحدث عن بعض جوانبه فيما يأتي، إذ يمكننا الحديث هنا عن «بعض» ملامح أثر هذا العدل في نهضة علمية كانت رافدًا لما بعدها من نهضات في أصقاع العالم.

وإذا كانت العملية التعليمية تتكون من عدة عناصر (عالم، متعلم، محتوى، راعي/ دولة، منتج/ أثر)، فإن ملامح العدل تظهر في هذه العناصر.

النهوض الحضاري

وأسوق هنا قصة يمكن لنا أن نعتمد على بعض ما نستشفه منها، لإخراج بعض جوانب العدل التي ترسخت فأنتجت «منتوجًا» نهائيًا، ظهرت ملامحه في تسيد الكفء، والتسليم بهذا التسيد، وعدم المناعة فيه، إذ إن من قمة النهوض الحضاري الأخلاقي أن يتسيد العدل، فيتبوأ الكفء بفضل علمه وتعليمه واجتهاده، وأن ينصهر الجميع في ظل هذا العدل، وأن يعترف الجميع لهذا الكفء المتعلم العالم بمكانته، ولا يجد أي رأس في الدولة غضاضة في ذلك، فيغير مسلكًا حضاريًا تقوم عليه الأمم وهو العدل في توفير العلم والتعليم الذي يؤهل لتبوؤ أعلى المناصب.

أما القصة فقد رواها الزهري إذ قال: «قدمت على عبدالملك بن مروان، قال: من أين قدمت يا زهري؟ قلت: من مكة، قال فمن خلفت فيها يسود أهلها؟ قال: قلت عطاء بن رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: بم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا الناس، قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال من كان كذلك ينبغي أن يسود الناس، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت يزيد بن أبي حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، فقال: كما قال في الأولين، ثم قال فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول الدمشقي، فقال: من العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل، فقال: كما قال ثم قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، فقال: كما قال، ثم قال: فمن يسود أهل حرمنا؟ قلت: الضحاك بن مزاحم، فقال: من العرب أم من الموالي؟ قلت: من من الموالي، فقال: كما قال، ثم قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن، قال: من العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي، قال: ويلك، فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النَّخَعي. قال: من العرب أم من الموالي؟ قلت: من العرب. قال: ويلك يا زهري، فرّجت عني، والله ليسودن الموالي على الأكابر، حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دينه، مَنْ حفظه ساد ومَنْ ضيعه سقط»(٥).

البيئة العلمية

إن مما يمكن أن نستخلصه من هذه القصة أن العلم كان وسيلة للترقي الاجتماعي، وأن الدولة وفرت البيئة العلمية والتعليمية والعادلة التي شجعت على تبوؤ أصحاب القدرات والمكانات، وأن رأس الدولة لم يكن له إلا أن ينصاع لقيمة العدل والمساواة في المجتمع، حتى وإن كان ذلك ظاهرًا، كل هذا في ظل ثقافة عامة ومجتمعية قبلت هذا التنوع العرقي في ضوء من شيوع قيمة العدل.

ولنا أن نذكر أخيرًا بعض ملامح ثقافة العدل في أركان العملية العلمية التعليمية، وأول ملامح هذا العدل هو هذا الشعور الذي يتملك العالم بأن الله لا يضيع أجر المحسنين، بما يعني بالضرورة إحسان العمل، وترك مجال النظر كثيرًا إلى المآلات التي يمكن أن تعوق الإبداع، ومن ثم فإن إحساني للعمل نابع من كوني مأمورًا به، ومن كون أن أثره سيلحقني عاجلًا أم أجلًا، لأن الله عدل، وما ضاع محسن يعمل لدى عدل.

الهوامش

١- الأخلاق والسير لابن حزم: ص١٢٧-١٢٨، تحقيق عادل أبوالمعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٢- المرجع السابق: ص١٦٢.
٣- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): ج١٠/١٦٦، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٤- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/٤٣).
٥- تفسير روح البيان: ج٣/٣١٧، دار إحياء التراث العربي.

إنصاف «الفقه» يجدد المعرفة الإسلامية

محمد سعيد باه - أستاذ جامعي - السنغال

هذا سؤال افتتاحي نطرحه على هذا النحو: ما الذي يمكن أن نقدمه اليوم، نحن أمة الاستجابة والدعوة، من إسهام يضيف إضافة جوهرية في هذا العرس المعرفي الكوني من حولنا، حيث تتفجر ينابيع المعرفة بصورة ربما لم تعرفها البشرية من قبل، وتتسابق الأمم في شهوده وعرض موروثاتها ومبتكراتها، بعد دمجها وصقلها، في جنباته؟

أجزم بأن لدينا الكثير نستطيع أن نقدمه بل ما تطالبنا به الإنسانية المنهكة: مصدرا ومنهجا ورؤية وتاريخا وإسهاما من خلال خاصيتي «الربانية والإنسانية» أو «الوحي والعقل»، بعد أن نجيب طبعا على السؤال المفتاح الذي سبق أن طرحه الندوي منذ عقود مضت: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ مع التمهيد لذلك بالإجابة على سؤال آخر أكثر إلحاحا: لماذا أصيبت الأمة بداء الانحطاط؟

الفقه، من الفتق إلى الاجترار:

من الابتلاءات التي مرت بأمتنا وتركت في واقعنا الفكري جراحات غائرة، تحويل الفقه من منهجية سديدة للتعامل مع الواقع فهما واحتواء وترشيدا، والتحسب لما يفرزه المستقبل تسييجا للفكر وتسهيلا لطرائق التعاطي، إلى اجترار الماضي وإعادة إنتاج التاريخ الفكري والإرث الثقافي مع التركيز على الأقل جودة والتمسك بما فيهما من أخطاء وتجاوزات كلفت الأمة كثيرا من العنت وانحرفت بها عن المسار الحضاري.

بعيدا عن تعقيدات التعريفات الفنية الاصطلاحية نقول بأن الفقه من الناحية الوظيفية على الأقل وفي بعده المعرفي الأصيل، هو نتاج مجمل ما يعقله العلماء المؤهلون من الشرع، وكيفية تنزيل ذلك على الواقع الحي للمجتمع الإيماني تأصيلا ومصاحبة واستباقا للنوازل في إطار رؤية واقعية متحركة قادرة على إثراء الحياة، وليس تجميدها ضمن قالب زمني قد مضى وانتهى.

حصاد تراخي القبضة:

في إحدى قراءاتي لكتاب الله بحثا عن جوهر الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ للبشرية حتى استطاع إحداث ذلك التحول العميق والجذري الذي لا يزال الجهابذة من العلماء وفطاحل الفكر يتوقفون عنده ويأخذهم العجب، كنت أتوقف طويلا أمام قوله تعالى:﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(سورة آل عمران، الآية:١٦٤).

ثم أسأل نفسي ما الذي دها هذه الأمة إلى أن انحدرت إلى هذه الهوة السحيقة، وانتشرت كل هذا الكم من الخزعبلات في أوساط أبنائها وتحولت المناهج المعرفية الصارمة – التي أنتجتها العقلية الإسلامية وهي تتفاعل مع الوحي في حرارة وعمق وترتبط بواقع الحياة بإيجابية وسمو – إلى مجرد صيغ وتقريرات باردة لا تنهض بها أمة، ولا تغنى بها الحياة؟

وفي كل مرة كنت أصطدم بحقيقة أن الأمة أهملت أو تساهلت حيال أمر رباني في غاية الصرامة والصراحة: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(سورة الزخرف، الآيات: ٤٣ – ٤٤) (١)

عناصر المنظومة المعرفية:

إلى هؤلاء الذين كانوا في ضلال مبين، حتى لا يكادون يفرقون بين الخير والشر، وجهت رسالة تدعوهم إلى إحداث تغيير جذري في طرائق التفكير، وإلى أن يفتحوا عيونهم وآذانهم على حقائق جديدة في أنفسهم وفي الكون المحيط بهم، جاءتهم رسالة تهزهم من الأعماق وتوازن بين القوة والحنان، وتعيد بناء عقولهم وتهذيب عواطفهم وتوجه طاقاتهم وتبلور قدراتهم وفق نسق جديد لا عهد لهم به.

وفي هذا المساق، ألا ترون معي أن من المدهش أن يكون استهلال تنزل باكورة الوحي الأعلى قد كان بتوجيه نداء حار يهيب فيه المولى بالمستجيبين لقرع باب المعرفة في ضراعة وإلحاح؟!

ثم، حين نمعن النظر في هذه الباقة من الآي من أول العلق: اقرأ... نلحظ العجب عندما تتراءى لنا منهجية معرفية متكاملة، نلخصها

في هذه النقاط الست:

- دعوة حارة وواضحة وبسيطة بقدر ما هي عميقة وخطيرة إلى القراءة المطلقة (مكرَّرةً) بمعنى دفع المستجيبين لهذه الدعوة إلى جوب آفاق المعرفة جوبا وسبر أغوارها سبرا انطلاقا من الحقائق المبثوثة في ثنايا النص الموحى به لاستكناه أسرار الكون فيما بين المجرّة والذرة: اقرأ... والحق إنه أمر ودعوة وحث وتوجيه، وباختصار فهو مفتاح المعرفة المؤصلة.
- ترسيخ المبدإ الأخلاقي الذي يجب أن يسيج على المعرفة دون أن يحجِّرها أو يَحْجُر على من يتعاطاها، لأن الغاية هي الحيلولة دون سوء توظيفها حين تكون: باسم ربك، وأهمية هذا الضابط تتجلى في هذا العصر الذي تزداد فيه مزالق الدمار التي قادت إليها المعرفة المنفلتة ذيوعا، والتي يقول عنها جارودي بأنها بلا ضمير وبالتالي فهي للإنسان بوار ولبيئته خراب.
- إثارة قضية الخلق بأشد وأدق ركيزة لها (العلق) إيذانا بأنها ستكون واحدة من معضلات المعرفة الإنسانية الكبرى عبر الأعصر: الذي خلق، ثم تتري الآي راسمة منهجا يوصل من اتبعه مبصرا إلى خزائن أودع البديع فيها أسرار كثير مما خلق وبث.

● حسم مسألة مصدر الإنسان من حيث التكوين التي هي إحدى أعوص قضايا المعرفة المعاصرة: خلق الإنسان من علق، وهو ما يجعل الإنسان بكل أبعاده في قلب المشروع المعرفي الذي تبشر به المنهجية التي كان الإسلام قد دشنها في اللحظات الأولى من تنزله نصا وتفعيله طريقة للحياة.

● الإشارة إلى أهم أداة خارجية زود بها الإنسان لكسب المعرفة تقييدا وتنمية: (القلم) في رمزية عجيبة تعتبر من فرائد الطرح القرآني وذلك إلى جانب الأدوات الذاتية (السمع والأبصار والأفئدة) الواردة في سورة النحل والتي يشير القرآن في أكثر من موقع إلى الدمار المترتب على تعطيلها.

● التركيز على ضرورة إرواء العطش الفطري إلى المعرفة لدى الكائن البشري: توقا واحتياجا ومنفعة: علم الإنسان ما لم يعلم، وتتضح الصورة هنا حين نربط ذلك بمشهد عرض الأشياء على أبي البشر آدم عليه السلام وتعليمه الأسماء كلها وتعليم آل داود وتزويدهم بالمهارات بما في ذلك منطق الطير وتفهيم سليمان.

مصطلحاتنا بين الطمس والتفريغ:

وعلى هذه الأرضية الصلبة نشأت تلك النهضة المعرفية الحضارية النموذجية: حضارة ربانية المصدر، معرفية النهج وإنسانية الغاية وعود الريع على الكون كله، لكنها تطامنت حتى غامت ملامحها منذ اللحظة التي تراخت فيها قبضة من اؤتمن عليها لما انتابتهم حالة من الوسن بعد أن نسوا وصية «الاستمساك بالوحي» الرباني.

هكذا، دارت الأيام فساءت قراءة المسلمين لسطور كتابهم وانمحت دقائق معانيه البانية وأصبحوا يمرون بمفاتيح المعرفة في الكتاب الكريم سراعا بعد أن نسخوا أو حرفوا: (٢٩) من مادة «العلم» و(٤٩) من مادة «عقل» و(١٩) من مادة «فكر» و(٢٠) من مادة «فقه» و(١٧) من مادة «الحكمة»، وما شابه ذلك من مصطلحات مفصلية مبثوثة في جنبات كتاب الله تدور في فلك المعرفة وأدواتها وملحقاتها ومتعلقاتها عن الفكر والعقل والتدبر والنظر في الآفاق وفي الأنفس والسبر والسير في مناكب الأرض وفك رموز أسرار الكون.

شروط تجاوز النكسة: وسعيا إلى تجاوز النكسة المعرفية التي وضعت الأمةَ في ذيل القافلة البشرية، ومن ثم بناء القدرات التي تمكن من استعادة زمام المبادرة في خضم هذا المعترك الحضاري، لا بد من إعادة بناء منظومتنا المعرفية على أساس ضبط العلاقة بين النص والعقل وفق الرؤية التكاملية الكامنة في المعادلة التي هدي إليها الراغب الأصفهاني: «فالعقل لا يهتدي إلا بالشرع والشرع لا يتبين معناه وتفهم مقاصده إلا بالعقل..».

وهي المعضلة التي أرقت كثيرا من جهابذة الأمة، ممن قال فيهم الإمام الذهبي بأنهم سيعيشون لتمييز الأصيل من المدسوس ليبقى الحق بشقيه ناصعا، ودفع ابن تيمية إلى تسطير مؤلفه الرائع: «درء تعارض العقل والنقل». (٢)

وتتطلب عملية إعادة بناء هذه الرؤية المعرفية المتكاملة المؤسسة على قراءة واعية ومتأنية لهاثا وراء الحقيقة والخير والجمال، أن نحيي هذه السنة المعرفية الدارسة: «كان الخلفاء الراشدون يدرسون القضية مع أصحاب العلم شهرا». (٣)

فإلى جانب الجلد والمثابرة في السعي الدؤوب إلى إسفرار وجه الحق، يختزن هذا النص تلميحا إلى ارتباط ازدهار المعرفة، في الرؤية الإسلامية، باتساق العلاقة وقوة التفاعل بين السلطتين السياسية والمعرفية، وبهذا يتم جسر هوة القطيعة بين «السلطان والعلم».

نحو مشروع جامع.. لا لتقريرات باردة:

وأمام الخبط الاقتصادي والعبث المعرفي اللذين يقودان خطى البشرية اليوم نحو طريق مسدود وما يلوح في الأفق من نتائج وخيمة، فإن الواجب الملقى على عاتق الأمة يزداد ثقلا، وبالتالي فهي مدعوة إلى استئناف مسيرتها المعرفية انطلاقا من مشروع جامع لإعادة قراءة نصوصها المؤسسة بعيدا عن الخضوع لتقريرات واجتهادات صلحت وانتهت، وأن يتم ذلك في إطار الكسب المعرفي البشري المشترك لإحداث مصالحة بين النقل الصحيح والعقل السديد.

ويتأكد هذا المطلب على ضوء حقيقة أننا حين نرصد حركة البشرية ونتأمل في الاتجاهات الكبرى السائدة، نلحظ أن أمارات مثوبتها نحو الدينونة تزداد اتضاحا بخلاف حالة طغيان موجة البعد عن هدي السماء التي غطت مساحة شاسعة من الحقب التي خرجت منها البشرية مثخنة بجروح روحية وفكرية نازفة بغزارة بدعوى تفعيل، واستثمار ما هدت إليه المعرفة الإنسانية بأحكامها النهائية غير القابلة للنقض.

دعونا نصوغ الفكرة بعبارة أخرى

تساؤلية: أن نعي بقوة بأننا نعيش اليوم حالة استثنائية في مسيرة البشرية سمتها الأساسية التعطش إلى الدين لكن بعقلية لا تقنع بنوع الغذاء الفكري الذي كان يقدم لمن ينجذبون نحو التدين في الأعصر الخوالي، هذا هو الداء الذي أصاب الأديان الأخرى حين لم تعد نصوصها قادرة على الاستجابة للتساؤلات الوجودية والإقناع بصلاحية الدين لتنظيم وتسيير الحياة البشرية وفق ما طرأت فيها من تعقيدات واستجد لها من مطالب كانت في الأصل الباعث على تنزيل الوحي متسلسلا وإرسال الرسل تترى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(سورة الجمعة، الآية: ٢).

إننا اليوم مدعوون لمواجهة هذه الإشكالية التي ظلت طليعة الأمة الفكرية والعلمية تستجيب لها لعقود متتالية، وهي المساحات الزمنية التي استطاع فيها الإسلام أن يسيح عبر المعمورة، ويكسب مزيدا من المواقع في القلوب وفي العقول وفي الجغرافيا حين كان حملته يعرضون حقائق الإيمان ببراهين جاذبة تقنع أعتى العقول ويقدمون الخير والمنافع بلا تمييز، لكن في الفترات التي أصيبت فيها الطليعة العلمية بالفتور الفكري والتقوقع الثقافي والتهيب من قرع أبواب الجدل المثري، بسبب تآكل حافز التجديد والاجتهاد، لوحظ تجمد حركة الإسلام ثم أدي بنا ذلك إلى أن جرفنا التيار العاتي الآخر، ليس لقوته وإنما لكونه قد لقي فراغا فتمكن.

الاجتهادات الثلاثة: من المعوقات التي يتوجب تجاوزها على عجل، لأننا في سباق محموم من الزمن، رواج ظاهرة تقديس القراءات التي تمت للنص وفق مقاربات واقعية خاصة، وهو ما يعرف في الكتابات المعاصرة بسوء التعامل وتوظيف التراث، حيث يتراوح موقفنا من الإشكالية بين الابتذال والتقديس. (٤)

وثمة سوء فهم للفرق الشاسع القائم بين اجتهادات ثلاث مختلفة تتمثل في الاجتهاد في النص والاجتهاد في ظل النص، والاجتهاد مع النص (لا يخل ذلك بمدلول قاعدة: لا اجتهاد مع النص) على أن تتناسق الاتجاهات المؤسسة وصولا إلى إعادة بناء منظومتنا المعرفية المؤصلة.

جدية المقاربة: لكن السؤال يظل قائما: أيمكننا الزعم بأن هذه الجهود الضخمة التي بذلت في ظل الانبعاث الإسلامي الذي ينتظم العالم، قد وفت بمتطلبات تفهيم وتفعيل النص القرآني وشروحاته من الهدي النبوي بما يستجيب لمتطلبات التحولات التي طرأت على الذهنية والنفسية الإسلامية من جانب، ومطالب الانفتاح على الآخر وما علينا من التزام شرعي وحضاري تجاه هذا الآخر؟

إن الدعوة إلى إعادة قراءة القرآن من خلال جرد المنهجيات المستخدمة داخل المؤسسات الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي وخارجه وإعادة ضبط الرؤى والركائز التي نطلق منها، ليست في الواقع سوى سعي ذكي إلى توسعة باب الاجتهاد الذي يجمع علماء الأمة في كل الأزمنة على تحتم تركه مشرعة الأبواب مرفوعة الرايات وفرض مضي تياره ما دام الناس يتفاعلون مع المنهج الرباني الذي يجب أن يثوبوا إليه ليحققوا مطلب السعادة في الدارين.

من الركائز التي يجب أن تتمحور حولها عملية غربلة تراثنا الثقافي تمهيدا لإعادة بناء منظومة منهجية ضابطة لحسن التعامل مع رسالة القرآن الكريم، أن ننظر إليه كونه كتابا يخاطب الأحياء بلغة عصرهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ..﴾ كما يتواصل معهم بالأدوات التي يحسنون استخدامها ويخاطبهم بمصطلحات يحذقونها ويدخل عليهم في الحيز الزمني الذي يتحركون فيه.

هذه هي الآفاق الرحبة التي نتطلع إلى أن ينشط المنشغلون بالقضية في دوائرها ضمن مقاربات تتسم بالجدية وسعة الرؤية والمرونة العقلية على أساس استيعاب شامل لطبيعة الحياة في كل أبوابها، أملا في ارتياد آفاق فكرية جديدة أكثر خصوبة وألصق بالواقع مسترشدين بما سبق من توجيهات قرآنية في باب المعرفة وبقول الهادي الأمين: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل» رواه ابن ماجه. (٥)

الهوامش

(١) هذا الأمر مطرد وشرط كمال الخضوع الإيماني وقد تلقاه الأنبياء بصيغ متباينة في اللفظ وأقربها: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(سورة مريم، الآية: ١٢).

(٢) ويعرف كذلك باسم: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول».

(٣) أورده السرخسي في المبسوط.

(٤) كما يقول الدكتور/ أسعد السحمراني في بحث له بهذا العنوان.

(٥) ولو من باب الاستئناس إذا أخذنا بقول من ضعف الحديث بالسند الذي أورد به الترمذي الحديث، ويتعاضد هذا النص مع قول ابن عباس: «ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين العقل».

أستاذ السياسة الشرعية د.سيف عبدالفتاح:

وسطية الإسلام تضمن حقوق الكل

إيمان علي - القاهرة : دار الإعلام العربية

أكد د.سيف عبدالفتاح أستاذ السياسة الشرعية أن مخاوف البعض من النموذج الإسلامي في الحكم ليست مبررة، موضحًا أن وسطية الإسلام تضمن للجميع كل الحقوق التي تعزز أمانهم وحريتهم.. وأشار إلى أن النموذج الغربي الذي يزعم حرية الرأي ويسمح بتوجيه سهام الانتقاد للرسول ﷺ إنما يتعامل بازدواجية مقيتة، ولفت أيضًا في حواره مع «الوعي الإسلامي» إلى أن مبدأ الشورى في الإسلام هو الرافد الأساسي للديمقراطية بصورتها العصرية.. وتطرّق إلى العديد من القضايا نتعرف عليها في سياق الحوار..

● يسعى دومًا المتخوفون من النموذج الإسلامي إلى ترويج العديد من المزاعم بأنه يهدر حقوق الأقليات أو المرأة.. كيف ترد على هذه المزاعم؟

- أتوقع عكس ذلك، فأنا أعتقد أن الأقباط سيحصلون على المساواة الكاملة مع باقي أفراد الشعب، وأن المرأة ستحقق ما تريده داخل المجتمع، والدليل أن القاعدة الرئيسية في الدين الإسلامي تقول ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وكذلك ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، كذلك الحديث الشريف الذي يقول: «من قتل معاهداً في غير كنهه - بغير حق- حرَّم الله عليه الجنة» أما عن المرأة والإسلام، فالواضح من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أن الإسلام أعطاها كل حقوقها، ولم يفرق بينها وبين الرجل، فقد حدثنا رسولنا الكريم ﷺ عن المرأة في حديثه: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»، ففي عهد الدولة الإسلامية تولت المرأة العديد من المناصب، فالسيدة أم سلمة -رضي الله عنها- لعبت دور الدبلوماسية وصانعة السلام في درء الفتنة التي كادت تتبع صلح الحديبية، وكذلك السيدة عائشة -رضي الله عنها- والتي قال عنها هشام بن عروة الذي يروي عن أبيه قائلاً: «ما

رأيت أحدًا أعلم بفقهٍ ولا بطبٍ ولا بشعرٍ من عائشة».

● مـا ردك عـلـى مـن يـؤمـن بـوجـود خـلاف بـيـن الإسـلام والديموقراطية؟

– كلام غير صحيح، فالإسلام هو أساس الديموقراطية، والدليل أن رسول الله ﷺ كان يستشير من حوله في الأمور التي تهم المسلمين، وتبعه في ذلك باقي الخلفاء الراشدين في حكمهم، فعندما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأله الصحابة أن يترك عهدًا لمن سيخلفه، فرفض وترك البيعة لستة من أصحاب الرسول ﷺ.

● بعد صعود التيار الإسلامي إلى سدة الحكم في بعض الدول العربية.. هل يمكن القول بأن هذه الدول حاليًا على طريقها لتطبيق المعنى الصحيح لمفهوم الإسلام السياسي؟

– لا يوجد مفهوم موحد وأسس واضحة وثابتة للدولة الإسلامية، لكننا نستطيع أن نؤكد بأنه إذا تم تطبيق المفاهيم الإسلامية بما يتناسب مع الوضع الحالي، فإن ذلك سيساعد على نهوض تلك الدول، وسيشعر المواطنون مهما اختلفت أديانهم أو ميولهم بحالة من الرضا والاقتناع، لأن الدين الإسلامي في أساسه يدعو إلى التوحد والعدالة، حتى وإن اختلفت العقائد في الحكم، ولذا فإنه يتحتم على الحاكم في وضع كهذا أن يراعي الشريعة والقيم الإسلامية بقدر نظرته لمطالب شعبه وتطلعاته لمستقبل أفضل.

● هـل يـمـكـن أن تـتـعـارض المسؤولية السياسية للحاكم مع مسؤولياته الدينية في الحفاظ على الهوية الإسلامية بدولته؟

– لا أعتقد أن يكون الحاكم الإسلامي خاضعًا لسياسات أخرى تضر بالمصالح العليا لشعبه، ومن قاموا باختياره ليطبق لهم العدالة ويحقق لهم المساواة.

الإسلام دعوة عادلة لكل العقائد

● تـزايـدت في الفترة الأخيرة المخاوف من سيطرة التيار الإسلامي على الحكم.. فكيف ترد على هذه الانتقادات؟

– من يتخوف من تطبيق النموذج الإسلامي لا يسعى للمصلحة العامة، وإنما يسعى لتحقيق مصالحه الشخصية.

● وماذا عن الاختلاف بين الدولة المدنية والدولة الدينية.. وهل يمكن الجمع بين النموذجين في تيار واحد؟

– المعنى الصحيح للدولة المدنية هي دولة تحافظ وتحمي كل أعضاء المجتمع، بغض النظر عن القومية والدين والفكر، ومن أهم مبادئ الدولة المدنية أيضًا ألا يخضع أي فرد فيها لانتهاك حقوقه من قبل فرد أو طرف آخر، وأعتقد أن مثل هذه الأمور هي مبادئ أساسية أيضًا في الدولة الإسلامية.

● كيف تقيِّم أداء التيار الإسلامي الوسطي من حيث التأثير في الواقع السياسي؟

المصالح الشخصية وراء تخوف البعض من النموذج الإسلامي

– في ظل حالة التخوف التي تنتاب بعض الأقليات، وترويج البعض لصورة سيئة عن التيار الإسلامي، فإن ظهور تيار إسلامي وسطي سيساعد كثيرًا على إرساء الهدوء والأمان لهذه الفئة، وسيعمل هذا التيار الجديد على تحقيق مطالب الوضع السياسي.

● في تبرير فج أكدت العديد من دول الغرب أنها لا يمكنها منع توجيه الانتقادات حتى لو كانت للرسول ﷺ بدعوى حرية الرأي والتعبير وعدم مصادرة الرأي.. لكننا وجدنا عكس ذلك تمامًا حينما نشر أحد الصحفيين صورًا فاضحة لزوجة ولي العهد البريطاني وتمت مصادرة المجلة التي نشرت الصور.. فما رأيك في هذه الازدواجية؟

– من يعتقد أن حرية الرأي مكفولة في الغرب بالصورة التي يصورها لنا البعض واهم كثيرًا، فكم من مظاهرة تم إنهاؤها من قبل الشرطة في دول غربية كبرى، وبأساليب قمعية ووحشية، وكم من صحيفة تم مصادرتها بحجج وهمية، وكم من قرار ديكتاتوري اتخذ في الغرب بحجة الحفاظ على أمن الدولة ومحاربة الإرهاب، وكم من المعتقلين السياسيين في معتقلات هذه البلدان.

● وكيف تفسر زيادة الهجمات الغربية على الإسلام في الفترة الأخيرة؟

– هذه الهجمات قديمة، وليست وليدة اليوم، ومن الملاحظ أنها تكثر عندما يشعر الغرب بالخوف من نجاحنا نحن العرب.

العدد (٥٧٥) رجب ١٤٣٤هـ/ مايو - يونيو ٢٠١٣م

القيم.. وضعية أم دينية؟
(العدالة نموذجا)

عبدالوهاب محمود المصري
باحث دراسات إسلامية

يرى المفكر الدكتور زكي نجيب محمود أن «القيم تقوم في الإنسان بالدور الذي يقوم به الربان في السفينة يجريها ويرسيها عن قصد مرسوم، وإلى هدف معلوم»(١)

وقد انقسم المفكرون والعلماء ذوو الصلة، حول مصدر القيم، إلى فريقين: فريق أول يرى أن القيم وضعية مصدرها البشر، وفريق ثان يرى أن القيم دينية مصدرها الشرائع السماوية. ونحن نرى مع الفريق الثاني أن لكل القيم أصولا دينية، وسنثبت مقولتنا هذه في الفقرات التالية، متخذين نموذجًا ندير حوله البحث، هو «قيمة العدالة» التي هي، أم القيم في كل زمان ومكان.

وفي هذا البحث ثلاثة عناوين رئيسية.. أولها: «قالوا في العدالة»، وثانيها: «مفهوم العدالة»، وثالثها: «العدالة في الشرائع السماوية». وفي الختام خلاصة ونتائج.

أولًا في قيمة العدل

يقول المفكر الأكاديمي الدكتور فهمي جدعان: «إن جميع أشكال الصراع التي شهدتهاالعقود الأخيرة والحالية من الحياة المعاصرة ترتدُّ بالدرجة الأولى إلى غياب قيمة عليا أساسية هي قيمة العدالة: العدالة في الثروة، العدالة في الحقوق والأمانات، العدالة في السلطة، وذلك خلافًا لما جرى عليه المثقفون الليبراليون الذين حصروا المشكلة في القيم الأساسية الخالصة.

لاشك في أن بعض مفكري عصر النهضة قد تنبَّهوا إلى أهمية مثال العدالة، وكذلك فعل بعض مفكري الحركات السياسية والاجتماعية. ولكن هذه القيمة ما لبثت أن انسحبت من الساحة، وغابت عن الأنظار في العقود الأخيرة. واليوم تندفع الدول والأحزاب السياسية الليبرالية والقومية وفئات المثقفين المختلفة في مكافحة حركات التطرف الإسلامي، وفي شجب روح التعصب والقهر والاستبداد لديها، وتغفل جميعها عن أن غياب العدالة هو الذي يثوي خلف جموح هذه الحركات، وليس على رجال الدولة والثقافة والمؤسسات إلا أن يصبوا النظر بعمق في قلب القطاعات الاجتماعية من مجتمعاتهم ليتبينوا، ويوضح أن الآفة تكمن في غياب العدالة الاجتماعية والاقتصادية، وفي ضياع الحقوق والأمانات، وفي «سوء توزيع الأدوار»، أو «سوء توزيع السلطة» وفقًا لتعبير رالف داندروف. وفي بحثنا عن الطرق التي يجدر بنا اليوم اتباعها، يتعين علينا أن نخص هذه القيمة الشاردة، قيمة العدالة، بالمقام الأول في سلم «الممكنات» الضرورية للتحول السوي الآمن. ومن المؤكد أن أية قيمة مركزية أخرى، ستكون فاقدة للمعنى في غياب هذه القيمة الرئيسية»(٢).

ثانيًا: في مفهوم العدالة

العدالة (أو العدل)(٣) قيمة أخلاقية وظاهرة اجتماعية. والعدالة حسب تعريفات الجرجاني هي: «ناتج الفعل المنسق لقوى النفس الثلاث.. العاقلة والغضبية والشهوانية»، والعدالة عند أرسطو «فضيلة بالنسبة إلى الغير وليست مطلقة لأنها تهم المجتمع المدني»(٤).

وجاء في المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا: «العدالة (في الإنكليزية والفرنسية Justice) هي في اللغة: الاستقامة، وفي الشريعة: الاستقامة على طريق الحق، والبعد عما هو محظور، ورجحان العقل على الهوى. وفي اصطلاح الفقهاء: اجتناب الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، واستعمال الصدق، واجتناب الكذب، وملازمة التقوى، والبعد عن الأفعال الخسيسة.

«والعدالة مرادفة للعدل باعتباره مصدرًا، وهو الاعتدال، والاستقامة، والميل إلى الحق، وهو الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط (تعريفات الجرجاني).

«والعدالة عند الفلاسفة هي المبدأ

المثالي، أو الطبيعي، أو الوضعي الذي يحدد معنى الحق، ويوجب احترامه وتطبيقه، فإذا كانت العدالة متعلقة بالشيء المطابق للحق، دلت على المساواة والاستقامة، وإذا كانت متعلقة بالفاعل دلت على إحدى الفضائل الأصلية، وهي: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة. وليست العدالة جزءًا من الفضيلة، وإنما هي الفضيلة كلها (مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص١١٧).

«وللعدالة باعتبارها فضيلة جانبان: أحدهما فردي، والآخر اجتماعي.. فإذا نظرت إليها من جانبها الفردي، دلت على هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال المطابقة للحق، وجوهرها: الاعتدال، والتوازن، والامتناع عن القبيح، والبعد عن الإخلال بالواجب. وإذا نظرت إليها من جانبها الاجتماعي، دلت على احترام حقوق الآخرين، وعلى إعطاء كل ذي حق حقه.

ونحن نرى أن للعدالة طيفًا واسعًا من المعاني.. فهي نقيض الظلم، وهي إعطاء كل ذي حق حقه، وهي الإنصاف في الثواب والعقاب وفي توزيع الحقوق والموارد والثروة والسلطة، وهي التوازن والتناسب بين حقوق الناس وواجباتهم، وهي التسوية بين المتماثلات والمخالفة بين المختلفات، وهي الانسجام مع النواميس الطبيعية والاجتماعية، وهي الالتزام بما جاء في كتاب الله المسطور (الذي هو الشريعة، أو المنهج الإلهي في التحليل والتحريم، أو الكاتالوغ) في التعامل مع كتاب الله المنثور (الذي هو المخلوقات الأخرى، أو البيئة)، طلبًا لحسن تشغيل البشر للمعمورة، وبالتالي للفوز بالسعادة في الدنيا وبالجنة في الآخرة.

وفيما يتعلق بالعدالة حسب القطاعات، نرى أن العدالة في مجال الاقتصاد تتجلى في حسن توزيع الثروة، وأن العدالة في مجال السياسة تتجلى في حسن توزيع السلطة، وأن العدالة في مجال القضاء تتجلى في حسن توزيع الحقوق، وأن العدالة في مجال البيئة تتجلى في حسن توزيع الموارد بين الأجيال.

إن الحكمة من وراء إرسال الله تعالى رسله وإنزال كتبه هي قيام الناس بالعدل.

ويمكن القول باختصار، ومع بعض التجاوز: العدالة فيما يتعلق بالأشياء: هي وضع الأمور في نصابها، وفيما يتعلق بالأشخاص: إعطاء كل ذي حق حقه.

ثالثًا: العدالة في الشرائع السماوية

لقد اعتبرت العدالة منذ القدم، مسبقة الوجود، أو أنها ذات خاصة إلهية، استوحى الحاكم أو المشرع تقنينها وتطبيقها مما وراء الطبيعة، وهذا ما أكدت عليه الشرائع السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام(٥). بل إن «العدل» هو أحد أسماء (أو صفات) الله تعالى نفسه.

إن الحكمة من وراء إرسال الله تعالى رسله وإنزال كتبه هي قيام الناس بالعدل.. قال الله تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(سورة الحديد: ٢٥). والكتاب المقصود في هذه الآية هو كلمات الله تعالى التي أنزلها على رسله، ليضيئوا بها الحياة، ويهدوا بها الناس للتي هي أقوم، وليرجع البشر إليها فيما يختلفون فيه (باعتبارها النصوص الإلهية المعصومة)، فتحسم النزاع وترفع الخلاف، وتجمع الناس على أمر راشد، وطريق مستقيم. قال الله تعالى في شأن الرسل عامة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (سورة البقرة: ٢١٣)، وأما «الميزان» المقصود بالآية السابقة في سورة الحديد، فهو (حسب قتادة ومجاهد وغيرهما من مفسري السلف) أن الميزان في هذه الآية هو العدل.

وقد اختار هذا التفسير شيخ المفسرين ابن جرير، وأيده ابن كثير قائلًا: وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة، وقال بعض الحكماء: العدل ميزان الله في الأرض، وضعه للخلق ونصبه للحق(٦).

«وتبعًا لمفهوم العدالة المحددة سلفًا من إرادة الله، فإن هذه العدالة أغلب ما تتجلى بدون تمييز في احترام إرادته المعلنة بما نسب إليه من كتب أو بما أوحى إلى رسله. وهكذا، على سبيل المثال، فإن الصلاة والقربان والطقوس... الخ، كلها واجبات تقتضيها العدالة، وليست أقل وجوبية من إنقاذ توجيهات دينية اجتماعية، مثل: لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تكذب، أحبب جارك... الخ، فالإنسان العادل في نظر الدين هو من يتم هذه الواجبات كلها بالتوازي.

«وترتكز العدالة اليهودية في أسفار العهد القديم على تبليغ موسى شعبه الوصايا العشر، التي خطت بإصبع الإله، والتي أوحى بها لموسى وهي: «لا تجعل لك إلهًا غير الله، لا تحلف باسم الرب باطلًا، اذكر يوم السبت لتقدسه، أكرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد زورًا، لاتشته بيت قريبك، ولا تشته امرأة قريبك».

هذه الوصايا تضع في أول وصية منها أساس المجتمع الديني الجديد، وهو المجتمع الذي لا يقوم على أي شريعة مدنية، بل على فكرة الله الملك القدوس، الذي أنزل كل قانون وفرض كل عقوبة، وجاءت الأسفار الأخرى في التوراة، التي ذكر منها أنها تليت على الشعب بأمر يوشبا وعذرا، والتي صيغت منها القوانين الأساسية، جاءت كلها لتنسب أن كل عدالة أو تصرف يجب أن يقوم به الإنسان يجب أن يقوم على الدين الموحى به من قبل الرب (٧).

«وكانت مجمل المبادئ التي بشر بها المسيح قد وردت في بعض أسفار العهد القديم، وقد اعتبر أن العلة هي في عدم تطبيقها، ولذلك قال: «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوه لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، لكن حسب أعمالهم لا تعلموا»، وقد نبه الأتباع في موعظة الجبل قائلًا: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل»، والشريعة أو الناموس المقصود هو شريعة وتعاليم اليهودية، التي كانت سائدة في عهده، والمرتكزة على وحي الإله وليس الشريعة وحدها، ولكن حتى القوانين النافذة، وعلى ذلك قال: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وإذا كانت تعاليم المسيح لم تبدل نصوص الشريعة اليهودية، فإنها أضافت أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول في الملكوت، بأن يحيوا حياة العدالة والرأفة والبساطة، وزاد الشريعة صرامة في مسائل الجنس، والطلاق، وقد خفف الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة وحذف بعض أوقات الصوم، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة، وهكذا بدت العدالة في عصرالمسيح وكأنها شريعة تنبع من الصميم، ولكن الناس لم يدركوا هذا الأمر المستحيل على طبيعة الإنسان، ولذلك شعر بغربته عن العالم وأن مملكته ليست في هذا العالم، ويلوح من نصوص بعض الأناجيل أن المسيحية لحظت ما جاء في الفكر الفلسفي من حيث اعتبار العدالة هي الفضيلة الشاملة، فجاء في بعض الآيات، «طوبى لمن يستطيع أن يكون عادلًا» كذلك، فإن مختلف اتفاقات وإعلانات آباء الكنيسة قررت ذلك، وأدخلت في نطاق العدالة واجبات الإحسان، وأنها مولد خصب للفضائل الأخرى، وعرفها يوحنا باحترام الأوامر والالتزامات بشكل عام، وتظهر النصوص الأولى الواردة في الأناجيل تحسسًا بالعدالة على مستويات مختلفة، فالربا حرام «... أقرضوا وأنتم لا ترجون شيئًا» (لوقا: ٣٧/٦)، وجاء في موعظة المسيح لتلاميذه على الجبل «لا تكتنزوا لكم كنوزًا على الأرض»، وفي رسالة المسيح تقديس لقيمة العمل، وأن لكل حسب عمله»، ونهت الأناجيل عن التفريق بين الناس «ليس هناك يهود وإغريق، ولا حر ولا عبد، ولا ذكر ولا أنثى، فكلهم سواء في يسوع المسيح» (٨).

أما العدل في شريعة الإسلام فهو أصل أصيل وأساس متين يدخل في تعاليم الإسلام وأحكامه كلها، عقائد وشرائع وأخلاقًا (٩).

وحين أمر الله تعالى بثلاثة أشياء، كان العدل أولها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: ٩٠).

وحين أمر بشيئين، كان العدل أحدهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

وحين أمر بشيء واحد، كان هو العدل، قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (الأعراف: ٢٩)، و«القسط» هو العدل والاعتدال والتوسط في جميع الأمور (١٠).

إن التوحيد نفسه- وهو جوهر الإسلام وأساس بنيانه- معنىً من العدل، كما أن الشرك ضربٌ من الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)(١١).

ويلاحظ الخبير الدولي في التنمية البشرية الدكتور نادر فرجاني أن «العدل في الإسلام من علل الأحكام ومعايير المواقف، وتكوين التصور الإسلامي للحياة والدولة والعلاقة بين الإنسانية وسببية الموجود» (١٢).

وكذلك، يلاحظ المفكر الأكاديمي الدكتور محمد عابد الجابري، أن «الأحاديث النبوية التي تروى في

العدل كثيرة ومتنوعة، وإن كان بعضها ضعيفًا، والمهم أنها تعبر عن الضمير الإسلامي، فضلًا عن أنها تؤكد ما ورد في القرآن، فهي إذن صحيحة مضمونًا، وإن كان بعضها ضعيف السند، ومن الأحاديث الصحيحة، ما ورد عن البخاري ومسلم من أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر في مقدمتهم «الإمام العادل»، وفي الترمذي، قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة، وأبعدهم منه مجلسًا، إمام جائر «أما كتب الآداب السلطانية»، فإنها تكرر عبارة «العدل أساس الملك»، وتورد في شرحها وتأكيد معناها أقوالاً منسوبة إلى فلاسفة اليونان وحكماء الفرس والهند ورجالات الإسلام (١٣).

القيم.. نسبية أم مطلقة؟

يرى بعضهم أن القيم نسبية وليست مطلقة، «والحق أن الدفع بالقيم إلى دوامة التغير والنسبية لن يلبث أن يصيب الحقيقة الخلقية في الصميم، وبالتالي فإنه لن يلبث أن يؤدي إلى بلبلة الرأي العام الأخلاقي، هذا إلى أننا لو سلمنا بأن الأخلاق «علم» وإذا اعترفنا في الوقت نفسه أن من شأن كل علم أن ينطوي على مجموعة من الحقائق العامة التي تتسم بطابع الصدق، فلابد لنا من التسليم بأن علم الأخلاق ينطوي على مجموعة من الأحكام الأخلاقية التي لا تصدق بالنسبة إلى فرد واحد بعينه، بل تصدق بالنسبة إلى الأفراد جميعًا في كل زمان ومكان» (١٤).

ويلاحظ المفكر الدكتور سيف الدين إسماعيل، بحق، أن «فكرة نسبية القيم من أخطر الأفكار التي بددت معنى القيم، وأصّلت مداخل للانحراف بها تحديدًا وتفسيرًا وتأويلًا، ومدخلًا للازدواجية في المعايير، وأنتجت (وبلا أدنى غضاضة) خطًا بين متوازيين أصابهما الانفصام في التعبير، وفي المفردات، وبين الأقوال والأفعال، وبين المواقف وبعضها البعض، وبين تكييف المصالح المتبدلة من آنٍ لآخر، وغير ذلك كثير» (١٥).

ونحن، إذ نستذكر أن بعضهم يعترض على القول بمطلقية القيم، بحجة ما يبدو لهم من اختلاف القيم بين الشعوب ولدى الشعوب نفسها (أيضًا) مع تغير الزمن، نرى أنه لا اختلاف في جوهر القيم لا بين الشعوب، ولا بتغير الزمن، وإنما الاختلاف ممكن حول هرم أو سلم القيم (الذي هو ترتيب القيم تنازليًا حسب أهميتها)، وحول نمط السلوك المعبر عن قيمة ما .. فقد كانت (مثلًا) المرأة الهندية عُبر في الماضي عن وفائها لزوجها بقبول أن تحرق (وهي حية!!!) إلى جانبه عند وفاته، ولكنها تعبر في هذه الأيام عن الوفاء بطرق أخرى غير قبول الاحتراق!

الخلاصة والنتائج

القيم معايير لضبط وتوجيه السلوك البشري، والقيم قديمة قدم الأنبياء والشرائع السماوية التي أوحى الله تعالى أولاها إلى نبيه آدم أبي البشرية، وتبلورت واضحة جلية في كبريات الشرائع السماوية، (اليهودية، والمسيحية والإسلام)، واكتملت (بحيث لا تحمل أي مزيد) في الشريعة الخاتمة التي هي الإسلام.

ولقد ثبت من دراسة قيمة العدالة -التي هي أم القيم- أن الشرائع السماوية هي التي جاءت (للمرة الأولى) بالقيم، وقد استلهمتها - بوعي أو دون وعي- ثورات إيديولوجيات كثيرة، فهي قيم دينية لا وضعية، وهي بطبيعتها مطلقة لا نسبية وإن كانت تختلف في أولوياتها وتجسيداتها حسب اختلاف الزمان والمكان، فهي- بذلك- صالحة لكل زمان ومكان.

الهوامش

١- الدكتور زكي نجيب محمود، فلسفة وفن، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص٦٤.

٢- الدكتور فهمي جدعان، الممكنات الشاردة، مجلة «العربي»، الكويت، العدد ٤٣٥، فبراير (شباط) ١٩٩٥، ص٣٧.

٣- سنعتبر في هذا البحث أن «العدالة» و«العدل» بمعنى واحد، جاء في المعجم الوسيط: «عدل في أمره عدلاً، وعدالة»، ومعدلة: استقام. (انظر: الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دمشق، دار الفكر، دون ذكر تاريخ، الطبعة الثانية، المجلد الثاني. ص٥٨٨).

٤- نقلاً عن: الدكتور مراد وهبة، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩، ص٢٦٥.

٥- المحامي عبدالهادي عباس، أزمة العدالة، المرجع الأسبق، ص١٢٨.

٦- انظر: الدكتور يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص٣٧٨ و٣٧٩ و٣٨٥ و٣٨٦.

٧- المحامي عبدالهادي عباس، أزمة العدالة، المرجع الأسبق، ص١٢٨ و١٢٩.

٨- المحامي عباس، أزمة العدالة، المرجع الأسق. ص١٣٩ و١٤٠.

٩- الدكتور يوسف القرضاوي، دور القيم، المرجع الأسبق، ص٣٧٥.

١٠- الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر (دمشق)، ودار الفكر المعاصر (بيروت)، ج٨، ص١٧٤.

١١- الدكتور القرضاوي، دور القيم، المرجع الأسبق، ص٣٧٥ نفسها.

١٢- الدكتور نادر فرجاني، عتق أمة (من الهوان إلى النهضة في الوطن العربي)، بيروت، دار الآداب، الطبعة الأولى ٢٠١١م، ص١٣٦.

١٣- الدكتور محمد عابد الجابري، الديموقرطية وحقوق الإنسان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٤، ص٢٣٩، و٢٤٠.

١٤- الدكتور زكريا إبراهيم، المشكلة الخلقية، القاهرة، مكتبة مصر، الطبعة الأولى ١٩٦٩، ص٦٠.

١٥- الدكتور سيف الدين إسماعيل، العلاقات الدولية في الإسلام (مدخل القيم)، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص٢١.

من «الضمانات الأساسية للتقاضي في الفقه الإسلامي» للدكتور عبدالعزيز سمك

العدل أساس الملك

محمد فؤاد علي - باحث مصري

تعتبر قيمة العدل من أسمى وأرفع قيم الإسلام الحنيف، وقد ذكرت هذه القيمة في العديد من السُّور القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وتنبع أهميتها من تأكيدها المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، كل بحسب قدرته وطاقته ومهارته، وقد استلهم الدكتور عبدالعزيز رمضان سمك أستاذ ورئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق - جامعة القاهرة هذه القيمة ليعرف قارئه الكريم بماهيتها ودورها في تحقيق المحاكمات العادلة، وقد أشار إلى ذلك في كتابه القيم «الضمانات الأساسية للتقاضي في الفقه الإسلامي» الصادر خلال شهر رجب ١٤٣٣/ يونيه ٢٠١٢ عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ضمن سلسلة «قضايا إسلامية»، وقد جاء الكتاب في ١٣٠ صفحة من القطع المتوسط، وتوزعت مادته على تسعة فصول وهي «استقلال القضاء، عدم جواز عزل القاضي بدون مقتض، ضمان حيدة القاضي، مجانية القضاء، علانية الجلسات، حصول الإجراءات في مواجهة الخصوم، كفالة حق الدفاع للخصوم، حق الطعن في الأحكام وتعدد درجات التقاضي، تقرير المسؤولية عن أعمال السلطة القضائية»، ويمكننا تفصيل هذه الموضوعات على النحو التالي:

يؤكد المؤلف في الفصل الأول أهمية استقلال القضاء عن صاحب السلطة لضمان تحقيق العدل بين المتخاصمين دون تأثير من صاحب السلطة، أو كبار المتخاصمين على صغارهم، وينبه المؤلف في هذا الفصل إلى حقيقة هامة، مؤداها مسايرة الأحكام الفقهية التي نادت بأهمية وضرورة استقلال القضاء عن السلطتين التنفيذية والتشريعية للمواثيق الدولية والمحلية، وخير شاهد على ما نقول مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ ديسمبر من العام ١٩٤٨، والذي نصَّ في مادته العاشرة على أن: «لكل إنسان الحق على قدم المساواة التامة مع الآخرين في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرًا عادلًا علنيًا للفصل في حقوقه والتزاماته، وأية تهمة جنائية توجه إليه»، كما أكَّد الدستور المصري الصادر عام ١٩٧١ على هذا المبدأ، فقد نص في مادته ١٦٦ على أن القضاة مستقلون ولا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون، ولا يجوز لأيِّ سلطة التدخل في القضايا، أو في شؤون العدالة»، كما نصَّ في مادته رقم ٦٥ على أن استقلال القضاء وحصانته ضمانتان أساسيتان لحماية الحقوق والحريات، ولم يقتصر الأمر في التأكيد على مبدأ استقلال القضاء على النصِّ عليه في الدستور، بل جعل القانون الجنائي المساس بمبدأ استقلال القضاء جريمة يعاقب عليها قانونًا، حيث قضت المادة ١٢ من قانون العقوبات المصري رقم ٥٨ لسنة ١٩٣٧ وتعديلاته «يعاقب كل موظف توسط لدى قاضي أو محكمة لصالح أحد الخصوم، أو إضرارًا به سواء كان ذلك بطريق الأمر، أو الطلب أو الرجاء أو التوصية بالحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر، وبغرامة لا تزيد على خمسمائة جنيه، كما

قضى القانون بمعاقبة كل من أخلَّ بطريقة من الطرق المنصوص عليها فيه بمقام قاض أو هيبته أو سلطته في صدد الدعوى، وكل من نشر أمورًا من شأنها التأثير في القضاة الذين يناط بهم الفصل في الدعوى على النحو الموضح بالماديتن «١٨٦، ١٨٧ من قانون العقوبات»، كما وضعت الضمانات التي تحول دون تأثير من قبل السلطة التنفيذية على القضاء، ومنها «وضع الأسس الثابتة لتعيينهم وترقيتهم وإعارتهم ومنحهم حصانات وضمانات خاصة عند مساءلتهم، كما نصَّ الدستور المصري الصادر ١٩٧١ على عدم قابليتهم للعزل».

عدم جواز عزل القاضي

تناول المؤلف في الفصل الثاني الأسس والضوابط التي تمنع عزل القضاة بدون مقتض، وفيه أكد عدم قدرة السلطة التنفيذية- مهما علا شأنها وزاد سلطانها- من عزل القضاة من مناصبهم، والغرض من هذا المبدأ حمايتهم من رأس السلطة التنفيذية وأرباب المكانة الاجتماعية والاقتصادية الرفيعة، ومبدأ عدم قابلية القاضي للعزل لا يعني استمراره في عمله مهما تغيرت حاله، فإذا وجد ما يقتضي عزله يعزل وجوبًا في حالة إصابته بالجنون أو العته أو فقد أهليته، أو صار فاسقًا بقبوله رشوة أو هدية أو عطية، لأن أهلية القضاء يجب تحققها فيه ابتداء، وعلى الدوام ما بقي مباشرًا للعمل القضائي، وينبه المؤلف في هذا الفصل إلى حقيقة هامة، مؤداها أهمية إعلام القاضي المعزول بأسباب عزله ومنعه من إصدار الأحكام في القضايا المعروضة عليه، لفوات شرط من شروط توليته القضاء، والعلة في ذلك أن أحكامه بعد العزل لا تنفذ، كما ينبه المؤلف أيضًا إلى أمر هام،

استقرار أحوال القضاة ودفع الحاجة عنهم أمر ضروري لتدعيم حيدة القاضي

ألا وهو عدم جواز القاضي عزل نفسه لأنه ليس وكيلًا عن الحاكم أو الأمير، بل نائبًا عن المسلمين، وأن المصلحة العامة للمسلمين أشمل وأعم من المصلحة الشخصية، وإن كان له حق الاستقالة في حالة وجود مثيل له أو نظير يفوقه علمًا ودراية بأحكام الشريعة والقانون.

ضمان حيدة القاضي

بعد أن تكلم المؤلف في الفصلين الأول والثاني عن الضمانات التي تحمي القاضي من تدخل وتأثير الآخرين في عمله، يحدثنا في الفصل الثالث عن الشروط الواجب توافرها لضمان حيدة القاضي، ومن أهم وأبرز مظاهرها في الفقه الإسلامي: وجوب المساواة بين الخصوم، لأن الإسلام دين العدل، والعدل يعني التسوية بين الناس، وحق كل منهم في اللجوء للقضاء للحصول على حقوقه كاملة، ويؤكد المؤلف في هذا المقام على مبدأ هام، ألا وهو عدم جواز قضاء القاضي بعلمه، وذلك حرصًا على حيدته ونزاهته في إقامة حدود الله وسنة نبيه ﷺ في الأزمنة التي فسدت فيها الذمم، وضعف الوازع الديني بين المتخاصمين، كما يحدثنا أيضًا عن عدم إمكانية رد القاضي عن نظر الخصومة إلا إذا توفرت في حقه أسباب هذا الرد، ومنها أن يكون القاضي حكمًا وخصمًا في وقت واحد، أو كان بين المتخاصمين أحد من أفراد أسرته أو عائلته أو العاملين لديه، أو بينه وبينهم معاملات مالية أو مصاهرة، أو كان متهمًا في قضية أخرى، حتى ولو لم يفصل فيها بعد.

مجانية القضاء

ومجانية القضاء التي يحدثنا عنها المؤلف في الفصل الرابع تعني: عدم جواز حصول القضاة على أجورهم من المتخاصمين، لأن الحصول عليها يتم من خزانة الدولة، وفي ذلك يقول المؤلف «من المسلم به أن استقرار أحوال القضاة، ودفع الحاجة عنهم، وعدم شغلهم بالتفكير في مشاكل حياتهم المادية أمر ضروري لتدعيم حيدة القاضي وكفالة نزاهته وتفرغه لأداء رسالته، وقد أكد جمهور الفقهاء على مبدأ مجانية القضاء، وأثبتوا حق القاضي في أخذ الأجر على القضاء من بيت المال، لأنه ربما أدى فقره إلى استمالة الأغنياء، وتمييزهم على الفقراء، فيختل ميزان العدل، فلذا كان إرساء مبدأ مجانية القضاء أمرًا ضروريًا لضمان حيدة القاضي ونزاهته، وتمكينًا له من التفرغ لأداء مهمته في إقامة العدل بين الناس وإلّا تعطل القضاء، وضاعت الحقوق، وقد توفرت الأدلة الشرعية على هذا المبدأ».

علانية الجلسات

يحدثنا المؤلف في الفصل الخامس عن علانية الجلسات وهي تعني: تحقيق أسباب الدعوى، والمرافعة فيها، وإصدار الأحكام في جلسات علنية يحضرها جميع الناس دون حظر على أحد، ومن العلانية أن تصدر الأحكام مسببة، حتى يتبين للكافة الأسس الإجرائية والموضوعية التي بني عليها الحكم، ويشكل مبدأ علانية الجلسات ضمانة مهمة للقاضي، حيث يتاح لأفراد الشعب فرصة الإطلاع على أعمال القضاء، مما يبعث في نفوس القضاة الثقة والطمأنينة على حسن سير العمل

القضائي وتطبيق العدالة بين الناس، وفي ذلك يقول المؤلف «تعدُّ علانية الجلسات نوعًا من الرقابة الشعبية على أعمال القضاء، وفي هذه العلانية أيضًا مصلحة للقضاة أنفسهم في نفي التهمة عنهم، وفي حضور العلماء مجالس القضاء مصلحة أخرى، حيث كان القضاة يستفتونهم فيما أشكل عليهم فيفتونهم فيكون هذا أسرع إلى اجتهادهم، وبعثًا للطمأنينة على أحكامهم، إلا أنه اقتضت ضرورة التحقيق أو المحاكمة أن تكون سرية لأمر يتعلق بالمصلحة العامة أو الآداب أو مصلحة الأسرة فلا مانع من ذلك شرعًا، إعمالًا لحكم الضرورة، ولأن رسول الله ﷺ كان يقضي أحيانًا في بيته.

الإجراءات في مواجهة الخصوم

يتناول المؤلف في الفصل السادس أهمية حصول الإجراءات في مواجهة الخصوم، لأن الأصل أن تحصل «تتم» الإجراءات في مواجهة طرفي الخصومة، وبناء على هذا المبدأ لا ينبغي للقاضي نظر الدعوى أو الخصومة في مواجهة أحد الخصمين دون الآخر، بل يجلسهما بين يديه ليحاط المدعى عليه بالادعاءات الموجهة إليه، والحجج التي قامت عليها، ويطلب منه القيام بالرد عليها ودحضها أو الإقرار بها، وهذا يعد من الضمانات الأساسية المستقاة من مبدأ حيدة القاضي، ومبدأ المساواة بين الخصوم، وقد نبهنا المؤلف الكريم في هذا الفصل إلى مبدأ هام مفاده: عدم جواز الحكم على الغائب إلا بعد إخطاره، وتكليفه بالحضور بين يديّ القاضي بنفسه أو تعيين وكيل عنه، وفي حالة امتناعه أو وكيله عمدًا يجوز الحكم غيابيًا في غير حدود الله، لتعذر الوصول إليه، وحتى لا يتخذ الناس من الغيبة وسيلة لإبطال الحقوق، وإذا حضر الغائب بعد ذلك فله حق الطعن في الحكم إن توفرت شروطه وأسبابه.

كفالة حق الدفاع للخصوم

يستهل المؤلف الفصل السابع الموسوم «كفالة حق الدفاع للخصوم» بالتأكيد على أن حق الدفاع قد كفلته الشريعة، سواء بالأصالة عن النفس أو بتوكيل من يدافع عنه، ويعد مبدأ حق الدفاع من الضمانات الهامة من ضمانات التقاضي، وحقًا من الحقوق الطبيعية التي يجب احترامها في كل مرحلة من مراحل الدعوى، ويقصد بحق الدفاع أن يكفل للمدعى عليه أو وكيله الحق في دفع الاتهام عنه، وذلك بتنفيذ أدلة الإدانة ودفعها وإقامة أدلة البراءة، كما للمحكوم عليه حق الطعن على الأحكام الصادرة ضده بالطرق القانونية، وفي المواعيد المحددة بالقانون.

تعدد درجات التقاضي

من الضمانات الأساسية للتقاضي أن تتعدد درجاته، لأن الأحكام القضائية التي يصدرها القاضي وهو بشر قد يصيب وقد يخطئ، وتعدد درجات التقاضي مرتبط بمدى جواز نقض الأحكام من عدمه، ويتم النقض للأحكام من خلال محكمة أو سلطة أعلى من الجهة التي أصدرته، وفي ذلك يقول المؤلف في الفصل الثامن «لامانع شرعًا من تعيين جهة قضائية عليا تختص بالنظر في الأحكام المطعون فيها، لأن المصلحة تقتضي ذلك، وليس في هذا مخالفة لنص أو إجماع، بل هو أمر اقتضته السياسة الشرعية، فإن استبان لتلك الجهة القضائية صحة الحكم المطعون فيه أيدته، وإلا حكمت بإلغائه ونقضه»، ويدل الرأي السابق على وجود طرق الطعن في الأحكام، وتعدد درجات التقاضي في الفقه الإسلامي بأسبابها وأحكامها وأهدافها نصًا وتطبيقًا، وإن اختلفت مصطلحاتها.

المسؤولية القضائية

يؤكد المؤلف في الفصل التاسع على حقيقة هامة مؤداها: أن الأحكام القضائية التي يصدرها القضاة وبحكم طبيعتهم البشرية قد يخطئون، يقول المؤلف: «سبق الفقه الإسلامي النظم القانونية الحديثة في وضع الأحكام والقوانين المتعلقة بمسؤولية القضاة عن أخطائهم بما يكفل تأمين القاضي من أخطائه غير العمدية وبما يضمن في الوقت ذاته حقوق المتقاضيين، وهذا يعد ضمانة هامة للقضاة وللمتقاضيين على حد سواء».

«الوعي» تشارك في معرض الكتاب الإسلامي الـ(٣٨)

شاركت مجلّة الوعي الإسلامي التابعة لقطاع الشؤون الثقافية في وزارة الأوقاف الكويتية في معرض الكتاب الإسلامي الثامن والثلاثين، المقام في صالة ٥ بأرض المعارض بمشرف، في الفترة من ٩-٢٠ إبريل الماضي.

وقال سكرتير تحرير المجلّة سليمان خالد الرومي: تشارك الوعي الإسلامي في معرض الكتاب الإسلامي هذا العام بإصدار جديد وهو مجلة (الوعي الشبابي) الإلكترونية الشبابية، بالإضافة إلى إصدارها المتميّز للأطفال (براعم الإيمان).

وأكد الرومي على أهمية المجلّة كونها الأقدم من بين المجلّات الإسلامية في الكويت، والتي لا تزال تصدر إلى يومنا هذا، حيث تحمل رسالة ترسيخ القيم الإسلامية، والمساهمة في تأصيل الخطاب الإسلامي، وفق خطاب شرعي يجمع كلمة المسلمين.

وأوضح الرومي أن مشاركة المجلّة في المعرض جاءت للإسهام في التنمية المعرفية والمعلوماتية، وتعريف الجمهور بأهمِّ إنجازات ومشاريع المجلّة، عارضة أهمّ الإصدارات والبوسترات، والأعداد التراثية الخاصّة بالمجلّة، وعرض تاريخ إصدارات المجلّة خلال ٤٩ عاماً، والوثائق التراثية، والمقالات القديمة، والرسومات الفنّية الجميلة.

وأكّد الرومي أنَّ مشاركة المجلّة في المعرض تأتي انطلاقاً من دورها الاجتماعي في تعزيز الشراكة مع الإدارات والمؤسسات المجتمعية، ولزيادة انتشارها.

وأضاف: تشرّف جناح المجلّة في معرض الكتاب الإسلامي بزيارة معالي وزير الإعلام الشيخ سلمان الحمود الصباح، وقيامه بجولة فيه مع الشّيخ حمود الرومي رئيس جمعية الاصلاح، حيث أشاد الحمود بالجناح والدور الذي تلعبه مجلّة الوعي الإسلامي في طرحها الوسطي.

سكرتير التحرير يقدم درع العدد الأول من المجلة لمعالي وزير الإعلام بمشاركة العم يوسف الحجي

الأوقاف الخيرية دعامة المجتمع المدني الإسلامي

د.محمد حسن بدرالدين - باحث تونسي

لم يمض وقت طويل على بعث قضايا الوقف المعاصر وبلورة مشاغله ومجالات عمله. ولذلك لا نجد في كتب الفقه الحديثة تناولًا مستفيضًا لمسائله، ولا تقصيًا دقيقًا لأغراضه العامة والخاصة، ومن هنا فإن معالجة هذا الموضوع وخاصة في ضوء مقاصد الشريعة وحاجيات المجتمع تعتبر ضربًا من ضروب الاجتهاد المعاصر.

في هذا المقال استعراض لبعض الأغراض والملامح الإنسانية في ثقافة الوقف والتطوع من وجهة نظر الممارسة الإسلامية التي عاشها المسلمون سابقًا، ويمكن الاستفادة من أنوارها لاحقًا.

يكوّن الإسلام مجموعة كاملة من العقائد والعبادات والتشريعات والأخلاق تتماسك أجزاؤها وتتفاعل فيما بينها لتشكل وحدة عضوية لا يمكن أن يفهم أي جزء منها إلا بوضعه في نسقه العام، أو من خلال علاقته بهذه الوحدة المتكاملة، ولذلك لا يمكن أن نستوعب ملامح نظام الوقف والتطوع وآثاره في حياة الفرد والمجتمع إلا من خلال ربطه بمنظومة العبادات والتكاليف الإسلامية كلها ضمن الأصول العامة للشريعة ومقاصد الدين الكلية.

اهتم الإسلام منذ نزوله بهداية أتباعه إلى الخير والحق وميادين الفعل والعمل، وتحريرهم من كل القيود التي يمكن أن تكبلهم، واعتنى بتوفير مقومات الحياة الكريمة في ظل الحرية والعدل والمساواة، وأرسى قواعد التكافل والأخوة التي تضمن رعاية مصالحهم ومعايشهم.

وقد علمهم نبيهم عن طريق القدوة الحسنة أبهى دروس العطاء والتضحية والإيثار، فتربوا على قيم المودة والتعاون والبذل والإنفاق، فكانوا يتسابقون نحو مواطن البر والتوسعة على الناس وسداد ديونهم وحل مشكلاتهم، إيمانًا منهم بأن الإنفاق في وجوه الخير والمصلحة فرضًا وتطوعًا من أفضل القربات والطاعات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، تمشيًا مع قوله سبحانه في سورة الإنسان: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾.

جعل الإسلام سداد ديون الغارمين وجهًا من وجوه مصارف الزكاة،

فقد كتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أن يقضي عن الغارمين، فقيل له: إنا نجد الرجل له المسكن والفرس والأثاث فقال عمر: إنه لابد له من مسكن يسكنه وخادم يخدمه وفرس يجاهد عليه عدوه، وأن يكون له الأثاث في بيته، وأمر أن يقضى عنه.

وفرض الفاروق عمر رضي الله عنه قبل ذلك لكل مولود في الإسلام نفقة، وجعل لكل طفل مائة درهم فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده، وفرض للقطاء البلد لكل واحد منهم مائة درهم، ورزقًا يأخذه وليهُّ كل شهر، وأوصى بهم خيرًا، وجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال.

وبمثل هذه الأفهام والمواقف تأسست وتأصلت لدى المسلمين ثقافة التطوع والتضامن والإنفاق، وتكونت البدايات الأولى للتبرع والوقف.

ويمكن التماس بوادر الوقف الأولى في حياة المسلمين منذ وقت مبكر مع موائد الإفطار المجانية الراتبة التي كان يجريها المتصدقون على المصلين في المساجد والبيوت، وخاصة في شهر رمضان الكريم، ثم تأثيثهم هذه المساجد وإضاءتها.

ثم اتجهت همة المحسنين إلى إقامة الطرق، ومراكز تجميع الماء والاستراحات. ففي تاريخ الطبري أن عمر بن الخطاب وضع في الطريق بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به، ويحمل من ماء إلى ماء. وكلمه أهل المياه ليسمح لهم بابتناء المنازل بين مكة والمدينة فأذن لهم، وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء:

«عن عبدالله المزني عن أبيه عن جده قال: قدمنا مع عمر مكة في عمرته سنة سبع عشرة فمر بالطريق فكلمه أهل المياه أن يبتنوا منازل بين مكة والمدينة ولم يكن قبل ذلك

الوقف طاعة لا يستحقها الا من له غاية

بناء، فأذن لهم، وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء».

لقد فهم المسلمون الأوائل نظام الوقف، وعملوا به قبل أن يتكون الفقه الإسلامي، واستخرجوا منه أبعادًا وأحكامًا ومقاصد عميقة تتيح للإنسان فرصة أخيرة للصدقة والإيداع والادخار عند الله تعالى، هدفها وغايتها تحويل العمل الديني إلى عمل اجتماعي أو ربط الدنيوي بالأخروي، والسعي إلى تحويل العمل في مقاصده الدينية إلى عمل اجتماعي نافع للإنسان بحيث تمر العبادة عبر خدمة الناس.

ومن هنا تتراءى علاقة الوقف بالعبادة باعتبارها طاعة لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، فالمعنى الاصطلاحي للعبادة لا يخرج لا محالة عن المعنى اللغوي، لأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، فصارت تشمل العبادات البدنية والمالية والقلبية.

قال: «الفخر الرازي» معلقًا على الآية الكريمة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ (الذاريات:٥٦-٥٧): «العبادة التي خلق الجن والإنس لها هي التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان».

لقد اتبع القرآن في تربيته لشخصيات الناس وفي تغيير سلوكهم أسلوب العمل والممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة. ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة التي تعلم المؤمن الطاعة لله والامتثال لأوامره، كما تعلمه حب الناس والإحسان إليهم، وتنمي في نفسه روح التعاون والتكافل الاجتماعي.

ومن الألفاظ ذات الصلة بمظاهر التطوع والعمل الخيري «القربة» وهي ما يتقرب به إلى الله فقط، أو مع الإحسان للناس كبناء الرباطات والمساجد، والوقف على الفقراء والمساكين.

وفي هذا السياق: وصفت فاطمة بنت عبدالملك زوجها - عمر بن عبدالعزيز- الخليفة الأموي بقولها: «والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صيامًا، ولكن والله ما رأيت عبدًا أشدَّ خوفًا لله من عمر، كان همه بالناس أشد من همه بأمر بنفسه، قد فرغ بدنه ونفسه للناس، يقعد لحوائجهم يومه، فإذا أمسى وعليه بقية من حوائجهم وصله بليلته».

تلك شهادة حية على اتساع الفعل التعبدي، وأن التقرب إلى الله يتم أيضًا عبر الاقتراب من الخلق وخدمتهم، فعبادة الله تعالى تقوم أساسًا على التوفيق والتكامل بين مسلكي الشعائر التعبدية والإصلاح، يظهر ذلك في الربط الوثيق والدائم في القرآن الكريم بين الشعائر التعبدية والعمل الصالح.

روى الخلال بإسناده عن نافع قال: ابتاعت حفصة حليًا بعشرين ألفًا فحبسته على نساء آل الخطاب، فكانت لا تخرج زكاته.

رضي الله عن أم المؤمنين حفصة فقه كانت تسابق أباها في الخير والبر والإحسان، ولكن، ما شأن هذا الحليّ المحبس على نساء آل

الخطاب؟

في تاريخنا وتراثنا ظواهر ومواقف موجودة في تاريخ كل أمة، ولكن عندنا ظواهر لم يشاركنا فيها شعب ولا أمة قبل القرن العشرين، منها «الوقف النسائي»، وهي ظاهرة فريدة في الأمة المسلمة، وللمرأة المسلمة في الحبس والوقف شؤون لا شأن.

ظاهرة لا يقع المرور عليها حتى باحتشام من الكتاب والمؤرخين والباحثين، بل لا يتوقفون عندها إلا نادرًا، مع أن النسبة المئوية للنساء المسلمات المتبرعات بوقف أو حبس تفوق نسبة الذكور إحصائيًا، إذا اعتبرنا النسبة بين الذكور والإناث عامة، وإذا اعتبرنا أوضاع المرأة المسلمة العامة وخاصة المالية.

إن القيمة المعنوية لوقف من امرأة في تلك القرون أسمى وأرقى لا محالة من قيمة وقف رجالي، وما «حبس» حفصة رضي الله عنها إلا باكورة من باكورات الوقف النسائي في تاريخنا وتراثنا.

إن صحت الرواية، فلا يكون ذلك إلا من باب الشعور المرهف عند امرأة تعرف ما تحس به، إذا تواجدت في محفل يستدعي الزينة والتجمل أو حتى التفاخر بما تلبس.

وأكثر «آل الخطاب» لم يكونوا من أثرياء المهاجرين في المدينة، ومن رجالهم من كان لا يعبأ بالدنيا كلها وزينتها، ومنهم من كان متشددًا، كما يقال، على نفسه وعلى غيره، فلا غرابة أن يكون «الحلي» نادرًا أو مفقودًا عند نساء آل الخطاب.

رأت حفصة رضي الله عنها بإحساسها الرقيق وبعد نظرها أن تعوض ذلك.

فاشترت ذلك الحلي تستلفه منها نساء آل الخطاب كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

هذا في الاصطلاح الفقهي «وقف أهلي» بما أن حفصة خصته لآل الخطاب، ولكنه مختلف في جوهره ومقاصده عن الأوقاف الذرية في المنازل والحقول.

حبس حفصة هذا يدخل في جبر الخواطر، وهذا يندرج في مشاغل المصالح الحاجية في نظر بعض الفقهاء، أو في أبواب المصالح التحسينية في اجتهادات فقهية أخرى.

نماذج من إبداعات المسلمين في الأوقاف الخيرية:

لاتذكر مصادرنا أوقافًا خيرية من نوع «حليّ حفصة» ولو كانت محصورة على «الأهل» في القرون الأولى. ويصعب تحديد البداية لانتشار الوقف الخيري ليشمل كل المصالح، والأرجح أن انتشار الوقف الخيري بنماذجه المتعددة ظل متدرجًا في النماء عبر القرون.

لذلك نكتفي ببعض النماذج من الأوقاف الخيرية بغض النظر عن تاريخ ظهورها وانتشارها.

إن نماذج الوقف الخيري التي ابتدعها المسلمون هي أحسن تعبير عن سبقهم في التمدن الفعلي لا في التحضر المظهري، بتلك النماذج طبع المسلمون التاريخ الإنساني، أو على الأقل تاريخ المسلمين، بسمة الإنسانية الحقة.

كان يوقف للمرضى مراوح من خوص لأجل استعمالهم إياها في الوقت الحر.

ومن الأوقاف الخيرية التي أنشأها المسلمون بناء الخانات والفنادق للمسافرين المحتاجين ومعها أثاثها وأدوات الطبخ فيها.

ومنها بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر دارًا.

ومنها سقايات الماء المسبلة للناس في الطرقات العامة.

ومنها حفر الآبار الخيرية وإنشاء القناطر والجسور والطرقات.

ومما أنشأه المسلمون من الأوقاف

الخيرية دور لتقديم الرعاية الاجتماعية المجانية للقطاء ولليتامى ولختانهم والعناية بهم.

وكذلك خصصوا دورًا للعجزة والعميان والمقعدين، بل وقفوا أموالاً لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم.

وكانت هناك أوقاف خيرية لتزويج الشباب العزاب الذين يعجزون عن تقديم المهور وتأمين نفقات الزواج.

كما وقف المسلمون أموالاً لإمداد الأمهات بالحليب والسكر.

كما كانت هناك أوقاف خيرية تنفق على أسر السجناء وأولادهم.

ومما كان له نصيب كبير في اهتمامات المسلمين الوقفية، الحيوانات: فقد وقفوا الأموال لتطبيب المريض منها، ولرعي المسنة العاجزة.

وكانت في دمشق أرض يقال لها المرج الأخضر، وقفت للخيول المسنة العاجزة التي يطردها أصحابها لأنهم ما عادوا ينتفعون بها، فكان هناك موظفون خاصون يأخذونها، فترعى في أرض الوقف حتى تموت.

وكان في أوقاف المدن الإسلامية أماكن خاصة لرعاية مئات القطط العمياء والجريحة والمكسورة الأذرع، وبقي هذا في بلاد الشام إلى وقت قريب جدًا.

ويمكن عرض نماذج أخرى متميزة من الأوقاف المختصة، كانت تعبر عن أصول الترابط والتواصل الاجتماعي بين المسلمين، وعن روح الابتكار والإبداع في تأسيس قواعد المجتمع المتمدن. منها:

– وقف «الجهاز»: عين لتجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن.

– وقف «الغاضبات»: يتمثل عمليًا في تخصيص «مأوى» للزوجات، يؤثث البيت بما يلزم من الفراش والماعون، ويعد فيه الطعام والشراب وكل ما يحتاج إليه الساكنون. هذا «المأوى» تقصده زوجة أغضبها زوجها، أو أغضبت زوجها لأسباب عادية كما يحصل بين الأزواج، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من الجفاء وتصفو النفوس، فتعود إلى بيت الزوجية من جديد.

بذلك وقع امتصاص الغضب وتجنب كل ما يمكن أن يحدثه من آثار سلبية، من أجل منع مظاهر التشنج والتوتر في الحياة الزوجية، وحفظ العائلة، وتجنيب الأطفال تلك المشاهد المزرية من الخصام بين الأب والأم، وفي ذلك أيضًا تخفيف من دور القضاء والمحاكم من كثرة الخصومات الزوجية وقضايا الطلاق.

وهذا يكفل تحقيق مقاصد شرعية عديدة تحفظ بها النفوس والأبدان والعقول والأعراض.

– وقف «اللقطاء» نعم المبادرة هي، ونعم العمل هو، ورحم الله أول من فعل ذلك، ومن اتبعه في «سنته».

– وقف «الطرقات»: «أوقاف ذات صبغة عمرانية من أجل تعديل الطرق ورصفها، لأن الأزقة في المدن الإسلامية كانت ذات رصيفين يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بينهما.

– وقف «الحيوانات الضالة»: يتمثل في جمع الحيوانات السائبة والمتشردة، وخاصة منها الكلاب، وأخذها إلى مأوى تجد فيه طعامها وشرابها وأمنها. وبذلك حفظ الناس، وخاصة الأطفال من شرور تلك الحيوانات وحفظ الحيوان من شرور الإنسان. مع ما في ذلك من وقاية من الأمراض والأوبئة وانتشارها ونظافة المحيط من الأوساخ والجيف والروائح الكريهة.

والأبعاد الجمالية والتحسينية بارزة جدًا في هذا الوقف فضلاً عن الضروريات والحاجيات.

يمثل الوقف الخيري على المصالح الاجتماعية أو التعليمية أو الثقافية أو الصحية أسمى درجات النبل ونكران الذات والإنسانية وأرقى أنواع السمو بالإنسان وتحقيق توازنه المادي والروحي. وإن الأوقاف الخيرية في تاريخ المسلمين هي مفخرتهم، وفخرهم الحق أكثر من إنجازاتهم العلمية.

لقد وفر هذا القسم من الأوقاف للأمة المرافق الضرورية والحاجية والتحسينية تبعًا لقصد الواقف ومقدار حاجة المجتمع للمرفق الموقوف عليه.

ساهم الوقف في النهوض بالتعليم والصحة بقدر معتبر، مما جعل بعض الباحثين يعدونه أساس الحضارة الإسلامية.

المراجع

١- أبوعبيد القاسم بن سلام: الأموال، ص٣٥٨، القاهرة ١٩٨١م.
٢- أبو يوسف: كتاب الخراج، ص١٦، المكتبة السلفية، الطبعة ٢، القاهرة ١٩٥٢م.
٣- الراغب الأصفهاني: مفردات القرآن ص٣١٩، طبعة دار المعرفة، بيروت.
٤- تاريخ الطبري: ج٤ ص٦٩، المطبعة الحسينية المصرية، ط١.
٥- الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ج٨، ص٢٠٠، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.
٦- ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار: ص٦٠، طبعة دار الفكر.
٧- الموسوعة الفقهية الكويتية: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت.
٨- وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، طبعة ١٢، دار الفكر، دمشق.
٩- محمد ضيف الله: الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، ص٢٧٣، المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ.
١٠- محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس ص٢٣٦ - طبعة دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧م.

الاتجار بالبشر في التشريع الإسلامي

د.رضا عبدالحكيم إسماعيل رضوان - باحث قانوني

من نافذة التطور الحضاري طلت على المجتمع المعاصر تصرفات غير مشروعة، اصطلح على تسميتها بـ«الاتجار بالبشر»، والتي تمثل في مجموعها انتهاكًا لحقوق الإنسان، وتؤدي إلى الإضرار بالمجتمع.

وفي هذا المقال نتعرف على ممارسات الاتجار بالبشر، والأضرار الناشئة بسببها، وبيان أصول المسؤولية الجنائية عنها في ضوء مبادئ التشريع الجنائي الإسلامي.

إن الاتجار بالبشر عرفته الأمم والشعوب منذ القدم، فقد ساد عند الإغريق والرومان والشعوب الأوروبية القديمة والوسيطة، كما عرفته مصر الفرعونية والفينيقيون، وحضارات بابل وآشور، وغيرها في شرق الأرض ومغربها.

وتمثل العبودية وتجارة الرقيق الجذور التاريخية للاتجار بالبشر الذي يمارس حاليًا.. والرقيق كممتلكات خاصة- إذا صح هذا التعبير- كان مادة التجارة المربحة عند المستعمر الأوروبي في القرون الوسطى، ويذكر أنه مع نهاية القرن الثامن عشر ظهرت أفكار مستنيرة تنبذ هذه التجارة، مما مهد إلى تحريمها وسن قوانين تحظرها.

عرفت العبودية وتجارة الرقيق في بلاد العرب قبل الإسلام، وكان ذلك نظامًا راسخًا في هذه المجتمعات آنذاك، وحينما جاء الإسلام بدأ أولاً بتنظيم حقوق العبيد، ووضع ضوابط تحكم علاقة المالك بالمملوك، مؤثمًا الافتئات على حقوق العبيد. وعلى الرغم من بقاء الرق في المجتمع الإسلامي فإن التطور الحضاري- شأن المجتمعات الأخرى- جعل نظام العبيد وتجارة الرقيق في ذمة التاريخ.

ومن المؤسف أن ترتد البشرية اليوم إلى الاتجار بالبشر، بأشكال وأنماط وأساليب مستجدة متوافقة مع تطور وسائل الحياة المعاصرة.. منها: استغلال النساء والأطفال، واستغلال المهاجرين عبر الأوطان، والاتجار بالأعضاء البشرية، مما دعى المجتمع الحقوقي العالمي إلى التدخل ليحظر الاتجار بالبشر، ولقد بدأت توجهات المجتمع الدولي صوب حظر الاتجار بالبشر وتقرير المسؤولية الجنائية عنه منذ أن اهتمت المحافل الدولية بتأثيم هذا العمل مع أفول القرن التاسع عشر الميلادي، وهذا ما أكدته نصوص الصك العام لمؤتمر برلين لعام ١٨٨٥م، والصك العام لمؤتمر بروكسل لعام ١٩٨٠م، حيث قررت الدول الموقعة ضرورة قمع الاتجار بالأرقاء الأفارقة.

صدر عن عصبة الأمم تقرير عن الاتجار بأعداد كبيرة من النساء والفتيات في الشرق، وأن معظمهن آسيويات.

وجاء في المؤتمر العالمي لاستعراض وتقييم منجزات عقد الأمم المتحدة للمرأة، المساواة والتنمية والسلم، المنعقد في نيروبي، كينيا، ١٥-٢٦ تموز، يوليو ١٩٨٥، أنه ينبغي النظر على وجه الاستعجال في تحسين التدابير الدولية لمكافحة الاتجار بالنساء لأغراض الدعارة.

ومع بداية القرن العشرين صدر العديد من الاتفاقيات الدولية التي نصت على تحريم الاتجار بالبشر، وقد أقرت هذه الاتفاقيات ضرورة تدخل الدول الأعضاء فيها بسن قوانين تعاقب على هذه التجارة غير الإنسانية؛ لما لها من أضرار بالغة تنعكس على الأفراد ومجتمعاتهم، في إشارة واضحة إلى تبني الفكر القانوني الدولي مبدأ المسؤولية الجنائية عن الاتجار بالبشر، وبالفعل كان للمبادئ التي نصت عليها الاتفاقيات صداها في القوانين الوطنية.

صور الاتجار بالبشر

الاتجار بالبشر عمل إجرامي يتخذ أشكالاً مختلفة كثيرة، لما ينطوي عليه من قدرة حركية وقابلية للتكيف

حسب الظروف، كما أنه على غرار كثير من أشكال الأنشطة الإجرامية الأخرى- نشاط دائم التغير لكي يتسنى له إحباط الجهود التي تبذلها سلطات إنفاذ القانون.

ويمارس المتاجرون بالبشر أعمالاً منظمة، تتسم بالإيقاع الحركي السريع واستغلال الظروف المحيطة بالضحايا، من أجل الإيقاع بهم تمهيدًا لاستغلالهم بطريقة تتنافى مع القيم والأخلاق، وتجافي ما جاءت به الوثائق الحقوقية المعنية بحقوق الإنسان.

تتخذ ممارسة الاتجار بالبشر صورًا عدة، لعل أبرزها الاتجار بالنساء والأطفال، واستغلال المهاجرين، والاتجار بالأعضاء البشرية، وجميعها ينصب في مفهوم تسليع الإنسان، أي أن يكون شأنه شأن السلع المادية، يباع ويشترى، ويكون محلًا للمقايضة، ولا اعتبار للكيان الإنساني للشخص محل التصرف، فأمره بيد غيره يتصرف فيه كيفما يشاء.

التفكك الاجتماعي

إن الاتجار بالبشر في جوهره يخرق حق الإنسان الشامل في الحياة والحرية والتحرر من العبودية بجميع أشكالها، كما أن الاتجار بالأطفال يقلل من شأن حاجة الولد الأساسية لينمو في بيئة آمنة، ومن حقه في التحرر من الإيذاء والاستغلال الجنسي.

والاتجار بالبشر يؤدي للتفكك الاجتماعي، ويجعل فقدان شبكات الدعم العائلي والاجتماعي لضحية عملية الاتجار بالبشر أكثر تأثيرًا، مما يجعله أكثر ضعفًا وقابلية للانصياع لتهديدات التجار وطلباتهم. كما أنه يسهم بطرق عدة في تدمير البنى الاجتماعية.. فهو ينزع الأطفال من أهاليهم وأقاربهم، ويمنعهم من النمو الطبيعي والأخلاقي.

تدرجت الشريعة في تقرير المسؤولية الجنائية عن الاتجار بالبشر لصعوبة إلغاء الرق مرة واحدة

ويعوق الاتجار بالبشر انتقال القيم الثقافية والعلم من الأهل إلى الطفل ومن جيل إلى آخر، ما يؤدي إلى إضعاف عمود رئيس من أعمدة المجتمع.

إن الأرباح الناجمة عن عملية الاتجار بالبشر عادة ما تسمح بأن تتجذر الممارسة في مجتمع معين؛ ليصبح فيما بعد مصدرًا جاهزًا لتوفير الضحايا، والضحايا الذين يعودون إلى مجتمعاتهم يجدون أنفسهم موصومين بالعار ومنبوذين، الأمر الذي يتطلب توفير خدمات اجتماعية متواصلة لهم، ومن الأرجح أن ينغمسوا في تعاطي المخدرات وممارسة أنشطة إجرامية.

والاتجار بالبشر يدعم الجريمة المنظمة، حيث تمول الأرباح الناجمة عن الاتجار بالبشر نشاطات إجرامية أخرى..ووفقًا لتقارير للأمم المتحدة، فإن الاتجار بالبشر يعتبر ثالث أكبر المشاريع الإجرامية في العالم، حيث تقدر وارداته السنوية بحوالي ٩,٥ مليار دولار أميركي، حسب وكالات الاستخبارات الأميركية، كما أنه يعتبر أحد أكثر المشاريع الإجرامية ربحًا، ويتصل بشكل وثيق بعملية غسيل الأموال، وتهريب المخدرات، وتزوير الوثائق، وتهريب البشر. كما أن له روابط موثقة بالإرهاب، وحيثما تزدهر الجريمة المنظمة، تضعف الحكومة وقدرتها على تطبيق القانون، والاتجار بالبشر يتلف الصحة العامة، فكثيرًا ما يواجه ضحايا الاتجار بالبشر أوضاعًا وحشية تؤدي إلى صدمة جسدية وجنسية ونفسية، وعادة ما يؤدي الإجبار على البغاء إلى إصابة الضحايا بأمراض جنسية، وبالالتهابات في الحوض وبفيروس نقص المناعة (الإيدز).

وتتمثل الأعراض النفسية العامة التي تصيب الضحايا في القلق والأرق والاكتئاب والإجهاد والاضطراب النفسي، كما تسهم ظروف المعيشة المكتظة وغياب النظافة الصحية وسوء التغذية في انتشار الأمراض، كالجرب والسل وغيرها من الأمراض المعدية، ويعاني الأطفال من مشاكل في النمو والوعي، ما يؤدي إلى نتائج نفسية وعصبية معقدة من الحرمان والصدمات.

الإسلام.. وحقوق العبيد

عرف المجتمع العربي الجاهلي نظام العبيد وتجارة الرقيق، شأن الأنظمة القرينة التي عرفتها شعوب الزمن الغابر، وقد جرى على العبيد والرقيق والجواري عمليات البيع والشراء والمقايضة، وكانت هذه الفئة آلات صماء تخضع لتصرف الأسياد، وكان النظام في حد ذاته جزءًا لا يتجزأ من العلاقات والكيان الاجتماعي آنذاك.

وحينما جاء الإسلام تطلع إلى فئة العبيد، خصوصًا مع تسجيل العديد من المظالم نتيجة الافتئات على حقوقهم الآدمية، وقد تدرجت الشريعة في تقرير المسؤولية الجنائية عن الاتجار بالبشر، خاصة وأن النظام الخاص بالتصرف في العبيد والجواري كان نظامًا

راسخًا يصعب إزالته من المنظومة الاجتماعية.

بادئ ذي بدء فإن الإسلام قد نبذ التفرقة الاجتماعية البغيضة، فنادى بمبادئ العدالة والإيخاء والمساواة، قبل أن تصدر هذه المبادئ عن فلاسفة القانون الوضعي بأربعة عشر قرنًا من الزمان، وهذا واضح من نصوص القرآن الكريم:

قال سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (الزمر: ٦).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار ٦: ٨).

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات : ١٣).

وعلى سند من الكتاب نص رسول لله ﷺ على أول قواعد تكفل حقوق العبيد في مواجهة الأسياد، منها نصه ﷺ على حسن المعاملة، وإلزام السيد بعلاج العبد ورعايته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي علاجه» (رواه البخاري).

وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق» (رواه مسلم).

ونلمح توجيهات المصطفى ﷺ إلى إزالة نظام العبيد وإعادة النظر فيه، من خلال نصوص تحرض على عتق الرقاب، منها:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أيما رجل كانت

كل سعي في هدم المصالح التي جاءت الشريعة بحمايتها جريمة

له جارية فأدبها فأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها فله أجران، وأيما عبد أدى حق الله وحق مواليه فله أجران» (رواه البخاري).

وقال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه» (رواه مسلم).

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها» (رواه البخاري).

المسؤولية الجنائية

بالإضافة إلى القواعد العامة للمسؤولية عن الجرائم المنصوص عليها في الشريعة، أفرد النبي ﷺ نصوصًا خاصة تقر المسؤولية الجنائية عند الافتئات على حقوق العبيد، وإثبات ذلك: نهي رسول الله ﷺ عن ضرب السيد لمملوكه دون أي ذنب اقترفه، وإلا فإن عليه أن يمنحه حريته: «من ضرب غلاما له حدًّا لم يأته، أو لطمه، فإن كفارته أن يعتقه» (رواه مسلم)، كما أوجب نبي الرحمة ﷺ عند ضرب العبد لتأديبه على ما اقترفه من ذنب اتقاء الوجه، لما للوجه من كرامة؛ ولأنه مجمع لب الإنسان.. ففيه كل حواسه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه» (رواه البخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال» (رواه البخاري).

ثم يجيء الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليضع نصوص المصطفى ﷺ موضع التنفيذ، وذلك بتعزير الجاني وعتق رقبة المجني عليه. فمما جاء في سيرة ابن هشام عن الفاروق عمر رضي الله عنه أن جارية جاءت إليه فقالت: إن سيدي اتهمني فأقعدني على النار حتى احترق فرجي، فقال لها عمر: هل رأى ذلك عليك؟ قالت: لا، قال: فهل اعترفت له بشيء؟ قالت: لا، فقال عمر: عليّ به، فلما رأى عمر الرجل قال له: أتعذب بعذاب لله؟ قال: يا أمير المؤمنين اتهمتها في نفسها، قال: أرأيت ذلك عليها؟ قال: لا، قال: فاعترفت لك بشيء؟ فقال: لا، قال: والذي نفسي بيده لو لم أسمع رسول لله ﷺ يقول: «لا يقاد مملوك من مالكه ولا والد من ولده» لأقدتها منك، فبرزه وضربه مائة سوط، وقال للجارية: اذهبي فأنت حرة لوجه لله، وأنت مولاة لله ورسوله.

القانون الوضعي

كان نظام العبيد قد مضى إلى غير رجعة من مجتمعاتنا الإسلامية، إلا أنه- وللأسف- عاد إلى المجتمع البشري بأشكال وممارسات مستجدة، أبرزها الاتجار بالنساء والأطفال، والهجرة غير الشرعية وتجارة الأعضاء، وقد تبنى النظام القانوني الوضعي المعاصر تأثيم هذه التصرفات، وتحديد عقوبات عليها كما سبق القول.

وبتعيير ممارسات تجارة البشر الحالية يتضح تأثيم الشرع لها ووجوب العقاب عليها، والنظام الجنائي الإسلامي يستوعب ذلك.

إن الجريمة في اصطلاح فقهاء الشريعة، لا تخرج عن مضمون ما

ذكره الماوردي رحمه الله، وقد قال في تعريفها أنها: محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير.

وتعد ممارسات الاتجار بالبشر- في حدود ما شرحه فلاسفة القانون وسنته أنظمتهم الوضعية- من قبيل المحظورات الشرعية التي تستأهل العقاب عليها.

أ- جرائم الاعتداء على الدين.

ب- جرائم الاعتداء على النفس.

ج- جرائم الاعتداء على العقل.

د- جرائم الاعتداء على النسل.

هـ- جرائم الاعتداء على المال.

وهكذا كان أساس حظر الاتجار بالبشر أن ممارساته تصادر- لا مناص- مقاصد الشريعة، وهي الضرورات الخمسة، فهذه مصالح اعتبر الشارع كل اعتداء عليها جريمة.

وبناء على ذلك فإن كل سعي في هدم المصالح التي جاءت الشريعة بحمايتها، أو جلب المفاسد التي جاءت الشريعة بدفعها، سعي في مصادمة الشريعة في أحكامها ومقاصدها، وإعاقة لمساعيها في تحقيق غاياتها وأهدافها، ومن ثم فهو جريمة يستحق فاعلها العقوبة الزاجرة والرادعة، من هنا دخل الاتجار بالبشر نماذج التجريم في شريعتنا.

عقوبة الاتجار بالبشر

قسم فقهاؤنا الجرائم- بالنظر إلى العقوبة المقررة شرعًا على اقتراف الجريمة- إلى:

أ- جرائم شرع لها الحد زجرًا لمرتكبها وردعًا لغيره، وهي محددة بمقتضى نصوص شرعية قاطعة جريمة وعقوبة. وهذه الجرائم تتمثل في الردة والحرابة (أو قطع الطريق) وفعل الفاحشة (أو الزنى) والسرقة، والقذف وشرب المسكر.

ب- جرائم شرع لها القصاص، وهي المتمثلة في الاعتداء على النفس «بالقتل أو بقطع طرف، أو إذهاب منفعة من منافع الجسد، أو كسر أو جراحة، أو ضرب».

ج- جرائم شرع لها التعزير، وهي الجرائم الأخرى التي لم يضع الشارع الحكيم لها قدرًا معينًا من العقوبة، بل ترك أمرها لولي الأمر أو السلطة الحاكمة لتقرر لها العقوبة المناسبة.. وهو مقرر على كل جريمة خارج نطاق الجرائم التي شرعت لها الحدود أو القصاص.

والاتجار بالبشر- بحسب التكييف الشرعي لتصرفاته- يقع ضمن نطاق الجرائم التي شرع لها التعزير.

والتعزير: تأديب إصلاح وزجر على ذنوب لم تشرع فيها حدود ولا كفارات، والذي ثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة والإجماع.

وهكذا ضمنت القواعد الشرعية المرنة حقوق الإنسان في كل زمان ومكان، فرغم حداثة جرائم الاتجار بالبشر فإن الشريعة استوعبت هذه التصرفات تجريمًا وتأثيمًا.

وأخيرًا تقسم العقوبات التعزيرية التي يجوز توقيعها على مجرمي الاتجار بالبشر إلى:

عقوبات بدنية، وهي العقوبات التي تقع على جسم الإنسان، كالجلد والحبس.

عقوبات مالية: وهي العقوبات التي تصيب مال الشخص، كالغرامة، والمصادرة.

عقوبات نفسية: وهي العقوبات التي تقع على نفس الإنسان دون جسمه، كالوعظ والتوبيخ والهجر.

إن الإسلام لا يمنع إصدار قوانين خاصة للتعريف بجرائم الاتجار بالبشر، بيد أن ثمة قيدًا على منظمي القوانين، وهو تطبيق القواعد الشرعية في مواد التعزير بحسب نص الفقهاء.

المراجع

- ممدوح عبدالحميد عبدالمطلب، الاتجار بالبشر، البحوث الأمنية مركز البحوث والدراسات بكلية الملك فهد الأمنية، المجلد ١٥، العدد ٣٤، شعبان ١٤٢٧ هـ- سبتمبر ٢٠٠٦م، ص ٨١ إلى ١٣١.
- السيد الطاهر فلوس الرفاعي، جرائم الاتصال بالبشر وسبل التصدي لها، وثائق المؤتمر الخامس والعشرين لقادة الشرطة والأمن العرب، تونس ٢٢-٢٤ أكتوبر ٢٠٠١م، مجلس وزراء الداخلية العرب.
- د.أحمد سليمان الزغاليل، الاتجار بالبشر والأطفال، دراسة ضمن بحوث ندوة الظواهر الإجرامية المستحدثة وسبل مواجهتها، التي عقدت في أكاديمية نايف العربية بالرياض بالسعودية ١٩٩٩.
- حلا محمد سليم زودة، الاتجار بالنساء بقصد البغاء، دراسة تأصيلية مقارنة، البحوث الأمنية، مركز البحوث والدراسات بكلية الملك فهد الأمنية، المجلد ١٩، العدد ٧ ذو الحجة ١٤٣١هـ، نوفمبر ٢٠١٠م.
- دي ستووب، كريس (١٩٩٧م): تجارة النساء في أوروبا، ترجمة ربي النحاس، الأهالي للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى.
- ناشد، سوزي (٢٠٠٨م): الاتجار في البشر بين الاقتصاد الخفي والاقتصاد الرسمي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، الطبعة الأولى.
- عبدالرحمن بن سليمان الربيش، التعزير بالعقوبات النفسية، مجلة البحوث الأمنية المجلد٢٠- العدد ٤٨ ربيع الآخر ١٤٣٢هـ- مارس ٢٠١١م.
- د.عبدالله بن محمد نوري الديرشوي، الجريمة وضوابطها في الفقه الإسلامي، مجلة البحوث الأمنية مجلد ١٨- العدد ٤٢ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ-أبريل ٢٠٠٩ م ص٩٦: ١١١.
- البخاري، محمد بن إسماعيل د.ت: صحيح البخاري، مركز الشرق الأوسط الثقافي، بيروت الطبعة الأولى.
- ابن هشام، عبدالملك بن هشام ٢٠٠٤م: السيرة النبوية، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- عودة، عبدالقادر، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان ط١٤، ١٤٢١هـ.
- أبو الوفا، أحمد، الحماية الدولية لحقوق الإنسان، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ.
- الماوردي، أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

حوادث السير في ضوء الشريعة الإسلامية

د. سيد حبيب - باحث دراسات إسلامية

حوادث السير: المقصود بها «جميع الحوادث التي ينتج عنها أضرار مادية أو جسمية من جراء استعمال المركبة»(١)، أما الضرر فهو: «الإخلال بمصلحة مشروعة للنفس أو الغير، تعديًا أو تعسفًا وإهمالاً»(٢)، وأما مصطلح الضمان الذي سيأتي ذكره فهو: «عبارة عما يلتزمه الإنسان في ذمته من المال المثليّ»، أو هو: «تشغيل الذمة جبراً للضرر»(٣)، والأصل في الشريعة الإسلامية أنه لا يجوز لأحد أن يفعل فعلاً يضر بآخر، فإن أضر بفعله أحدا، فالأصل أنّه ضامن -إلّا في حالات خاصة.

والدليل على هذا الأصل من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبياء: ٧٨-٧٩). والنفش: هو الرعي بالليل بغير راع. وفي القصة التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة دليلٌ على أن الذي يحدث ضررًا بنفس الآخر، أو بماله، فإنه يضمن له ذلك الضرر (٤). وأما من السنة، ففي حديثين، وهما: قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضِرار» أخرجه ابن ماجه وغيره، وصححه الشيخ الألباني (٥)، والآخر أنه جاء عن حرام بن سعد بن محيصة رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفضها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها».

وهذا الحديث من أصرح الأدلة على أن من سبّب ضرراً لآخر، فإنه ضامن لما أصابه (٦).

واستناداً إلى ما سبق فإن من أضرّ بغيره يجب عليه إزالة عين الضرر، ويُعاد الحال إلى ما كان عليه قبل هذا الضرر إن أمكن، وأما حيث لا يمكن إزالة عين الضرر، فهو مسؤول تجاه المضرور بضمان هذا الضرر، وذلك وفق قواعد محدودة لتلك المسؤولية كالتالي:

أ- فإن كان الضرر يتعلق بالأموال فالواجب الضمان بالمثل إن كان مثليًا، أو القيمة إن لم يكن له مثل.

ب- وإن كان الضرر يتعلق بالأمور المعنوية مثل ما إذا أصيب الإنسان في عرضه نتيجة قذفه أو سبّه ونحو ذلك، فالضمان في هذه الحالة فيما قرره الشرع من حدّ القذف أو التعزير وغيرهما.

ج- أما إذا كان الضرر يتعلّق بالنفوس، فإن الواجب بالضمان يتمثل فيما قرره الشرع من مقادير الديات والأروش

المقدرة، أو الحكومة في الأروش غير المقدرة (٧).

ثالثاً: بعض القواعد الفقهية المتعلقة بالضرر والضمان:

من أهم القواعد التي ذكرها العلماء في الضرر والضمان ما يأتي:

١- لا ضرر ولا ضرار، أي: أن الضرر والضرار ثابت منعه في الشريعة الإسلامية، وما أدى إليهما فهو ممنوع شرعاً.

٢- الضرر يزال، أي: أن الضرر اللاحق بالغير يجب إزالته، سواء إزالة عينه أو بضمانه كما تقدم، (الضرر لا يزال بضرر مثله).

٣- ما جنت يد الإنسان خطأ فإنه يضمنه في ماله، فإن كان دمًا فعلى عاقلته تسليماً للسنة المجتمع عليها.

٤- كل جان جنايته عليه إلّا ما قام الدليل خلافه.

٥- قاعدة: أسباب الضمان أربعة:

أحدها: العقد، الثاني: اليد المؤتمنة، الثالث: الإتلاف نفسًا ومالاً، ويتعلق الحكم بالمباشر دون السبب، الرابع: الحيلولة (٨).

٦- المرور في طريق العامة مباح بشرط السلامة، أي: أن السير في طريق العامة حق لكل إنسان بشرط أن لا يحدث ضرراً بغيره فيما يمكن التحرز منه.

٧- المباشر ضامن وإن لم يكن متعدياً، أي: أن من باشر الإضرار بالغير فهو ضامن للضرر الواقع بالمضرور، وإن لم يكن المباشر متعديا، كنائم ينقلب على آخر فيقتله، فعليه الدية.

٨-المسبب ضامن إن كان متعديا.

٩-إذا اجتمع المباشر، والمتسبب، أضيف الحكم إلى المباشر.

واستثني من هذه القاعدة أمران:

الأول: إذا كان تأثير المسبب أقوى من تأثير المباشر أضيف الحكم إلى المسبب.

الثاني: إذا كان المسبب متعديًا والمباشر غير متعد.

١٠- الجواز الشرعي ينافي الضمان، أي: أنه إذا أضر شخص أحدًا بفعل

الأصل في الشريعة الإسلامية أنه لا يجوز لأحد أن يفعل فعلاً يضر بآخر

جائز شرعًا ومباح، فليس عليه ضمان ما يترتب على ذلك الفعل، وذلك في ممارسة حق من الحقوق المطلقة التي لا تتقيّد بالسلامة، كالمصلي في المسجد في بقعة منه فإنه لا يضمن ما يعطب به.

١١- الاضطرار لا يبطل حق الغير.

١٢- الخراج بالضمان.

١٣-جناية العجماء جبار.

١٤-لا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك الغير بلا إذنه.

١٥-لا يجوز لأحد أخذ مال أحد بلا سبب شرعي.

١٦-إذا تعذّر الأصل يصار إلى البدل.

١٧- يضاف الفعل إلى الفاعل لا الآمر، ما لم يكن مجبرًا (٩).

رابعًا: ضمان المباشر والمتسبب:

والمباشر هو: الذي يحصل التلف بفعله من غير أن يتخلل بين فعله والتلف فعلُ مختار.

والمتسبب هو: الذي يحصل التلف بفعله ويتخلل بين فعله والتلف فعلُ مختار (١٠).

ويمكن حصر أسباب الضمان في ثلاثة:

١- إلزام الشارع: ومن ذلك: جزاء صيد الحرم البري المأكول، وكفارات الحنث في الأيمان، والإفطار عمدًا في رمضان، والعود في الظهار، وغيرها.

٢-الالتزام بالعقد: أن يكون شغل الذمّة بسبب اتفاق الطرفين المتعاقدين.

٣- الإضرار أو(الفعل الضار): وهو باعتبار محله قسمان: فعل ضار واقع على الإنسان، وفعل ضار واقع على ما سواه من الحيوان والأشياء (١١).

قال الشيخ عز الدين بن عبدالسلام: «يجب الضمان بأربعة أشياء: اليد، والمباشرة، والتسبب، والشروط» (١٢).

وفي بيان ضمان المباشر والمتسبب، يقول ابن رجب -رحمه الله- في القواعد: «إذا استند إتلاف أموال الآدميين ونفوسهم إلى مباشرة وسبب، تعلق الضمان بالمباشرة دون السبب، إلّا أن تكون المباشرة مبنية على السبب ناشئة عنه، سواء كانت ملجئة إليه أو غير ملجئة، ثمّ إن كانت المباشرة والحالة هذه لا عدوان فيها بالكلية استقل السبب وحده بالضمان، وإن كان فيها عدوان شاركت السبب في الضمان» (١٣).

فهنا ثلاثة أقسام:

الأول: أن لا تكون المباشرة مبنية على السبب فالضمان على المباشر.

مثاله: إذا حفر شخص بئرًا عدوانًا (متسبب)، ثمّ دفع غيرُه (مباشر) فيها آدميًا معصوماً فمات، فالضمان على الدافع وحده (المباشر).

الثاني: أن تكون المباشرة مبنية على السبب، والمباشرة لا عدوان فيها بالكلية فالضمان على المتسبب.

مثاله: إذا قدّم شخص إلى آخر طعامًا مسمومًا عالمًا به (متسبب)، فأكله وهو لا يعلم بالحال (مباشر)، فالقاتل هو المقدّم (المتسبب)، وعليه القصاص والدية.

الثالث: أن تكون المباشرة مبنية على السبب، والمباشرة فيها نوع عدوان، فالضمان مشترك.

مثاله: الممسك مع القاتل، فإنهما يشتركان في الضمان والقود على إحدى الروايتين.

وبالنظر في موضوع ضمان المباشر والمتسبب يتبيّن أن التقسيم رباعي، ضمان المباشر، ضمان المتسبب، اجتماع المباشر والمتسبب في الفعل، وإضافة الحكم إلى المباشر، ضمان المتسبب والمباشر معاً، وتفصيل ذلك كالتالي:

١- ضمان المباشر:

وهو الذي يحصل الضرر بفعله بلا واسطة، أي دون تدخل فعل شخص آخر مختار.

ويكون هو الضامن إذا كان السبب لا

ينفرد بالإتلاف إذا ترك وحده بدون مباشرة، أي أنه كان هو المؤثر الأقوى في إحداث الضرر، ودور السبب ضعيف إذا قورن به.

كحفر البئر؛ فإنه بانفراده لا يوجب التلف ما لم يوجد الدفع الذي هو المباشرة، وإن كان لولا الحفر لا يتلف بالدفع (١٤).

٢-ضمان المتسبب:

والمتسبب هو الذي يحصل التلف بفعله، ويتخلل بينه وبين فعل التلف فعل فاعل آخر، ويضمن المتسبب أثر فعله بشرطين:

أ- إذا كان متعديًا، والتعدي: هو فعل السبب بغير حق، سواء أكان متعمدًا الضرر أم لا يقصد الضرر.

ب- وإذا كان هو العامل الأهم في إحداث الضرر، بأن تأثيره أقوى من تأثير المباشر.

ومن الأمثلة على ذلك: من حفر بئرًا فسقط فيها رجل، فالحافر مسبب لسقوطه، فيضمن إن كان متعديًا في الحفر، وإن لم يكن متعديًا فلا ضمان عليه (١٥).

٣-إذا اجتمع المباشر والمتسبب، يضاف الحكم إلى المباشر.

مثاله: لو حفر رجل بئرًا في الطريق العام بلا إذن ولي الأمر، فألقى أحد حيوان شخص في تلك البئر، ضمن الذي ألقى الحيوان، لأنه العلّة المؤثرة ولم يتخلل بين فعله والتلف فعل فاعل مختار، دون حافر البئر، لأنه وإن كان فعله مفضيًا وموصلاً إلى التلف، إلّا أن التلف لم يحصل بفعله، بل تخلل بين فعله والتلف فعل فاعل مختار، وهو مباشر الإلقاء بلا واسطة، فكان الضمان عليه (١٦).

٤-ضمان المتسبب والمباشر معًا:

يضمن المتسبب والمباشر بالاشتراك معًا، إذا كان السبب يعمل في الإتلاف إذا انفرد عن المباشرة، كالسوْق مع الركوب، فإن المباشر والمتسبب يشتركان حينئذ في ضمان ما تتلفه الدابة، لأن السائقَ وإن كان متسببًا، والراكب وإن كان مباشرًا، فإن السبب هاهنا وهو السوْق،

طاعة ولي الأمر فيما ينظمه من إجراءات، بناء على دليل المصالح المرسلة واجب شرعا

يعمل في الإتلاف إذا انفرد عن الركوب فيضمنان بالسوية (١٧).

خامساً: مسؤولية السائق:

الأصل أن سائق السيارة مسؤول عن كل ما يحدث بسيارته خلال تسييره إياها، وذلك لأن السيارة آلة في يده، وهو قادر على ضبطها، فهو ضامنٌ لكل ضررٍ ينشأ عن سيارته.

فإذا كان السائق متعديًا في سيره بمخالفة قواعد المرور فلا خفاء في كونه ضامنًا، لأن الضرر إنما نشأ بتعديه، والمتعدي ضامنٌ في كل حال، أما إذا لم يكن السائق متعديًا في السير، بأن ساق سيارته ملتزماً بجميع قواعد المرور فهل يضمن الضرر الذي أصاب رجلاً آخر في هذه الحالة؟ قد اختلفت فيها أنظار العلماء، فمنهم من يقول: إنه يضمن لكونه مباشرًا، والمباشر يضمن، ولو لم يكن متعديًا، ومنهم من يقول: لا يضمن، لأن ما يحث بعد الالتزام بقواعد المرور حادثة سماوية لا يمكن الاحتراز عنها، والمباشر إنما يضمن فيما يمكن الاحتراز منه (١٨).

هذا وقد استنتجت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية من أقوال الفقهاء السابقين أحكامًا متعددة تحدد مسؤولية السائق، وسيأتي بعضها في آخر البحث.

سادساً: بعض نصوص الفقهاء المتقدمين عن حوادث السير ووسائل النقل في عصرهم.

من وسائل النقل عند المتقدمين: السفن، الجمال، والبغال، والخيل، والحمير، والبقر في بعض البلدان.

ومن نصوص الفقهاء المتقدمين في ذلك:

١-قال الكاساني: «إذا اصطدم فارسان فماتا، فدية كل واحد منهما على عاقلة الآخر في قول أصحابنا الثلاثة، وعند زفر على عاقلة كل واحد منهما نصف دية الآخر، وهو قول الشافعي...» (١٩).

٢-وفي المدونة: «قلت: أرأيت من قاد دابة فوطئت بيديها أو برجليها، أيضمن القائد ما أصابت في قول مالك؟ قال نعم، قلت: أرأيت السائق، أيضمن ما أصابت الدابة في قول مالك؟ قال: نعم، يضمن ما وطئت بيديها أو رجليها...

قلت: أرأيت إذا اصطدم فارسان فقتل كل واحد منهما صاحبه؟ قال: قال مالك: عقل كل واحد منهما على قبيل صاحبه، وقيمة كل فرس منهما في مال صاحبه.

قلت: أرأيت لو أن سفينة صدمت سفينة أخرى فكسرتها ففرق أهلها؟ قال: قال مالك: إن كان ذلك من الريح غلبتهم، أو من شيء لا يستطيعون من حبسها منه، فلا شيء عليهم، وإن كانوا لو شاؤوا أن يصرفوها صرفوها فهم ضامنون» (٢٠).

٥-قال أبو إسحاق الشيرازي: «وإن كان معه دابة، فأتلفت إنسانًا أو مالاً بيدها أو رجلها أو نابها، أو بالت في الطريق فزلق ببولها إنسان فوقع ومات، ضمنه، لأنها في يده وتصرفه، فكانت جنايتها كجنايته.

وإن وقف رجل في ملكه، أو في طريق واسع، فصدمه رجل فماتا، هدر دم الصادم؛ لأنه هلك بفعل هو مفرط فيه، فسقط ضمانه...

وإن اصطدم فارسان أو راجلان وماتا، وجب على كل واحدٍ منهما نصف دية الآخر...

فإن اصطدمت سفينتان، وهلكتا وما فيهما، فإن كان بتفريط من القيّمين، بأن قصرا في آلتهما، أو قدرا على ضبطهما فلم يضبطا، أو سيرا في ريح شديدة لا تسير السفن في مثلها، وإن كانت السفينتان وما فيهما لهما، وجب على كل واحد منهما نصف قيمة سفينة صاحبه، ونصف قيمة ما فيها، ويهدر النصف، وإن كانتا لغيرهما، وجب على كل واحد منهما نصف قيمة سفينته، ونصف قيمة

ما فيها، ونصف قيمة سفينة صاحبه، ونصف قيمة ما فيها... » (٢١).

مسألة: قال: «وإذا وقعت السفينة المنحدرة على المصاعدة فغرقتا، فعلى المنحدرة قيمة السفينة المصاعدة، أو أرش ما نقصت إن أخرجت، إلّا أن يكون قيّم المنحدرة غلبته الريح، فلم يقدر على ضبطها».

سابعاً: أقوال علماء العصر في حوادث السير ووسائل النقل الحديثة.

١- قال الدكتور عبد الرحمن حسن النفيسة: «سائق السيارة الذي تجاوز في قيادته للسيارة السرعة المحددة مما أدى إلى قتل شخص كان يمر في الطريق العام، حكم فعله هذا يعد جناية خطأ ما دام أنه لم يكن عامدًا لما فعل، وهو مكلف فقط بدفع دية المقتول خطأ؛ لانتفاء قصد العمد من فعله.

أما بالنسبة لطيشه وتجاوزه السرعة المحددة، فتطبق عليه أنظمة المرور في مثل هذه الحال، إما بسحب رخصة القيادة منه، أو تغريمه، أو سجنه»(٢٢).

٢- قال الدكتور عبدالله محمد عبدالله: «إن التصادم وما ينتج عنه من حوادث السير هو من قبيل الخطأ، وتجب الدية في الأنفس والأطراف، وضمان المتلفات من الأموال» (٢٣).

ثامناً: بعض الفتاوى في ذلك:

قد أعدت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بحثًا في موضوع حوادث السيارات، وبيان ما يترتب عليه بالنسبة لحق الله وحق عباده، وضمنته ما يأتي:

١- تصادم سيارتين مثلاً، أو صدم إحداهما الأخرى، وبيان ما يترتب على ذلك من أحكام.

٢- حوادث دهس السيارات وانقلابها، أو سقوط شيء منها على أحد، أو قفز أحد ركّابها، أو تعلّق أحد بها، وما يترتب على ذلك من أحكام.

٣- بيان ما يترتب على حوادث السيارات من العقوبات لمخالفة نظام المرور ونحوه، مما يسبب وقوع الحوادث.

٤- توزيع الجزاء على من اشتركوا في وقوع حادث بنسبة اعتدائهم أو خطئهم (٢٤).

ومن فتاوى اللجنة الدائمة في حوادث السيارات ما يلي:

١/ سؤال: وقع حادث اصطدام بسيارة، وتوفي نتيجة هذا الحادث شخصان، وكانت نسبة الخطأ بتقدير المرور ٣٥٪ عليّ، و٦٥٪ على صاحب السيارة الأخرى...

الجواب: إذا كان الواقع ما ذكر من مشاركتك في التسبب في وفاة الشخصين فإنه يلزمك كفارة قتل الخطأ عن كل واحد منهما، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن لم تجد فصيام شهرين متتابعين، ولا يكفي عن ذلك أن تطعم مساكين أو تدفع نقودًا، لأن الله لم يذكر غير العتق والصيام في كفارة القتل خطأ، وما كان ربك نسيا (٢٥).

٢/ سؤال: إني كنت أسير بسيارتي في طريق الكباري بالرياض، وفجأة خرج علي رجل وقطع الطريق عليّ، ولم أستطع التصرف تفادياً لسلامته، لأنه فاجأني والسيارة تسير، فحدث دهس نتج عنه وفاة المذكور...

الجواب: إذا كان الواقع كما ذكر، فعليك كفارة القتل الخطأ (٢٦).

٢- قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي بشأن (حوادث السير):

أ- إن الالتزام بتلك الأنظمة التي لا تخالف أحكام الشريعة الإسلامية واجب شرعًا، لأنه من طاعة ولي الأمر فيما ينظمه من إجراءات، بناء على دليل المصالح المرسلة، وينبغي أن تشتمل تلك الأنظمة على الأحكام الشرعية التي لم تطبق في هذا المجال.

الهوامش

١- انظر: حوادث المرور(٣٢).
٢- انظر: الضرر في الفقه الإسلامي (٩٧/١).
٣- انظر: الضرر في الفقه الإسلامي(٩٨٣/٢)، أحكام الضمان للدكتور سيد عواد علي عواد(٢٥).
٤- انظر: تفسير ابن كثير(١٨١/٣).
٥- انظر: صحيح سنن ابن ماجه(٣٩/٢ برقم١٨٩٥).
٦- انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي(ع٨/١٧٨-١٨٠).
٧- انظر: قواعد ومسائل في حوادث السير، للعثماني، ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي(ع٨/١٧٨-١٨٠).
٨- الأشباه والنظائر للسيوطي(٣٦٢). وانظر: قواعد ابن رجب(٣١٦/٢).
٩- انظر: شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقاء، المدخل الفقهي العام، الباب العاشر: القواعد الكلية في الفقه الإسلامي للشيخ مصطفى أحمد الزرقاء، نظرية الضمان للدكتور محمد فوزي فيض الله ص(٢١٣)، الفقه الإسلامي وأدلته(٣٧١/٦). قواعد ومسائل في حوادث السير للعثماني ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي (١٨١/٢/٨- ١٩٤).
١٠- انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي(١٨٩/٨).
١١-انظر: نظرية الضمان للدكتور محمد فوزي فيض الله، ٢١، ٢٥، ٧١.
١٢- قواعد الأحكام في مصالح الأنام،٣٠١.
١٣-القواعد لابن رجب(٥٩٧/٢)، وانظر: الأشباه والنظائر للسيوطي (١٦٢).
١٤- انظر: شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء ٤٤٨، الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور الزحيلي ٣٧٥/٦، قواعد ومسائل في حوادث السير للقاضي العثماني، ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي ع١٨٤/٨. وحوادث السير للدكتور عبدالله محمد، ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي ع٢١٧/٨.
١٥- انظر: شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء ٤٤٧، الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور الزحيلي ٣٧٤/٦، قواعد ومسائل في حوادث السير للعثماني، ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي ع١٩٠/٨-١٩١.
١٦- انظر: شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء ٤٤٧.
١٧- انظر: شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء ٤٤٨، الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور الزحيلي ٣٧٦/٦.
١٨- انظر: قواعد ومسائل في حوادث السير للعثماني، ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي(ع١٩٥/٨-١٩٦)، حوادث السير للدكتور عبدالله محمد، ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ع٢١٤/٨).
١٩- بدائع الصنائع (٢٧٣/٧).
٢٠- المدونة ٦٦٥/٤-٦٦٦.
٢١-المهذب ٩١،٩٣/٥ باختصار.
٢٢- انظر: مجلة البحوث الفقهية المعاصرة ع٢١٩/٣٠.
٢٣- انظر: حوادث السير للدكتور عبدالله، ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي ع٢٣١/٨.
٢٤- انظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢٦، ص٢٧-٧٧.
٢٥- فتاوى إسلامية (١٣٩،١٤١/٣).
٢٦-المصدر السابق(١٤٠/٣).

الأمثال العامية بين الثقافة الموروثة وبين العقيدة الصحيحة

رشيد ناجي الحسن
باحث دراسات إسلامية

ثمّةَ من قال: «الأمثال مصابيحُ الأقوال».

كلام جميل، بيّدَ أنّ بعض الأمثال ظُلَمٌ طامس، وظلام دامس، لأنّه نتاج بشريّ، كالإنسان هو: صادق كاذب، قادر عاجز، عظيم حقير. وقد قيل: الأمثال مصيب أو مصيبة.

وبعض الأمثال هي تعبير موجز بليغ عن تجربة مرت بها شريحة مجتمعية، فهي حكمتهم وفلسفتُهم التي تعكس أحاسيسَهم ومشاكلَهم، وتعبر عن همومهم، وبعض الأمثالُ الأخرى من أشرف ما وصلَ به اللبيبُ خطابَه، وحلّى بجواهره كتابَه، وقد نطق كتابُ الله تعالى وهو أشرفُ الكتب المنزلة بكثير منها، وكانت الأمثالُ في القرآن الكريم من البيئة، ومن واقع الحياة الاجتماعية والثقافية في المجتمع المكي، ولم يخلُ كلامُ نبينا محمد ﷺ من الأمثال، وهو أفصحُ العرب لسانا، وأكملُهم بيانا، فكم في إيراده

وإصداره من مثل، يَعجَز عن مباراته في البلاغة كلُّ بطل.

أهمية الأمثال:

تعدُّ الأمثال من أكثر الفنون القولية تداولا وانتشارا بين الناس، لتميزها بالبساطة والتكثيف والاختصار، يقول علماء الأمثال: (يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة).

والحِكَمُ والأمثالُ توارثها العربُ جيلًا بعد جيل ودخل عليها من حِكَمِ الامبراطوريات والأمم السابقة الكثير، وقد أُلف فيها الكثيرُ من الكتب منها: أمثالُ العرب للمفضل الضبي، والأمثالُ لأبي مُفرج السدوسيِّ، وجمهرةُ الأمثال للعسكَري، ومَجْمعُ الأمثال للميداني، والمستقصى في أمثال العرب للزمخشري.

إلا أنَّ اللغة العامية جَعلت هذه الأمثال تعيشُ فقط بين المطويات والمجلدات، ولا يتعاطاها إلا القليلُ من المثقفين، ويُستثنى منها الحِكَمُ التي راجت على ألسنة العامة.

هذا وللأمثال دور كبير في شؤون التربية وتوضيح الأمور للإنسان، فهي تُشجعه على العديد من الخصال الحميدة، وفي نفس الوقت تحذره من كثير من السلوكيات السيئة، بطريقة تعتمد التوجيه والإرشاد، فمن خلال الاطلاع على بعض الأمثال نلاحظ أنَّ منها ما يدعو إلى تربية الأبناء تربية حسنة ورعايتهم، كي لا يصبحوا عُرضة للانحراف والضياع،

ومنها أيضا ما يدعو إلى طلب العلم والمعرفة وتجنب السلوكيات والعادات القبيحة في التصرف والمعاملة.

كما سعت الأمثالُ إلى تزويد الفرد بالخصالِ التي تُكسبه الاحترام بين أفراد الجماعة التي ينتمي إليها، وتوجيهه نحوَ الكلمة الطيبة التي تزيد من احترامهم له، وذلك بالابتعاد عن الثرثرة وفضول الكلام.

من هنا تَبرز أهمية البحث في الأمثال الشعبية للوقوف على ما احتوته تلك الأمثالُ من قيم وما تضمنته من مضامينَ تربوية واجتماعية، والوقوف على التناقضات في بعض الأمثال، وكذا التعرف على بعض الاستعمالات السيئة، أو قُل الاستعمالات غير المقصودة للأمثال، وترديد بعضها دونَ العلمَ أنها تتنافى مع عقيدتنا ومبادئ إسلامنا الحنيف، كالمثل القائل: «كل مين على دينه الله يعينه»، وكذلك الأمثالُ التي تدعو إلى الأنانية وحبِّ الذات فقط، كالمثل القائل: (ألف أم تبكي ولا أمي تبكي)، أو: أسألك ياربِّ نفسي.

الأمثال العامية في ميزان الشرع:

الأمثال قد تكذب فتُرد، وقد تصدقُ فتوضعُ في مكانها الصحيح.

ولقد كان المنهج النبوي في تحقيق الغاية الشرعية منهجاً متكاملاً جديراً بالوقوف معه، والتأمل فيه، ليستفيد الدعاة من الهدي النبوي في تربيتهمُ الناسَ على مكارم الأخلاق، وفاضلِ السلوك، هذا المنهج هو: التخلية والتحلية:

ولقد عَمَدَ النبي ﷺ إلى أسلوب بديع في إصلاح أخلاق قومه، وهو ما يصح أنْ يطلق عليه (التخلية والتحلية)، حيث كان يُخلِّي ويفرِّغُ الأمثال والعبارات التي تدور على ألسنة الناس من مضامينها الفاسدة، ثم يقومُ بتحليتها بالأخلاق الإسلامية الحسنة، ومن أمثلة ذلك: تغييرُه ﷺ لمضمون العبارة (انصر أخاك ظالما أو مظلوماً)، فقد كانت العرب تعني بها الوقوف إلى جانب القريب، ولو كان على الباطل، فأفرغَ النبي ﷺ هذا اللفظ من معناه الفاسد، وحلاه بمعنىً صحيح حسن، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، فقال رجل: يا رسول الله، أنصُرُه إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما، كيف أنصره؟! قال: (تحجزه - أو: تمنعه - من الظلم، فإن ذلك نُصْرَة).

وبهذا غيَّر النبيُّ ﷺ القالَب وأبقى على القالب، وكذا في قوله: (ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب).

فبهذه العبارات الموجزة غيَّر النبي ﷺ مفاهيمَ طالما كانت لها آثارُها المدمرة في ذلك المجتمع، من الحروب وغيرها، فالرغبةُ في الاتصاف بالقوة وشدة البأس كانت طاغيةً عند العرب، وشعْرُهم وأيامُهم أكبرُ دليل على ذلك، فيحوِّل النبيُّ ﷺ أنظارَهم إلى معنىً آخرَ للشدَّة، هو العكس تماماً للمفهوم الأول، الذي يدعو للبطش بالآخرين، إظهاراً للقوة، وتفاخراً بسرعة الغضب.

كما ردَّ النبيُّ ﷺ كثيراً من أقوال العرب ومصطلحاتهم وأمثالهم وأسمائهم مثلَ نهيه عن سبِّ الدهر، وما أكثرَ ما يُسبُّ إلى اليوم شعرًا ونثرًا، ونهى عن أسماء تدل على الصلاح، وأسماء تدل على ما دون ذلك، بل ونهى عن تسمية العنب كرمًا، ونهى أن تسمى صلاةُ العشاء صلاةَ العَتَمَة.

وما أريد قولَه في موضوع الأمثال هو أنَّ علينا الحذرَ من التعميمات المبسطة حول بعض القيم والأمثال، والتي يعود سببُها إلى عدة أمور، منها: النظرُ إلى الأمثال دونما اهتمام مماثل بالسلوك في الواقع اليومي، ومنها: تجاهلُ تلك الأمثال التي تتناقض مع بعضها البعض. ولبيان حقيقة الأمر أقول:

الأمثال العامة تقال في مناسبات محددة للتدليل على فكرة أو ظاهرة، وفي سبيل البلاغة والاقتضاب، وهي عادةً جُملٌ تقترح مسلكا ما في بعض الحالات، أو تُصدر حكما عابرا، أو

تصفُ حقيقةً ما، أو تسخر من سلوك أو شخص معين، أو تُعبِّر عن وجهة نظر تجاهَ مسائلِ الحياة اليومية العملية، أو قواعدَ سلوكية وإرشادات عامة، وبسبب اتصالها الوثيق بالمناسبات تُقال في بعض الظروف، وقد تفسر تفسيرات مختلفة، وقد يكون لها مدلولاتٌ متنوعة، وقد تتناقضُ مع أمثال أخرى.

أمثال ناقضت أمثالا

على سبيل المثال هناك بعض الأمثال التي تتصل بالعائلة والقرابة: مثل: أنا وأخي ع ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب، أو: اللي فيه نقطة من دمك ما بيخلى من همك.هذه الأمثال تتناقض مع الأمثال التالية: الأقارب عقارب، أو: أهلك اللي اشتروك مو أهلك اللي باعوك، يعني أهلك هم من أنقذك من المشاكل، أو: البغض بين الأقارب والحسد بين الجيران. فماذا نقول في هذا التناقض: هل نقول في الأمثال الأولى: إنَّ الجيرة غيرُ مهمة، وإنَّ المهم هو القرابة فقط؟ بناءً على مثل: ما بيحمل همك إلا اللي من دمك، أو نقول: إنَّ الأقارب لا يجب الثقةُ فيهم، لأنه سمع مثلَ: الأقارب عقارب، أو: البغضُ بين الأقارب، أو التناقض بين مثل: زيادة الخير خير، وبين مثل: الزايد أخو الناقص، أو: التناقض بين مثل: الجنة من غير ناس ما بتتداس مع مثل: البعد عن الناس غنيمة و: مصايب الناس من الناس، أو بين مثل: بنت العم ولو بارت مع مثل: خذ من الزرايب ولاتاخد من الأقارب، أو بين مثل: خير لا تساوي شر ما بتلاقي، وبين: عميل منيح وكبّ بالبحر، إذن يجب التحفظ في التعميم حول القيم على أساس الأمثال العامية.

نماذج من الأمثال العامية السلبية:

– ولايفوتني أنْ أذكُرَ أنّ الأمثالَ الشعبيّة ذاتَ المضامينِ السيّئةِ أكثرُ ممّا قد يتخيّله البعض، بعضُها يدعو إلى الخنوع، أو يبرّر الهوان أو قبولَه، وبعضُها ينافي المروءة، ويبرّرُ الرذائلَ ويدافع عن المثالب، نحوَ: «امش الحيط الحيط، وقُول: يا ربّ السترة»، «اللي بيتجوّز أمّي بيصير عمّي»، «معك قرش، بتسوى قرش» «إذا شفت الأعمى دِبّو يعني: اضربه، وخذ رغيفو من عبّو (يعني من جيبه)، مَنَّك أرحم من ربّو» (والأخير مثل لبنانيّ). أو مثل: ألف كلمة جبان ولا يقولوا: الله يرحمو، أو: ألف عين أم تبكي ولا أمي تبكي، يا جاري أنت بحالك ونا بحالي، الأقارب عقارب، إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب.

هذا وثمة أمثالٌ شعبية، وحتى حكمٌ يتداولها الناس تترك تأثيراً سلبياً على أدائهم وإنتاجهم وبالتالي على التنمية، منها:

(أنا وأخوي على ابن عمّي، وأنا وابن عمّي على الغريب)، وهذا المثل لسنا نظلمه إنْ نَعَتناه بالعدائيّة والاندفاعيّة والإلغاء والإقصاء، لأن المسلم أخو المسلم مهما كانت درجةُ نسبه.

شعرة من جلد الخنزير مكسب:

يُستدلُّ بهذا المثل في حال كسبت شيئا من رجل، إما بخيل أو عنيد، وأفنِّدُ هذا المثل من جهتين، أولا: من الناحية الشرعية: أقول: هل لنا في الخنزير فائدة، وهو محرم علينا، حتى يصير لنا في شعره فائدة، فإن قال قائل: هذا مجرد تشبيه.

قلنا له: هل يجوز أن نشبهَ مسلما بخنزير، أما لغويا فلا سجع ولا صورة بلاغية ولا تناسقَ. فقط كلام فارغ لا أكثر.

(الآخرة مستأخرة)

أي أن يوم القيامة بعيد فلا تحمل همه.. وهذا من وساوس الشيطان، وأرجو أن لا يكون قائلُ هذا المثل ممن قال الله فيهم ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

– شاور المرأة وخالفها:

وأنا أتعجب من صاحب المثل العجيب، وأقول له: إذا كنت لن تسمع فلماذا تتعب نفسك، وتجهدها بالمشاورة؟! وتالله إنَّ جملة من بنات حواء أكثرُ فهما، وأصلح رأيا، وأبعدُ رؤية من كثير من الرجال. إضافة لمخالفة هذا المثل السقيم لسيرة الحبيب وسنته ﷺ الذي شاور بعض زوجاته، وعمل برأيهن.

– العتب صابون القلب:

وهو فعلا صابون وغاسل لكن للمودة والحب وطاردٌ للود، فالطبيعة الإنسانية تنفر ولاشك من كثرة العتب والاستغراق فيه، وهذا المثلُ يدعو للمعاتبة على الدقيق والجليل، وهذا لاشك سيثمر عن عداوات وأحقادا، إضافة إلى ما سيجنيه المداوم على العتب من ضغط وإجهاد نفسي.

– اتق شر من أحسنت إليه، وهو من أقبح الأمثال، وأرداها بلا منافس، وهذا المثل يدعوك إلى أنْ تترقبَ الإساءة مع من قدمتَ له معروفا، أو أسديتَ له جميلا، وكأنَّ ردَّة الفعل السلبية بعد فعل الخير أمرٌ لازم، وهذا المثل يبدو أنه يناسب كائنات حيةً غيرَ البشر، فالنفسُ البشريةُ في صغرها وكبرها قد جُبلت على مقابلة الإحسان بالإحسان، والعطاء بالعطاء، إضافةً إلى جملة من النصوص القرآنية التي توضح بما لا يدع مجالا للشك أنَّ الدفعَ بالحسنى والعطاءِ سيجعل من العدو اللدود صديقاً حميما.

– إذا كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي.

باختصار هي دعوة للنفاق والتخاذل، ومن أمثال النفاق:

- ارقص للقرد في دولته.
- اللي ما تقدر توافقُه نافقْهُ.
- إن جاك القرد راقص طبّلْ لُهْ.

● إن دخلت بلد تعبد عجل حشّ وطعميه.
● إن فعلت ما تقول، وإن قلت ما تفعل.
● جلد ما هو جلدك جُرُّو على الشوك.

أنانية مفرطة وحب ذات بغيض، وعدم احترام للآخرين وممتلكاتهم.

وهناك أمثال، نحو:

رعية البقر ولا عشرة البشر، ويضرب لتفضيل عشرة البقر على عشرة البشر.

وسلبياتُ هذا المثل كثيرة، بالعشرات، إلا أنَّ أهمَّها أنه يخالف هدي المصطفى ﷺ في قوله: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم).

هذا وإنَّ بعض الأمثال الشعبية ظلمت المرأة، ولم تعترف بدورها، فكثيرٌ من الأمثال الشعبية جعلت المرأة مجالا للسخرية والاستهزاء، بينما أنصفتها بعض الأمثال الأخرى.

فقد تناولت الأمثالُ المرأةَ في أدوارها المختلفة انطلاقاً من التهنئة بعيد ميلادها غير المرغوب فيه سعياً إلى التخلص منها، حيث قيل: آمنكمُ الله عارَها، وكفاكم مؤنتها، وصاهرتم قبرها وهي تعيش طفولتَها كشيء مهمل تابع كلياً للبيت، إلى أنْ يَجريَ التخلصُ منها عن طريق الزواج كعلاقة اجتماعية تضمنُ سَترَها، وتريحُ أهلَها من شرها (البنت إما رجلها وإما قبرها)، وحذرت من الزواج من الأقارب (الأقارب عقارب)، ولكنَّ العائلة تسعى للتخلص منها بأي شكل (بعِّد أختي عني وخذ غلّتها مني)، ورغم ذلك يعترفون بسَعة رزقها (أبو البنات مرزوق)، ولكنهم يخافون من رجوعها للمنزل بعد الزواج (زوِّج بنتك وبعِّد دارها ما يجيك غير خبارها)، وحذّرت الأمثالُ المرأةَ من الزواج فقيل: جَت العازبة تشكي لقت المتجوزه بتبكي.

ومن الأمثال السلبية عن المرأة: همّ البنات للممات، والمرأة بنصف عقل، وظل رجل ولا ظل حيطة، مع أنَّ حائطا خيرٌ من رجل لا يخاف الله ولا يرعى ذمة للناس ولا لزوجته، أو قولهم: البنت يا تسترها يا تقبرها، والبنت باللدح، والولد بالمدح، واللدح بمعنى الضرب، ويا مشاور النسوان يا خسران، واللي تموت بنيتُه من صفا نيتُه، وكلها أمثال تستخفُّ بالمرأة وتحط ثمن قدرها، رغم أنها الأم والزوجة والأختُ والابنة. ولم تسلم الحماةُ (أمُّ الزوجة) أيضاً من الأمثال: فقالوا: الحما عما، ولو كانت ملاك.

وفي السياق ذاته أظهرت دراسةٌ أجرتها إحدى جامعات الدول العربية أنَّ بعض الأمثالَ الشعبيةَ المتوارثةَ ساعدتْ على ترسيخ ثقافة ذكورية تظلمُ المرأة، وتشير إلى أنَّ الرجلَ عمِل على مرِّ العصور على تمييز نفسه عن المرأة، واتخذ مكانة لا يسمح للمرأة بالوصول إليها، ولم يترك صفةً سيئة إلا وألحقها بها، وأصبح المجتمع ينظرُ إلى الفتاة باعتبارها وعاءً للإنجاب ومصدرا للفتنة والعذاب وموتُها خير، وبذلك قيدتْ هذه الموروثاتُ حريةَ المرأة وحركتَها، وحجرت على عقلها لدرجة أنها ترى أنَّ تعليمَها لا يتعدى المسألة الكمالية. هذا ولا بد من القول أيضا أن بعض الناس لا يعرفُ كيف ومتى يلجأ إلى استعمال الأمثال، لذلك يُساء استعمالُها، وتأتي في غير محلها وزمنها، كالمثل الشعبي القائل «اقلب الجرة على فمها تطلع البنت لأمها».

ومعنى هذا المثل أنَّ الفتاة على أخلاق وطباع أمها، هكذا وبكل سهولة نستعملَ المثل بشكل خاطئ حين تقييمنا لسلوك أية فتاة، فنجعلُ من أمها مقياساً لها كأنها مستنسخةٌ عنها، فإن كانت أمُّها تتصفُ بسلوك جيد، فهذا من حسن حظ الفتاة، وإنْ كانت الأولى على العكس من ذلك، فهذا من سوء حظ الثانية.

وما يدحضُ هذا المثلَ الشعبيَ استعمالاً ومعنى مثلٌ شعبي آخرُ يقول: «يطلِّع الصالح من الطالح»، فهذا المثل يُخالف ما ورد في المثل الأول جملةً وتفصيلاً، لذلك لا يسعنا إلا أنْ نتساءلَ قائلين «تُرى لماذا لا يتم تقييمُ سلوك الشابِّ والفتاة بناءً على ما ورد في المثل الثاني؟» أم أنَّ سوءَ الظن بالآخر هو ما يجعلنا نندفع نحو الاستعمال الخاطئ لبعض الأمثال الشعبية؟ لذلك يجبُ علينا أن نراجعَ معانيها وفهمَنا لها، لنعرفَ بذلك كيف ومتى يتأتى لنا أن نضربَ بها مثلاً.

وهكذا رأينا من خلال هذا البحث أمثالا سلبية عديدة غدت كالمعتقد الراسخ، وكالحقيقة المسلَّم بها، بمجرد الاستشهاد بها تُصنفُ كالنصِّ المرسل، أو كالحديث المتفق عليه للأسف، ويجب على الكل الانصياعُ، والتفاعلُ معها، والوقوفُ عند معانيها.

مقولاتٌ فجة على الذوق السليم وجُملٌ تمجُّها الأسماعُ والعقول، ولكن للأسف قد سار بها الركبانُ، وتناقلها الناسُ، وهي لا تعدو كونَها مقولةً لأحدهم، لربما كان من أجهل الناس، نعم بعضُ من أرسل هذه الأمثال هم من عامة الناس، ويكفينا أنْ نقول عامة الناس لنعرفَ مدى تواضع أغلب هذه الأمثلة، وأنه يجب علينا معاداتها وهجرها، والوقوف عند آداب وتعاليم الشرع الحنيف.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٠)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

القول الفصل الذي ليس له ردٌّ، أن بين العربية والقرآن صلةً لا تنبَتُّ، ونَسبًا لا ينقطع، فهو الذي كَسَا العربية أبهى حلة، وألبَسها أبْدع وشْي وتطريز، وصانها من العبث، وصفاها من أكدار العاميات، وحفظها من الهجر والبلى، ولذلك فإن ارتباطهما حتمٌ لازم، لا يجادل في ذلك إلا من استحبَّ العمى على الهدى، خصائصها من خصائصه، وأسرارها من أسراره، ودُرَرها فرع من أيكته الوارفة، لا يجحد بهذا التمازج إلا من سَفِهَ نفسه، ولا يرغب عنها إلا كل مُتكبِّر عميَتْ عليه أنباؤها، فنبذها وراء ظهره، لقلة إلفه بها وضعف درايته بآلائها، وخلو فؤاده من بيانها، وجواهرها المستفرهة، ولمحها الباصر، الذي تعشو إليه الأنظار لاقتباس أشعة شمس معارفها، التي أخْرَستْ شقاشق الأقربين والأبعدين أيام جدتها.

هذا هو حال العربية عندما كانت تتصدر المنابر والأندية والمُجْتَمَلات والمؤسسات والأسواق، وعندما كانت الأمة تُعَظم أمرها وتقرنُ الخطأ واللحن فيها بالفاحشة والضلال، كما جاء في الأثر أن الرسول ﷺ عندما سمع أحدهم قد لحن في كلامه قال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل»، وحالها كذلك عندما كان المتكلم يدعو الله أن يغفر له سقطات ألفاظه وهفوات لسانه، قبل أن يمضي في كلامه على سَدْوٍ واحد. فماذا نحن فاعلون لدرء ثقافةً التشويش والهيمنة والتفتيت

والتشكيك التي تروج لها العولمة، وهل أعددنا الطرق الملائمة والوسائل اللازمة لتحقيق القوْمَة المُرْتجاة للعربية الفصحى؟ وهل هيَّأنا تربة الحرث الإصلاحي التي تَعِدُ بمحصول وافر، وهل أمددناها بالمَواد المُخصِّبة التي تبيد الحشرات والأحراش المعيقة للنمو، وهل سعينا في أثناء إعداد البرامج التعليمية إلى تأمين الأجواء والبيئات التعليمية التَّعَلُّمية التي تدرك محورية اللغة في أي إصلاح تعليمي يغزو اصطناع المعارف الضرورية لتخمير عجين الثقافة العربية، وبناء صرح عربي مرصوص لا يَتوَقَّله أي مُتزيِّد مُرْتاب؟ أسئلة كثيرة تجد جوابها البليغ في النزوع نحو التنميط الذي لم يعد يكتفي بمظاهر العمران وأزياء الرياضة وعادات الأكل واللباس والحفلات والعطور والصالونات والقيم، ولكنه امتد إلى العربية الفصحى كي تتقبل مرغمة أردية اللغات الأخَر، بإشاعة اللحن وتوطين العامية والعجمَة، وإفساح المجال لأمشاج الرطانات التي لم نسمع بمثلها في آبائنا الأولين. وما ذلك إلا من تداني الهمم واستصغار أمر اللغة، وتركها دبْر آذاننا لا نداوي قروحها كما كان يفعل أجدادنا حتى أصبحت علقًا، ولا نرقع فتوقها حتى أضحت خرقًا. آية ذلك أن أغلب رسائلنا القصيرة عبر الهواتف المحمولة تَكتُب العربية بالحروف اللاتينية، ناهيك أن بعض أحرفنا العربية أضحت أرقامًا، تبددت معها آمالنا، وانحلت أواصرنا، وضاع رجاؤنا في تعويد ألسنتنا ضروب الفصاحة التي كان أجدادنا تلتمع نجومهم في فتق أكمام البراعة والفصاحة، على شاكلة هذا النموذج الذي يوضح تقسيم خروج الماء من أماكنه المختلفة: «من السحاب سَحَّ، من الينبوع نَبَعَ، من الحجر انْبَجَسَ، من النهر فاض، من السقف وَكَفَ، من القربة سَرَبَ، من الإناء رشَحَ، من العين انْسكب، من المذاكير نَطفَ، من الجرح ثَغَّ»(١).

أين نحن من هذه الدقة في النعت، والإحكام في الوصف الذي لا يَقصُر ولا يتجاوز المطلوب، ولماذا كل من رام التحدث بالفصحى قفزت الكلمات الأجنبية والعبارات العامية إلى لسانه؟! وإلى متى نستهين بحقيقة ما تقوله الكلمات، وما يُعرف به الفرق بين المعاني؟ ألم يُوَطئ الأوائل أرض هذه الفروق، أمْ طال علينا الأمد فنسيناها أو تناسيناها، ألا تدق علينا مثل هذه القولة أبواب المعرفة بهذه الفروق على هذه الشاكلة؟ «فأما ما يعرف به الفرق بين هذه المعاني وأشباهها فأشياء كثيرة، منها اختلاف ما يستعمل عليه اللفظان اللذان يراد الفرق بين معنييهما، ومنها اعتبار صفات المعنيَيْن اللذيْن يطلب الفرق بينهما، ومنها اعتبار ما يؤول إليه المعنيان، ومنها اعتبار الحروف التي تعدى بها الأفعال، ومنها اعتبار النقيض، ومنها اعتبار الاشتقاق، ومنها ما توجبه صيغة اللفظ من الفرق بينه وبين ما يقاربه، ومنها اعتبار حقيقة اللفظين أو أحدهما في أصل اللغة»(٢). لا ريب أن هذا الاستشهاد يقول لنا في إصرار: لقد بُصِّرتم إنْ أبْصرْتم، ولقد هُديتم إن اهْتديْتم، فهل اهتدى صحافيونا إلى التعبير عما أرادوا قوله من هذه العبارة التي تكررت حتى تكرَّجَتْ وتقرَّرتْ في قنواتنا الفضائية، وفي غيرها؟ عندما يرددون: «انتصر الفريق المستضيف على الفريق الضيف» وهم يعنون بالفريق المستضيف صاحب البلد الذي قبل ضيافة الضيف. وهذا لعمري خطل يبرز أنه عندما تفسد اللغة تسوء المعاملات، وتضطرب الشؤون. كما يبرز كسلنا اللغوي، حيث طوينا كشحنا عما تدل عليه الصيغ في العربية، إذ أن صيغة «استفعل» تفيد الطلب في الغالب الأعم، ومن ثمة فإن الذي يسمع العبارة الآنفة يتعجب كيف ينتصر الفريق الضيف على نفسه؟! حيث إن المستضيف هو الضيف ذاته. نقول: «استضافه: طلب إليه الضيافة... وضفته وتضيفته: طلبت منه الضيافة»(٣). أما الكلمة المناسبة لإنزال الآخر ضيفًا فهي: «أضَفْتُ وضيَّفْتُ» أي أنزلته علي ضيفًا. قال تعالى من سورة الكهف آية ٧٧: ﴿فانْطلقَا حتَّى إذا أتَيَا أهْل قرية اسْتطْعمَا اهْلها فَأبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمَا...﴾ أي طلب كل من موسى والخضر عليهما السلام الطعام من أهل تلك القرية فرفضوا أن يقدموا لهما القرى.

تأسيسًا على هذه الآية القرآنية يجب تصحيح العبارة اللاحنة الآنفة هكذا: «انتصر الفريق المُضَيِّف على الفريق الضيف» حتى يستقيم المعنى ويحصل الفهم.

هذه سبيلي أنا والكفاة الحُرُصُ على صفاء العربية، وإني لأشهد أن عرب اليوم لم يؤتوا في لغتهم من قبل العولمة المتغولة من ضعف درايتهم بالقواعد الصرفية، ولكن أتوا من اتباعهم لغيرهم، واستهانتهم بلغتهم، وهوانهم، حتى رضوا أن يكونوا مع الخوالف في صناعة المعرفة، الذين ركبوا أعجاز الإبل في الرحلة الأبدية التي تعِدُ بالآمال العريضة.

الهوامش

١- فقه اللغة وأسرار العربية. أبومنصور الثعالبي. شرح وتقديم د.ياسين الأيوبي. ص ٣٠٥. ط ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.

٢- الفروق اللغوية. أبوهلال العسكري. ضبط وتحقيق حسام الدين القدسي. ص ١٤. ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

٣- لسان العرب. ابن منظور المصري. باب الفاء فصل الضاد. المجلد ٩. ط١٤١٠هـ -١٩٩٠م دار صادر. بيروت.

«الكتب الممنوعة»

مؤلف يتتبع تاريخ الرقابة ومحن حرية التعبير

د.عز الدين عناية - أستاذ تونسي في جامعة روما

في نطاق السعي لرفد الثقافة العربية بمجموعة من الأعمال الإيطالية، جراء النقص الحاصل في الترجمة من هذه اللغة، أصدر «مشروع كلمة» الإماراتي ترجمة بعنوان: «الكتب الممنوعة» من تأليف الكاتب الإيطالي ماريو إنفليزي. وهو كتاب يهدف إلى تقديم ملخّص إجمالي لتاريخ الرقابة على المطبوعات في الحضارة الغربية، متتبّعا المسار الشائك لحرية التعبير عن الرأي، وأصناف أنواع الرقابة المسلّطة على الكتب والكتّاب، بما فيها من قيود على النشر بكافة أنواعه. وإذ يتناول المؤلّف بالدراسة والمعالجة نشأة الرقابة، وإعداد قوائم الكتب المحظورة، ودور محاكم التفتيش حتى بزوغ شمس عصر التنوير، فهو يبرز جليًا دور الكنيسة والدولة في ذلك، فضلًا عما أنتجته المعرفة من أدوات ومؤسسات تولت شأن الرقابة أيضًا.

فقد كانت الرقابة الفعلية تكمن حقيقةً وبقوة، في أيدي محكمة التفتيش، التي كانت تمتلك أدوات لا نهائية، كان بمقدورها -من جانب- ممارسة تأثيرها على نفوس المؤمنين بشكل مباشر، من خلال عمل كهنة الاعتراف، وإلزام الجميع بالإبلاغ عن أولئك الذين يمتلكون مؤلفات يشتبه بها، والتدخل من

كانت الرقابة الفعلية تكمن في أيدي محكمة التفتيش عبر كهنة الاعتراف

جانب آخر، في عملية التداول، عن طريق القيام بزيارات إلى حوانيت بيع الكتب والمكتبات، والتفتيش على الحدود، وأضيرت حرفة بيع الكتب ذاتها بشدة.

ينقسم الكتاب إلى أربعة فصول، يقدم الفصل الأول تاريخ الرقابة الذي يرتبط بظهور قوة الكتاب المطبوع جلية، واضحة، وقدرته على الانتشار بيسر فائق بين أفراد الشعوب المختلفة، والذين كانوا بمنأى في الماضي عن الثقافة المكتوبة. لقد غيرت الطباعة، وقيام نظام تجاري، سرعان ما امتد إلى أطراف أوروبا كلها، من ظروف التلاقح الفكري، فزادت كميات وعمليات الإصدار المطبعي، وتحولت بعض مدن أوروبا إلى مراكز للنشر يقصدها الناشرون والمؤلفون والقراء، ولقد أثار ذلك قلق الكنيسة فسعت إلى إقرار مبادئ عامة لرقابة استباقية يخضع لها الإنتاج الأوروبي المطبوع كله.

ويتناول الفصل الثاني قوائم الكتب الممنوعة التي أعدّها أساتذة اللاهوت، ورعتها محاكم التفتيش الكنسية، والتي شملت مطبوعات ذات انتشار واسع، ولا تتعارض في شيء مع القضايا اللاهوتية الشائكة، وامتدّ الجدل إلى شرعية قراءة التوراة بين العامة، كما دخل العلم، والأدب حيز عمل المراقبين، وتعرضت بعض أكثر المؤلفات الأدبية شهرة إلى التحريف على يد المنقّحين المشهورين. وتشير أدوات القمع الرسمية كالقوائم والمراسيم إلى مدى الاضطراب الذي شهده المشهد الثقافي والاجتماعي في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

ويعرض الفصل الثالث لحدود الرقابة، وإصرار كنيسة روما على تطبيق خطة شديدة الإحكام للتأكد من تطبيق القائمة والحفاظ على الخصائص المركزية، مما استدعى إعداد مشروع لجلب كل قوائم الكتب المحظورة، التي جمعها المحققون إلى روما، وكل قوائم كتب مكتبات الطوائف الدينية المختلفة مما شكل مشهدًا عامًا ثريًا لقراءات رجال الدين والدومينيكان واليسوعيين. ويشير المؤلف إلى عدم قدرة المحكمة المقدسة على إقامة رقابة فعلية على تداول الكتب المحظورة،

وندرة محاكمة الأشخاص الذين وجدت في حيازتهم تلك المؤلفات.

ويتناول الفصل الأخير القرنَ السادسَ عشر بالتركيز، حيث اشتدت الرقابة والنشاط القمعي، اللذان تمت ممارستهما عبر قنوات تشريعية صارمة، إذ بلغ التعاون بين محكمة التفتيش وجامعتي سالامانكا وألكالا، اللتين كانتا تتوليان مهمة تحديد الهرطقة مداه، ثم اتجه عمل محاكم التفتيش بعد ذلك إلى التعويل على ذاتها. وفي الأعوام الأخيرة من القرن السادس عشر كانت الممارسات الرقابية قد تجاوزت كل حد، حيث خضعت للمراقبة مؤلفات باللهجة العامية، وأعمال دينية شعبية، وكتابات أكاديمية، وعلمية.

لكن في أعقاب ذلك حصل سعي الدولة لفرض سلطتها على المطبوعات، ومع ذلك ما انهارت الرقابة كليًا، وإنما تراخت شدتها مما كان يعني -بشكل جوهري، وفي كل الدول تقريبًا- انفراجًا واضحًا في الحيز الرقابي رافقه انتشار للسوق السوداء للكتاب، فتراجعت القوة القمعية للمحكمة المقدّسة، وانضمت الكنيسة خلال ولاية البابا بيندكتوس الرابع عشر، إلى دعاوى الإصلاح الاجتماعي الخاصة بعصر التنوير. غير أن ذلك الانفراج النسبي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، المتسم بطابع رسمي، غالبًا ما أثار في نفوس القرّاء الملل أو الرفض، حيث انتشرت حشود المتعالمين، والكتب السيئة المطبوعة تحت الموافقة والامتياز الملكي، مما حمل الجمهور إلى توجيه النظر صوب نواح أخرى، صوب ما يبدو من بياناتَ النشر قادرًا على استدعاء غير المألوف، والمخالف للقواعد القارة.

رغم التطورات الحاصلة بشأن تراجع الرقابة في أوروبا لم يتم إقرار حرية النشر رسميًا إلا مع صدور «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» في باريس في ٢٦ أغسطس عام ١٧٨٩م، الذي تضمّن أن «تبادل الفكر الحر، والآراء أحد حقوق الإنسان الأكثر تقديرًا، ويحق لكل مواطن أن يتحدث ويكتب وينشر بحرية كاملة في ما عدا ما يُعد تجاوزًا، وفقًا للحالات التي نصت عليها القوانين».

الكتاب هو من تأليف ماريو إنفليزي، وهو أستاذ جامعي إيطالي يدرس في جامعتي ميلانو والبندقية، ويتولى في الوقت الحالي كرسي تاريخ الطباعة والنشر، اهتم طويلا بقضايا الرقابة على المؤلفات، وتداول المطبوعات في أوروبا الحديثة، ونشر في هذا الصدد العديد من الدراسات والأعمال من بينها «صناعة النشر في البندقية في القرن الثامن عشر» (ميلانو ١٩٨٩)، ويعكف حاليًا على كتابة تاريخ الإعلام السياسي.

المترجمة هي المصرية وفاء عبدالرءوف البيه، أستاذة الأدب الإيطالي في جامعة حلوان، سبق لها أن ترجمت رواية «المسيح توقف عند إيبولي» لكارلو ليفي، ورواية «أنطونيو الجميل» لفيتاليانو برانكاتي.

وأما المراجع فهو عزالدين عناية، جامعي تونسي إيطالي يشرف على برنامج الترجمة من الإيطالية لفائدة «مشروع كلمة». من أعماله المنشورة: «نحن والمسيحية في العالم العربي وفي العالم»، كما ترجم العديد من الأعمال إلى الإيطالية وإلى العربية منها: «علم الأديان» لميشال مسلان، و«الإسلام في أوروبا» لإنزو باتشي.

صناعة التأليف... إطلالة على الضوابط

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

عملية التأليف ليست أمـرًا هيّنًا، وليست مرتعًا يمرح فيه من لا باع له في هذا الأمر.

فالتأليف يحتاج إلى أدوات معينة يجب أن تتوافر في المؤلف من ابتكار الأفكار الجديدة وحسن تناولها، وحسن صياغتها، والأمانة العلمية، والنزاهة، وعدم السطو على أفكار الآخرين وادعائها لنفسه، والصبر على مشاق البحث والاطلاع والتأليف، إلى غير ذلك من الأدوات والصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤلف.

أما عملية التأليف ذاتها فلها ضوابط يجب أن تنضبط بها، فليست كل كتابة يطلق عليها تأليف علمي محترم.

وما وضعت هذه الضوابط إلا ليُعرف الغث من السمين، ويميز الخبيث من الطيب، لأن السوق الثقافية قد امتلأت بتلال من الكتب التي لا نفع لها، ولا نتجاوز حين نقول: إن ضرّها أكثر من نفعها.

وهـذه الضوابط ضوابط أدبية لا

عملية التأليف تبنى على منهج علمي دقيق وتبتعد عن السطحية

يلتزم بها إلا من يحترم نفسه، ويحترم فكره، ويحترم القارئين لهذا الفكر.

ومن هذه الضوابط التي تتقيد بها عملية التأليف:

١-التقيد بمنطلقات التصور الإسلامي، أو بمعنى آخر عدم الخروج على ما جاء به الوحي، لأن الوحي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهذا دليل على شمولية هذا التصور الإسلامي «فالوحي الرباني هو المصدر المأمون الذي يتميز بالثبات والشمول، ويقدم التفسير الشامل للحياة والكون والإنسان وحقيقة الألوهية والعبودية، لأنه كلام رب العالمين، الخبير، المطّلع على كل شيء، والمبرّأ مما يعتري البشر من القصور والظلم والجهل وسوء الفهم والارتباط بالمصلحة وبالبيئة التي نشأ فيها، والتربية التي تلقاها، والمفاهيم والتصورات المتوارثة.

فهو الله -سبحانه- الخالق لكل الخلق، وهو أعلم بهم وبما يصلحهم.

فما دام الوحي بهذه الصفة من التكامل والشمول والعدالة، فإنه لا بد للمسلم أن يتخذه منهجًا وميزانًا يزن به القيم والأحداث، ويضبط به التصورات والمفاهيم، ويتخذه حكمًا يرجع لحكمه ويتلقى منه(١).

٢-الاهتمام بالقضايا الكبرى التي تشغل بال الأمة، حتى تتوحد الجهود وتتضافر لكي يتحقق لهذه الأمة ما تصبو إليه من علو المكانة التي يريدها الله حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠)، والاهتمام في عملية التأليف بسفاسف الأمور يفوّت عليها هذه الفرصة، ويشغلها فيما لا يفيد، ويقعد بها عن جادة الطريق، والله- عز وجل- نهى عن الاشتغال بسفاسف الأمـور، و«لا

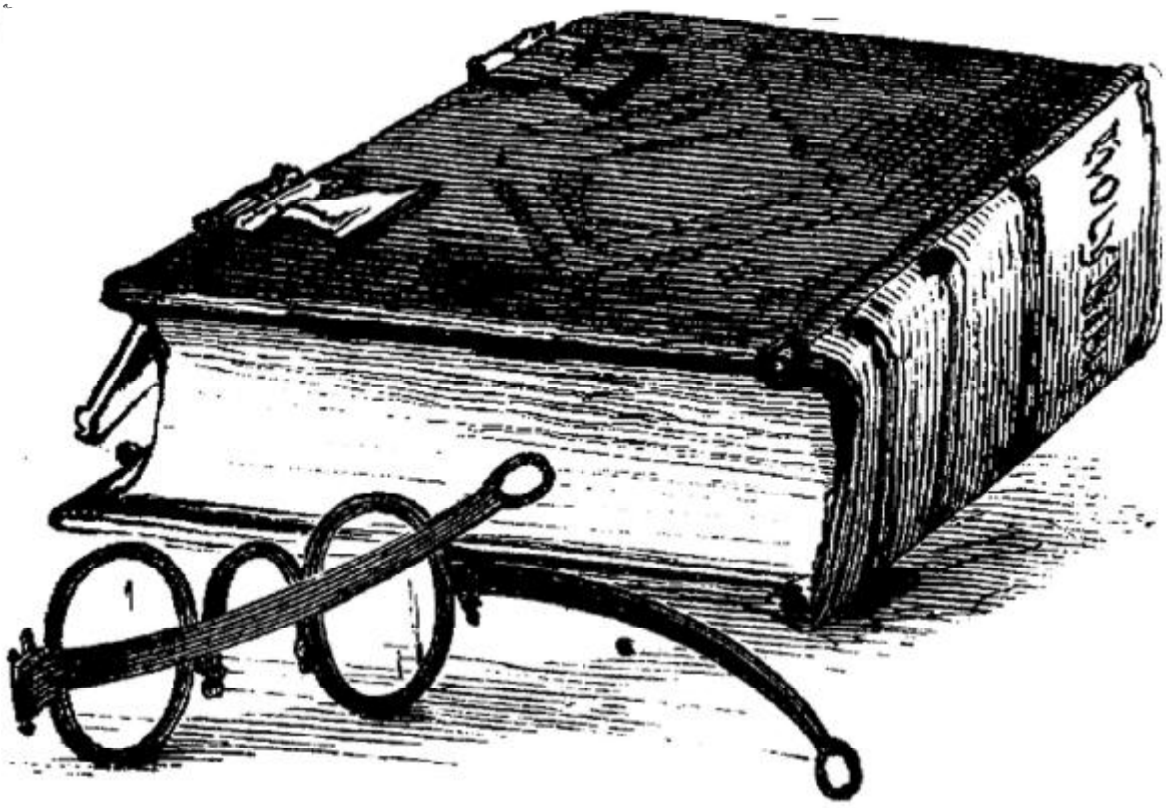

يقصد من هذا الكلام إهمال بيان سنن الدين وفروعه التي حث الشارع عليها، ولكن المقصود منه ألا يجعل الأمور الفرعية المختلف فيها مثارًا للتعصب، وتفريق الأمة، وصدع وحدتها، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله- تعالى- يحب معالي الأمور، وأشرفها، ويكره سفاسفها»(٢).

٣-يجب أن تتسم عملية التأليف بالموضوعية، وأن تُبنى على منهج علمي دقيق، وأن تبتعد عن السطحية، فالتعمق في الأفكار يبرز قيمتها، ويبلورها ويعمل على تسليط الضوء عليها، وبذلك يتم نقد الأفكار بطريقة علمية، وكذلك استخدام المناهج العلمية من تحليل واستنباط واستقراء حتى تكون النتائج سليمة، لأنه متى سلمت المقدمات سلمت النتائج.

٤-أن يكون لعملية التأليف غاية وهدف منشود تسعى إليها، حتى لا يكون الأمر خبط عشواء، وتتضح المفاهيم إذا اتضحت الغايات والأهداف؛ لأن العمل إذا لم تكن له غاية معلومة كان هو العبث بعينه حيث يدخل فيما لا طائل تحته، وما كثرت الكتب الغثة إلا من هذا الباب، فلا يوجد شيء في الإسلام يسمى «العلم للعلم» و«الفن للفن»، فيجب أن يكون له غاية تُبتغى من ورائه، وهدف يسعى إليه، وما هذه الشعارات إلا من باب التضليل والتغرير بالناس، ألم يخبر المصطفى ﷺ بارتباط الأعمال بالنية فقال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

٥-البعد عن التعصب، واتباع الأهواء، فالعلم لا يضيع إلا عند التعصب الأعمى لآراء العلماء دون وجه حق، وما ذاك إلا اتباع للهوى، ولكن الأوجب أن ندور مع الحق أينما دار، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، وكذلك يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال، ولم يكن من سبب أثّرَ في تأخر المسلمين أكثر من تعصبهم لمذهبهم ولآراء رجالات تلك المذاهب، حتى إنه كان يرد الصواب والحق من أجل أن فلانًا قال بغير هذا.

أو يتعصب الرجل لرأيه ضاربًا الصفح عما يراه غيره من الآراء، وفي هذا وأد للبحث العلمي الحر الشريف، ولولا اختلاف الآراء لجمد العلم وتحجر، ولكنه الاختلاف المقنن البناء، لا الاختلاف الهدام الذي يسعى إلى ضرب كل القيم والمعايير الأخلاقية والمبادئ العقدية.

الهوامش

١-(محمد بن صامل العلياني السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي) (ص٣٦-٣٧).

٢-(صحيح الجامع الصغير وزيادته- الألباني، حديث رقم (١٨٩٠).

٣-(أخرجه البخاري في كتاب «بدء الوحي»، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١٥/١).

في المجلس الشهري لمنتدى الأدب الإسلامي:

التراث العربي لا يفتقر للبعد الدرامي

عبر الوكيل المساعد للعلاقات الخارجية والحج بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، رئيس منتدى الأدب الإسلامي بالمركز العالمي للوسطية د.مطلق القراوي عن تفاؤله بالخطوات الجادة التي يخطوها المنتدى في مجال الثقافة الجماهيرية، وبالحصاد الأدبي الكبير الذي تشكله الأنشطة والفعاليات الأدبية المتنوعة التي يحييها المنتدى، جاء ذلك تواكبًا والمجلس الأدبي الشهري الذي أقامه المنتدى تحت عنوان «أنواع القصص في التراث العربي» للدكتور مصطفى عطية، الأستاذ بكلية التربية الأساسية، وأوضح القراوي بأن المجلس جاء حافلًا بالعديد من المحطات الأدبية الممتعة، والتي كانت مثار إعجاب الحضور، حيث بدأ عطية مجلسه مفندًا لبعض المزاعم التي يروجها البعض عن افتقار التراث العربي إلى ظاهرة الخيال والإبداع والحس الجمالي لدى المبدع العربي، إلى جانب ندرة البعد الدرامي أو المنحى القصصي، مدعين أن ذلك ظهر أيضًا في شكل الحضارة العربية بشكل عام، ونبه عطية إلى ضرورة قراءة التاريخ الأدبي العربي قراءة منصفة ومتأنية، وأن يعاد التنقيب في هذا الإرث الإنساني حتى يستطيع الناقد أن يقف على الحقيقة، وأكد عطية على أن التراث العربي مليء منذ القدم بالأشكال القصصية، قبل أن يعرفها العالم، وهذه الميزة تبرهن على أن الأمة العربية هي أمة مبدعة وصاحبة ريادة، ونوّه عطية أنه عند النظر إلى التراث الأدبي العربي يجب ألّا يقتصر النظر فقط على الجانب الشعري منه، بل لابد أن تكون النظرة شاملة أيضًا للنتاج النثري، وأشار في سياق كلامه إلى أن العرب قبل الإسلام كان لديهم أشكال كثيرة من القصص، مدللًا على جانب من تلك الأشكال القصصية، واستطرد عطية بأن ذلك ورد تحت مسميات متعددة متفاوتة، وذلك يتوافق والمدرسة النقدية الحديثة.

ثم توقف طويلًا عند نوعية من تلك المؤلفات العربية التراثية التي تفردت بظاهرة القصة، والتي مثلها الجبرتي وكتابه الشهير «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، وكيف احتوت صفحاته على أنواع مختلفة من القصص التاريخي الشيق، في أسلوب أدبي بديع، إلى جانب قصص البطولات التي اعتنت بتمجيد الفروسية وبشجاعة الفرسان العرب، كالظاهر بيبرس وعنترة بن شداد، وكيف دعت الحاجة إلى إعادة هذا الإنتاج واستحضار تلك الرموز في الفترات التي ضعفت فيها الحضارة العربية، بغرض شحن الهمم وتقوية المشاعر، وبين بأن لكل أمة إرثًا ثقافيًا وإنتاجًا إبداعيًا، ولا يمكن أن يقلل أو ينتقص منه، ولابد من احترام تلك الخصوصية، ولابد أن ينظر إلى هذا التراث بكل فخر، وقسم التراث الأدبي إلى نوعين، فقسم يعتمد على المقامات والحكايات والسير، وآخر قصصي، كرسالة الغفران للمعري مثلًا، ثم عقب مبينًا كيف اقتبس التراث العربي الحديث إنتاجه من إبداعات العرب القدامى، والتي تدل على جودة العقلية العربية، وأن القصة القصيرة عرفها الإنتاج العربي، ولم تكن حديثة عهد، وهي مرتبطة في الأصل بوجدان الإنسان العربي ومخيلته.

ثم توقف قليلًا عند كتاب (كليلة ودمنة)، باعتباره نموذجًا أدبيًا فريدًا لما أورده، وأكد عطية على أن القصة خير الوسائل غير المباشرة التي تقدم الخير والمثل العليا، ثم سرد بعض النماذج من التراث العربي، التي تدل على الإبداع القصصي، ثم تناول السير الشعبية كشكل من أشكال القصص التي ترتكز على الوجدان المسلم، واستحضار القيم النبيلة، ثم تناول بعض المؤلفات التي صاغت القصة في أسلوب ساخر، مثل البخلاء للجاحظ، بعدها ختم المجلس وفتح الباب أمام تعقيبات الحضور، واختتم القراوي موضحًا الحاجة إلى مثل هذه المجالس الأدبية، والتي اعتبرت وبحق همزة الوصل مع كافة الشرائح، والمتنفس الحقيقي الذي يستطيع المنتدى أن يوصل رسالته القيمية الهادفة عبره للجميع.

د. مصطفى عطية متحدثا بجانب عريف الجلسة

حديث الرعية

محمود بكر أبو خميس - شاعر مصري

يا من تريد رئاسة الأوطان ... هذا حديثي فاغتنمه ثوان
واسمع بقلبك للحديث وراعه ... ما كنتُ إلا ناصحًا ببيان
أمر الخلافة والولاية قربة ... إن كنت حقًا راجي الرحمن
قال النبي معقبًا في هديه ... عدل الإمام مظلة بأمان
إن كنت حقًا للخلافة راشدًا ... فانعم بفضل الله خير جنان
إن كنت في الدنيا لأحمد تابعًا ... والقدوتان لشخصك العمران
فلقد ركبت إلى السعادة مركبًا ... عجزت لوصف مقامه العينان
لكن حذار أن تخالف شرعة ... أو أن تساق بموكب الشيطان
إياك ظلمًا للعباد فإنه ... سبل الهلاك ومورد النيران
واذكر رعاك الله قصة هالك ... فرعون سجن ضاق بالسجان
زعم اللعين ألوهة في شخصه ... تبًا لذاك المجرم الخوان
سفك الدماء شريعة في بغيه ... قتل الشيوخ وسائر الغلمان
لم يتبع موسى نبيًا ناصحًا ... بل قابل الإحسان بالعدوان
حسب الرئاسة والزعامة موئلًا ... كتب الفخار ولاح بالعنوان
قد قال زورًا للرعية إنه ... رب البرية خالق الأكوان
تبعوه واعجبًا لقبح صنيعهم ... واسمع لقول الحق عن هامان
لم يكتف الملعون صرح صنيعه ... بل عاون الشيطان في الطغيان
ساموا جموع المسلمين عذابهم ... بل جرعوهم ذلة بهوان
والذنب كان جريمة تعجب لها ... رفض الضلال وسطوة الأوثان
إياك حالًا باللئيم تشبهًا ... كرسي الرئاسة لا محالة فان
ما هذه الدنيا بمطلب مؤمن ... فعلى الجياف تَقَاتُل الغربانِ
لا يخدعَنَّكَ طول عمرك حالمًا ... واذكر عزيزًا لفُ بالأكفان
فالموت آت لا محالة زائرًا ... تفنى العظام بمهلك الأبدان
فاقصد هديت إلى النجاة سبيله ... والبس ثياب الحق كل أوان

حُسْنُ البَيَانِ فِي نَظْمِ مُشْتَرَكِ القُرْآنِ

نَظْمُ الشّيخِ عبدالهادي نَجَا بن رِضْوان نَجَا بن محمد الأَبْيَاريّ المصريّ (ت 1305هـ)

تحقيق : صالح بن محمد بن عبدالخالق
باحث بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم وبعد، فهذا نظم لما ذكره السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»(١) من بعض الكلمات القرآنية التي تكرر ورودها في كتاب الله بمعنىً، ثم وردت في موطن ما بمعنىً آخر مغاير، وقد وسمها الناظم بالألفاظ المشتركة من وجه، وهذا الإطلاق يتضح من خلال قوله فيها: «وبعد: فاصْغَ إلى نَظْم لُمْشْتَرَكٍ من القُران بوجه جاء مُعْتَبَرا»، مع تسميتِه للنظم بـ «حسن البيان في نظم مشترك القرآن»(٢)، وهذه صورة من صور فن الوجوه في القرآن الكريم(٣).

أما ناظمها فهو الشيخ العلامة عبدالهادي نَجَا بن رِضْوَان نَجَا بن محمد الأَبْيَاريّ المصريّ المتوفى سنة (١٣٠٥هـ)(٤).

وقد قمت بتحقيقها عن نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم (٧٢٢: تفسير) كتبت في حياة المؤلف سنة (١٢٥٦هـ) على يد عبدالفتاح البنا.

قال ابن رِضوانَ عبدُ الهادي مُبْتَغِيًا ... حُسْنَ الجزاءِ من المولَى إذا حُشِرا
حمدًا لمن أنزل القرآنَ فيه هُدَى ... للمتقين وذِكْرَى للذي اذَّكَرا
ثمَّ الصَّلاةُ على الهادي وشيعَتِه ... ما مال غُصْنٌ إذا هَبَّ الصَّبَا سَحَرًا
وبعد: فاصْغَ إلى نَظْمٍ لُمْشْتَرَكٍ ... من القُران بوجهٍ جاء مُعْتَبَرا
كلُّ الذي في كتابِ اللهِ من (أَسَفٍ) ... فالحزنُ معناه لا في زُخْرُفٍ(٥) أُثِرَا
فإنَّ معناهُ فيها أغْضَبُوا وكذا ... ما كان من (نبأٍ) فيه أَتَى خَبَرا

١- انظر الإتقان، ط المكتبة التجارية (١/١٤٤-١٤٥).

٢- وكذا سماها البغدادي في إيضاح المكنون (١/٤٠٣).

٣- حول التعريف بهذا الفن وأهم مصنفاته انظر: كتاب «الوجوه والنظائر في القرآن الكريم دراسة وموازنة» د سليمان بن صالح القرعاوي.

٤- انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (٤/١٧٣- ١٧٤).

٥- يقصد ما بقوله تعالى:﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(الزخرف:٥٥).

إلَّا فَعَمِيَت الأنباءُ يومَئِذٍ(٦) فبالأدلَّةِ والآياتِ(٧) قد سَفرَا(٨)
وبالنَّدامةِ فسِّر (حَسْرةً) أبدَا لا حَسْرةً في قلوبٍ(٩) حُزْنُها(١٠) ظَهَرَا
وكُلُّ ما فيه من (بَخْسٍ) فذاك بنقْـ ـصٍ فسَّروا غيرَ ما في يوسفٍ(١١) ذُكِرا
فذاك قد عبَّروهُ بالحرام(١٢) وما فيه من (البَعْلِ) فهو الزوجُ حيثُ جَرَى
إلّا أَتَدْعُونَ بَعْلًا(١٣) فالمرادُ به مَعْبُودُهم صنمٌ بالبَعْلِ قد شُهِرَا
ثمَّ (البُرُوجُ) التي فيه الكواكبُ ما عَدا التي في النِّسا(١٤) فهي القصورُ تُرَى
وكلُّ ما فيه من (بَرٍّ) ومن (بَحْرٍ) فالماءُ والتُّرْبُ لا في الرُّوم(١٥) فاعتَبِرَا
إذ المرادُ به العُمْرَانُ مع خَرِبٍ وكلُّ (رجْزٍ) عذابٌ غير ما هُجِرا
أعني المُسَطَّرَ في مُدَّثِر(١٦) فلقد قالوا هو الصَّنَمُ احفَظْ واتْبَعِ الأَثَرَا
وَكُلُّ ما فيه من (سُخْرٍ) أَتَى فبالاسْـ ـتِهْزَاءِ فُسِّرَ لا سُخْرِيًّا استُطِرا
في زُخْرُفٍ(١٧) فبتَسْخِيرٍ يُفَسَّرُ و(الشْـ ـيطان) فيه بإبليس كما اشْتُهِرَا
إلا الذي في سنام الذكر أولِه(١٨) فإنه الرُّؤَسَاءُ كُفْرًا لِمَن كَفَرَا
وكلُّ (زُورٍ) فَبُهْتانٌ يُصَاحِبُهُ كُفْرٌ سوى ما بِفُرْقَانٍ(١٩) فلا وزرا

٦- يقصد قوله تعالى:﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾(القصص:٦٦).

٧- يعني الحجج والبراهين.

٨- من أسفر عن الشيء كشفه وأوضحه.

٩- يقصد ما بقوله تعالى:﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾(آل عمران:١٥٦).

١٠- يقصد أن الحسرة في هذه الآية المراد بها الحزن.

١١- يقصد ما بقوله تعالى:﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾(يوسف:٢٠).

١٢- يعني أن البخس يفسر بالحرام.

١٣- يقصد ما بقوله تعالى:﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾(الصافات:١٢٥).

١٤- يقصد ما بقوله تعالى:﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾(النساء:٧٨).

١٥- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(الروم:٤١).

١٦- يقصد ما بقوله تعالى:﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾(المدثر:٥).

١٧- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيا﴾(الزخرف:٣٢).

١٨- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة:١٤).

١٩- كذا قال والموجود في الإتقان ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾(المجادلة:٢) لا سورة الفرقان.

وكـــلُّ (رَجْـــــم) فـقَـتْـلٌ غـيـر لأرْ ... جُـمَـنَّـكَ(٢٠) اعلمْ فجا بالشَّتْم مُنْتَشِرَا
كـذا بـالـغَـيْـبِ رَجْـمًـا(٢١) فـسَّـرُوهُ بظنْ ... ـنًّـا ثـم كـلُّ (ورود) فـالـدخـول طـرَا
إلا الـكـلـيـم فـهَـجْـمٌ كـان مـنـه ولـم ... يـدْخُـلْ بما مَـدْيـنَ(٢٢) فاسْتَتْبِعْ الخَبَرا
وكُـــلُّ (رَيْـــب) بـشَـكٍّ فـسـروهُ سوى ... رَيْـبِ المَـنُـونِ(٢٣) فكَيْدُ الدَّهْرِ مُذْ خَطَرَا
وحيث جاء (زَكَـــاةٌ) في الـكـتـاب فأوْ ... ولَـنْـهُ بـالـمـالِ لا في مـريم(٢٤) سجَرَا
فـــإنَّ مـعـنـاهُ فـيـهـا طُـهْـرٌ وبمَـيْـ ... ـلٍ فَـسَّـرُوا (الـزَّيْـغَ) فيه أينما ذُكِـرَا
إلَّا وإذْ زَاغَـت الأَبْـصَـارُ(٢٥) أيْ شَخَصَتْ ... ثـمَّ (الـقُـنُـوتُ) بـه في الـطَّـاعَـة انْـحَـصَـرَا
سِـوَى وكُـلٌّ لـه مع قـانـتُـونَ(٢٦) فمَعْ ... ـنـاهُ مُـقِـرُّونَ فـاقْـفُ الإثْـرَ مُـخْـتَـبِـرَا
وكـلُّ مـا جـاء فـيـه مـن (سَـكِـيـنَـة) اعْـ ... ـلَـمْ أن مـعـنـاهُ الاطْـمِـئْـنَـانُ إنْ عَـسُـرا
إلَّا الـذي جاء في الـتَّـابُـوتِ(٢٧) فهْوَ كَمَا ... قـالـوهُ شـيءٌ كـرَأْسِ الـهِـرَّةِ اخْـتَـبِـرَا
لـه جَـنـاحـان و(الـيَـأْسُ) الـقُـنُـوطُ سِـوَى ما ... جاءَ في الـرَّعْـدِ(٢٨) فَهْوَ العِلْمُ قَدْ نَـدَرَا
وَفَـسِّـــر (الـــصَّـــومَ) فـيـه بـالـعـبـادةِ ما ... عَـدَاه في مـريم فـالـصَّـمْـتُ(٢٩) قد نَـذَرَا
وكـلُّ (كَـنْـز) فَـمَـالٌ مـا عـــداهُ بـكَـهْـ ... ـفٍ(٣٠) فالصَّحِيفَةُ من عِلْمٍ كما أُثِـرا
وأيـنـمـا جـا (مِـصْـبَـاحٌ) فـكَـوْكَـبٌ إلَّا ... مـا يَـجِـيءُ بِـنُـورٍ(٣١) فـالـسِّـرَاجُ يُـرَى

٢٠- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(مريم:٤٦).

٢١- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾(الكهف:٢٢).

٢٢- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾(القصص:٢٣).

٢٣- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾(الطور:٣٠).

٢٤- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾(مريم:١٣).

٢٥- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(الأحزاب:١٠).

٢٦- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(البقرة:١١٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(الروم:٢٦).

٢٧- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾(البقرة:٢٤٨).

٢٨- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾(الرعد:٣١).

٢٩- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾(مريم:٢٦).

٣٠- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾(الكهف:٨٢).

٣١- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾(النور:٣٥).

وأيْنَمَا (صَمَمٌ) يَأْتِي فعن سَمْعِ الْـ ... ـقُرانِ إلَّاهُ في الإِسْرَا(٣٢) فما اشْتَهَرَا
ثُمَّ (العذابُ) فتَعْذِيبٌ يُفَسِّرُهُ ... إلَّا عَذَابَهُمَا(٣٣) بالنُّورِ إذ ذُكِرَا
وكلُّ ما فيه من (نورٍ) ومن (ظُلَمٍ) ... فالكفرُ معناهُ والإيمانُ مُعْتَبَرَا
إلَّا الذي أول الأنعامِ(٣٤) فالحَدَثَا ... نُ اعْلَمْ وما جاءَ من (صَبْرٍ) فقد شُكِرَا
إلَّا الذي جاء في الفُرْقانِ(٣٥) ثُمَّ متى ... أتَى (نِكاحٌ) فتَزْوِيجٌ بغيرِ مِرَا
إلَّا بأُولِي النِّسا أعْنِي إذا بَلَغُوا النْ ... نِكاحَ(٣٦) فالحُلُم عند الممعن النَّظَرَا
وأنَّ (صلاةً) أتَتْ فيه فرحمةٌ أو ... عبادةٌ غيرُ ما بالحَجِّ قدْ صَدَرَا
أي التي بعدَها ذِكْرُ المساجدِ(٣٧) إذ ... هي الكنائسُ بالعَبْرانِيَّةِ اشْتُهِرَا
وَفَسِّرَنَّ بـ(نارٍ) للسَّعِيرِ سِوى ... ما في ضَلالٍ وسُعْرٍ(٣٨) فالعَناءُ سَرَى
وكلُّ (أصْحابِ نارٍ) فيه فهو بأهْـ ... ـلِها يُفَسَّرُ إلَّا واحِدًا قصِرَا
على الملائِكِ في مُدَّثِّرٍ(٣٩) فَهُمُ ... خُزَّانُها ومتى ما (للطَّعامِ) جَرَى
ذِكْرٌ فقَدِّرْ بنِصْفِ الصَّاعِ ثُمَّ بِكَذْ ... بٍ فسَّروا (الإفْكَ) مهما جاءَ مُسْتَطِرَا
وكلُّ (تَسْبِيحَةٍ) جا للصلاةِ كذا ... كَ (الدِّينُ) فيه حِسابٌ كلَّما ذُكِرَا
بِحُجَّةٍ فسَّروا (سُلْطَانَهُ) وبِخَمْـ ... ـرٍ فسَّرُوا (كَأْسَهُ) أيضًا وكُلُّ (وَرَا)

٣٢- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾(الإسراء:٩٧).

٣٣- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(النور:٢).

٣٤- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾(الأنعام:١).

٣٥- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(الفرقان:٤٢)، وقد أخل بقوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾(ص:٦).

٣٦- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾(النساء:٦).

٣٧- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾(الحج:٤٠).

٣٨- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾(القمر:٢٤). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر:٤٧).

٣٩- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾(المدثر:٣١).

هـو الأَمَـامُ سِـوَى حَـرْفَـينِ فـي فـمَـنِ ابْـ ... ـتَغَى(٤٠) أُحِلَّ لَكُمْ(٤١) إذْ بالسِّوَى فُسِرَا
وكـلُّ مـا فيه مـن (حِـفْـظِ الـفُـرُوجِ) فَـمِـنْ ... زِنًـا سِـوَى يَـحْـفَـظُـوا فُـرُوجَـهُـمْ سُـطِـرَا
في النُّورِ(٤٢) ثمَّ متى (الشَّهِيدُ) جاء - سِوَى الْـ ... ـقَتْلَى - فمعناهُ مَـنْ لـلأَمْـرِ قَـدْ حَـضَـرَا
إلَّا بـوادْعُـوا الـذِي مِـنْ بَـعْـدِه شُـهَـدَا ... ءَكُـمْ(٤٣) فبالشُّرَكَا فَسِّرْ كَـما أُثِـرَا
ولـيس (بـعـدُ) بمعنى قَـبْـلُ فيه سِـوَى ... الزَّبُورِ(٤٤)من بعدمع الأرض(٤٥)بعدُيُرَى
وكـلُّ (كِسْفٍ) عـذابٌ(٤٦) ثمَّ ما (كِسَفٌ) ... أَتَـى فبـالسُّـحْـبِ فـسِّـرْهُ ومـا (مَـطَـرَا)
سَـمِـعْـتَـهُ فـعَـذابٌ غـيـرُ مـا وَلِـيَ الْـ ... ـأَذَى(٤٧) كذا كـلُّ (رِيْـحٍ) فيه قَـدْ ذُكِـرَا
أمَّـا (الـرِّيـاحُ) فـلا بـل رحـمـةٌ(٤٨) وبِلَعْـ ... ـنٍ فـسَّـرُوا (قُـتِـلَ) الآتـي ولـو كَـثُـرَا
هـذا مُـحَـصَّـلُ مـا أَبْـدَاهُ حـافِـظُ عَـصْـ ... ـرِهِ الـسُّـيُـوطِـيُّ فـي إتْـقَـانِـه أثـرا
وزِدْتُ مهما أَتَى (الطَّاغُوتُ) فَسِّرْ بالشْـ ... ـشَيْطَانِ واستَثْنِ ثَـانٍ في النِّسَاءِ جَرَى
إذِ الْمُـرَادُ بـه كَـعْـبٌ لَأَشْـرَفَ(٤٩) يُنْـ ... ـمَى كـان بـالبَـغْـي والـطُّـغْـيـانِ مُشْتَـهِـرَا
فـاحْـفَـظْ فَـدَيْـتُـكَ هـذا الـنَّـظْـمَ تَـرْقَ إلى ... أوج الـمَـعَـالِـي وتَـظْـفَـرْ بـالـذي عَـسَـرَا
ثـمَّ الـصَّـلاةُ عـلـى الـهـادِي وشِـيـعَـتِـهِ ... مـا فَـاحَ زَهْـرٌ ومـا بَـدْرٌ بَـدَا وَسَـرَى

٤٠- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾(المؤمنون:٧). وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾(المعارج:٣١).

٤١- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾(النساء:٢٤).

٤٢- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾(النور:٣٠).

٤٣- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:٢٣).

٤٤- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾(الأنبياء:١٠٥).

٤٥- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾(النازعات:٣٠). قال في الإتقان ط المكتبة التجارية (١٤٥/١): «قال أبوموسى في كتاب المغيث: معناه هنا قبل، لأنه تعالى خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء، فعلى هذا خلق الأرض قبل خلق السماء. انتهى».

٤٦- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾(الطور:٤٤).

٤٧- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾(النساء:١٠٢).

٤٨- يعني: كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب.

٤٩- يقصد ما بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾(النساء:٦٠).

سر المرأة المستكينة

قصة : محمد ثابت توفيق

ملامح وجه تلك المرأة كانت تحمل دلائل الطيبة المفرطة، وعلى مدار قرابة ألف وخمسمائة ليلة اعتاد الناس في الأحياء ضبط ساعتهم على الساعة التي تمر فيها من أمامهم بثيابها البالغة الاحتشام، قاطعة الطريق من حي بين السرايات لحي العتبة في جدية شديدة.

ويومًا بعد يوم كان لابد للناس من السؤال:

هذه السيدة التي يبدو من ملامحها الاستكانة التامة.. لم تقطع كل هذه المسافة يوميًا فتبلي نعالها من أجل ما لا يبدو واضحًا على الأقل لنا؟

الأمر يتعلق ببدايات القرن العشرين، قرابة عام ١٩٠٥م على وجه التقريب، وهذه السيدة لم تكن حكايتها قاصرة على الآحاد من البشر بالأحياء التي تمر بها، بل جعلت كتب التاريخ نفسها تنقل حكايتها، بل لم يخطر على بالها بالتأكيد أن الشارع التي استأجرت غرفة فيه من حي العتبة سوف يسمى باسمها «شارع السيدة المستكينة».

لسبب ما أو مجموعة أسباب متضافرة، منها الاحتلال الإنجليزي لمصر كلها، والعادات الشعبية المزدهرة آنذاك، لمنظومة من الأسباب لم يكن دقيق معاني الدين ليصل لنفوس العامة في ذلك الوقت، وكانت السيدة المقيمة في بيت تركه لها زوجها في حي «بين السرايات» تعاني الوحدة بعد زواج بناتها ووفاة زوجها وانقطاع العلاقة ما بينها وما بين أهلها في أقاصي الصعيد على بعد مئات الكيلومترات إن لم يكن أكثر.. حاول أحد الناس الاقتران بها إلا أنها رفضت في المرحلة الأخيرة من حياتها لمّا ثار في نفسها سؤال عززه كلام الناس، بخاصة النساء من حولها حول طمعه في البيت الذي ورثته عن زوجها التاجر الكبير، وبضع المئات من الجنيهات التي تكفل الحياة الكريمة لها ما بقي من سني عمرها، ولما كانت هناك حالات مشابهة بالغة المرارة لطمع بعض الرجال، فقد استكانت المرأة المستكينة كما أطلق العامة عليها، لحالة الوحدة الشديدة، وزاد نفورها من النسوة في الحارة التي تقيم فيها بعد عدم إتمام مشروع الارتباط ما بينها وما بين زوجها الثاني المفترض، وكأنها آثرت قطع المزيد من دواعي الحوارات الممتدة مع النسوة ممن حولها.

أسابيع قليلة وفاجأت الجميع بالمسيرة اليومية من بيتها للحي البعيد، عند السادسة مساء تبدأ الرحلة من بيتها، بل كانت تحرص على قطعها في قرابة الساعتين وعدم اختصار جزء منهما بالسير في طريق مختصر، وشهرًا بعد شهر علم الناس في حيّها أنها أستأجرت غرفة في الحي البعيد، فلم يكن خروج النساء بكثافة في ذلك الحين معروفًا في أحياء القاهرة القديمة كما هو الحال اليوم، أو حتى على نحو مقارب.

يومًا بعد يوم علم بأمر استئجار غرفة، حتى الباعة في الطريق الذي تسير فيه، فلم يخل الأمر من سير بعض المتطفلين وراءها، دون أن تدري، إلا أن أدب السيدة الجم بقدر ما حافظ على رأي من حولها فيها بقدر ما زاد من حيرتهم حول السبب الذي لأجله تسير كل هذه المسافة يوميًا بلا تخلف ليوم واحد.

الشوارع آنذاك كانت معتادة على النظام والنظافة، والناس لم يكونوا بمثل هذه الكثافة المعتادة اليوم في تلك الأحياء، ولم تكن وسائل المواصلات قد عرفت، اللهم فيما عدا الدواب، بساطة الحياة آنذاك دفعت بمزيد من الأسئلة على ألسنة كانت ترى امرأة فاضلة تقطع الطريق في انتظام لغير سبب واضح من الأسباب المعروفة آنذاك. خاصة لما تأكد المتطفلون الذين تتبعوها من سلامة سلوكها وبقائها في غرفتها التي اعتادت الذهاب إليها بحي العتبة يوميًا بمفردها.

على أن انتشار نزاهتها وهدوء تلك السيدة لم يزد فضول المتسائلات بوجه خاص ليسألنها، بل اعتدن مصمصة شفاههن قائلات:

- لعل لديها سرًا ما.. مرض مثلًا، أو ما شابه تذهب للعلاج منه في أجواء مختلفة عن أجواء بيتها.

عبق التاريخ يفوح منه

«طوب قابي».. قصر عثماني تثيره المخطوطات

استطلاع : رئيس التحرير
تصوير : هدايت الله نثار

عندما نتحدث عن المتاحف الأثرية والقصور التاريخية والمخطوطات الثمينة، فلابد من ذكر مدينة إسطنبول، التي تقع شمال غربي تركيا، فتاريخها العريق يعود إلى عام ٦٨٠ قبل الميلاد، ولعل قصر «طوب قابي» الشهير ليس

الأفخم من ناحية العمارة والزخرفة الفنية، لكنه بالتأكيد عنوان رئيسي لمسيرة آخر خلافة إسلامية وأطولها عمرًا، بمساحته الشاسعة وحدائقه الوارفة ووحداته المعمارية التي تطل من داخل القصر في البوابات والمقرنصات والفسيفساء التي جاءت مزيجًا هندسيًا وزخرفيًا لطرز إسلامية شتى، والأهم من كل هذا، المخطوطات النادرة في مكتبة القصر التاريخي.

«الوعي الإسلامي» زارت القصر للتعرف على جانبيه العلمي والتاريخي، وكيف شملهما بعبق التاريخ الإسلامي وحضارته العريقة، بالرغم من أن الفخامة العمرانية تجلت في جامع السليمانية الذي بناه السلطان سليمان القانوني، وقصر (دولمة بهجة) الذي بني أصلًا للمفاخرة.

لقد كان قصر طوب قابي مركز الخلافة العثمانية، والمقر الرسمي لسلاطين آل عثمان، الذي عرف لدى رعايا الدولة بـ«الباب العالي»، والتسمية التركية لهذا القصر تعني حرفيًا «سراي باب المدفع»، حيث وضع السلطان محمد الفاتح، بعدما فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م الأسس الأولى لهذا القصر الممتد على مساحة ٧٠٠ ألف متر مربع، ليكون مطلًا على أنقاض الحضارة التي وضع نهايتها.

وكان القصر يسمى بداية «سراي عامرة»، وأطلق عليه لاحقًا قصر طوب قابي، أي «باب المدفع» وتعاقب عليه السلاطين، وكان كل منهم يضيف إليه مبنى جديدًا، إلى أن انتقل الحكم إلى قصر «دولمة بهجة» في القرن التاسع عشر.

مكتبة القصر

يشتهر قصر طوب قابي عالميًا بخزينته وما تحتويه، ولكن الأهم أنه يشتهر بالأرشيف التاريخي الذي يملكه، مما يؤهله لأن يكون من أهم المصادر التاريخية في العالم، ففي «جامع آغا» توجد ٢٢ ألف مخطوطة نادرة، باللغات التركية والعربية والفارسية واللاتينية والمجرية والسلافية.

ومكتبة متحف قصر «طوب قابي» التي أسست عام ١٩٢٨م، هي المكتبة الملحقة بالقصر في الأستانة، وتحتوي على مخطوطات مهمة، وخاصة

مخطوطات الخطاطين العثمانيين، وبعض أثر النبي محمد ﷺ وتحديدًا قميصه.

رسوم السلاطين

تتكون قاعات رسوم السلاطين والمخطوطات من طابقين لعرض نماذج المخطوطات، يعود بعضها إلى القرن الرابع الهجري، وصور لسلاطين بني عثمان، ومن بين الأمانات المقدسة، المصحف الشريف المخطوط على جلد غزال.

مكتبة السلطان أحمد الثالث

تمَّ إنشاء المكتبة في عام ١٧١٩م من قبل السلطان أحمد الثالث، في الفناء الثالث من قصر طوب قابي، خلف غرف العرض في الاندرون، وعلى شكل مبنى ذي طابق واحد، بهدف حماية الكتب من الرطوبة، حيث يوجد في القسم الأمامي رواق يتم الوصول إليه بواسطة درج.

وتمثل خزائن الكتب المزينة بالصدف والعاج والأخشاب الملونة أروع الأمثلة لصناعة الخشب في ذلك العهد.

وتوجد كتابات السلطان الخطاط أحمد الثالث على جدران المكتبة.

توجد في المكتبة وقفية السلطان أحمد الثالث، ودفتر بيانات الكتب الأولى للمكتبة، وكذلك معول (منكاش أو فأس) استخدم لوضع الحجر الأساسي للمكتبة، وهذا المعول استعمل أيضًا في وضع الحجر الأساسي لجامع السلطان أحمد.

وتجمع المكتبة مجموعة من روائع فن الخط والتذهيب والرسم العثماني، وكذلك تضم خارطة الملاح التركي المشهور بري رييس.

إن قصر طوب قابي شاهد على عظمة وتاريخ سلاطين بني عثمان، منذ البداية وحتى العام ١٨٥٣، حين قرر السلطان عبدالمجيد أن ينقل مركز الحكم إلى قصر «دولما بهجة» الجديد.

مكتبة متحف قصر طوب قابي

بعد قرار تحويل قصر طوب قابي إلى متحف علم ١٩٢٤ تم إجراء التعديلات على جامع الآغالار الموجود في الحباء الثالث من القصر، لتحويله إلى مكتبة.. بعدها تمَّ نقل الكتب الموجودة في مختلف أقسام القصر إلى هذه المكتبة، وصنِّفت الكتب على أساس المكان والمبنى الذي جلبت منه، وبذلك تمَّ تصنيف المكتبة إلى: ركن أمانات الخزينة، ركن قصر الروان، ركن قصر بغداد، ركن خرقة السعادة (قميص الرسول ﷺ)، ركن السلطان محمد رشاد، ركن تريال هانم، ركن المدينة، ركن الردهات، ركن اسفنديار اوغولاري، ركن خليل خان اردا، ركن السلطان أحمد الثالث، وركن المخطوطات والكتب غير الإسلامية. بعدها تم استحداث ركن للكتب الجديدة التي اشتريت، أو وهبت إلى المكتبة. وفي عام ١٩٦٦م، تمَّ نقل محتويات مكتبة السلطان أحمد الثالث إلى المكتبة. وتحوي المكتبة اليوم حوالي ١٣,٤٥٠ كتابًا ومخطوطة، باللغات التركية والعربية

٢٢ ألف مخطوطة نادرة باللغات التركية والعربية والفارسية واللاتينية والمجرية والسلافية

والفارسية، إلى جانب الكتب الموجودة باللغات اليونانية واللاتينية والأرمنية والصربية والعبرانية والسريانية، المصنَّفة تحت سلسلة الكتب غير الإسلامية.

إلى جانب الكتب الموجودة في المكتبة، توجد بعض المخطوطات المشهورة، للخطاطين العثمانيين، وكذلك بعض المعدَّات اللازمة للخطاطين، مثل أقلام القصب والمحابر وشفرات تقليم القصب والمقصات، إلى جانب المحفظات الخشبية للقرآن الكريم، ورحلات تلاوة القرآن والأختام والخرائط القديمة. وتقدم المكتبة لزوَّارها ومرتاديها خدمات متعددة، مثل استنساخ المطبوعات، وتصوير الميكروفيلم للمخطوطات، والسلايدات والتصوير العادي.

سر اهتمام الأتراك

لقد كان مبعث اهتمام اسطنبول بجمع المخطوطات وإنشاء المكتبات رغبة سلاطين آل عثمان والوزراء ومشايخ الإسلام والوجهاء، وأن يكون لاسطنبول تلك المكانة التي كانت لدمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة العباسيين، ومصر عاصمة الفاطميين والأيوبيين والمماليك.

أهم المميزات

أن المخطوطات العربية لا توجد في اسطنبول وحدها – العاصمة القديمة لتركيا – كما هو الشأن في المخطوطات التي تقتنيها الدول، وتكون في عواصمها فقط، فإنك واجد مخطوطات كثيرة في غير اسطنبول، من أنحاء تركيا كلها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

مساحة القصر

تبلغ المساحة الإجمالية للقصر ٧٠ ألف متر مربع، وهو مُحَاط بأسوار يبلغ طولها ١٤٠٠ متر، بُني معظمها في العام ١٤٧٨ حيث التقت بالأسوار البيزنطية القديمة التي كانت تحمي المدينة.

طوب قابي = باب المدفع

كان طوب قابي في الأصل مجرَّد باب من أبواب اسطنبول، يُطِل على بحر مرمرة، وسَطَ السور الذي كان يَحمي المدينة، وعند ذلك الباب كان العثمانيون الأوائل قد نصبوا مِدفعًا، ولأن المدفع في التركية يعني «طوب»، كان من الطبيعي أن يُطلق على ذلك الباب اسم طوب قابي «باب المدفع».

كيف يتجاوز الآباء المنافسة السرمدية بين الأبناء

بشرى شاكر- باحثة مغربية

يختلف الأمر حينما يكون الطفل وحيد أبويه عنه عند قدوم مولود جديد، حينها ينشأ نوع من المنافسة بين الطفل الأول والوافد الجديد، هذه المنافسة التي اعتبرها ديفد ليفي David Levy ومنذ سنة ١٩٤١ مرحلة كلاسيكية وعادية في حياة الأسر، يمر منها كل طفل بقدوم مولود جديد، وهو ما أجمع عليه أيضًا العديد من الأخصائيين المعاصرين...

أما سيجموند فرويد، وفي تفسير الأحلام فقد تساءل وقال: لماذا نعتقد أن العلاقة بين الأخوين عليها أن تكون حميمية ولطيفة؟ فنحن نعرف أنَّ جميعنا إخوة أعداء، فالعداء يبدأ من الطفولة، وقد يستمر للأبد، فالعديد من البالغين الذين يحبون بحنان إخوانهم وأخواتهم عاشوا أيضًا في طفولتهم استعدادًا لحرب مستمرة فيما بينهم.

ويرى «جاك لاكان» أنها كراهية ملازمة للحب، وتلي تلك الحاجة للتخلي عن الاندماج أو الذوبان في الآخر، وهو ما أسماه hainamoration، ويقصد تلك العلاقة بين الحب والكره والتجاهل، فبالنسبة له هناك منافسة أخوية تتجه نحو حب سلمي فيما بعد، أو في مراحل عمرية متقدمة، بينما آخرون تشتد بينهم المنافسة إلى أن تتحول إلى كره متبادل، يؤدي في ألطف الأحوال إلى التجاهل، وفي أحوال أشد إلى عنف متبادل.

وإذا كان «ليفي» يراها مرحلة منافسة اعتيادية، وفرويد يراها اعتيادية، ولكن قد تكون مرحلة عداء كبيرة تبدأ من الطفولة بين نفس الإخوة، فالتاريخ يؤكد أن المنافسة بين الإخوة قد كانت منذ ظهور البشرية، وقد تتحول فعلًا لعداء قاتل، وقد حدثت هذه المنافسة عند أول ولدين لسيدنا آدم عليه السلام وأمنا حواء رضي الله عنها، وهما هابيل وقابيل، وورد ذلك في ذكره سبحانه وتعالى في سورة المائدة ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:٢٧-٢٨).

وما قتل قابيل لهابيل إلا نتيجة منافسة بينهما، فأحدهما تقبل الله قربانه والآخر ترك قربانه.

الخوف من الآخر

هذه المنافسة بين الإخوة تظهر أول ما يأتي للعائلة مولود جديد، فهو وفقًا لإحساس الطفل الأول شخص غريب يشكل تهديدًا للحمته مع أسرته، ويفقده وحدويته بين أفرادها.

وتكون هذه المنافسة المبنية على الخوف من الآخر والغيرة منه شديدة أكثر حينما يكون الأطفال من نفس الجنس أو نفس السن، وأحيانًا أيضًا حينما يتبين أن أحد الأطفال متفوق أكثر مما يجعله يتلقى التهاني والإعجاب، ليس من قبل أسرته فقط، ولكن من كل أقاربه ومحيطه، وهناك مرات يكون فيها أحد الأطفال يعاني من مرض ما أو عوز عقلي مثلًا، فتقوم الأسرة برعايته أكثر من الطفل السوي- وهو أمر عادي- على ألا يكون ذلك على مرأى دائم من الطفل الآخر الذي تحمله أحيانًا عبء رعايته أيضًا، مما يفقده لذة التمتع بمرحلة الطفولة.

على الآباء البعد عن التمييز بين الأطفال.. كبيرهم وصغيرهم

دفء الوالدة

منذ سن السنة، يبدأ الطفل بالشعور بإحساس والديه، وقبل السنة يستطيع الرضيع أن يشعر بدفء حضن والدته، ولا يتقبل اللجوء ليدي غيرها، وحوالى السنتين، أي في سن الفطام يبدأ هذا الطفل الصغير بفهم بعض القواعد العائلية، ويكون حساسًا لقدوم أخ جديد، أو أخت جديدة لأحضان الأسرة، وفي هذه السن يمكنه أن يكون لطيفًا مع الوافد الجديد، ويمكنه حتى أن يلعب دور حمايته، إذا ما أدرك الوالدان كيف يقربان بين الأخوين، وانطلاقًا من سن الثالثة يمكن للطفل أن يميز وضعه ومرتبته داخل عائلته، مقارنة بباقي إخوته، ويمكنه حتى أن يتأقلم مع ذلك.

عامل السن

يرى فرويد أن العلاقات الأخوية هي امتداد لـ«عقدة أوديب»، حيث تستمر المنافسة بين الإخوة للفت نظر الأم، والأخوات يحاولن لفت نظر الأب، غير أن الأبحاث المعاصرة أفقدت هذه النظرية بعضًا من قيمتها، وعوضتها بمقاربة نفسية جديدة، وهي أن هذا النوع من المنافسة بين الإخوة ما هو سوى محاولة للبحث عن أهمية الطفل

لنفسه داخل منظومة الأسرة، فاحترام ترتيب المواليد وفقًا لـ«ألفريد إدلر» Alfred Adler مثلًا يشكل جانبًا مهمًا في تنمية شخصية الطفل، وهي النظرية التي أجمع الأخصائيون النفسيون المعاصرون على تأثيرها الفعلي على العلاقة بين الإخوة، إضافة إلى عامل السن المتقارب بين الأطفال، وأيضًا مقاربة النوع.

ماذا فعلت؟

هذه المنافسة والتي كما أسلفنا تعد أمرًا طبيعيًا واعتياديًا لدى الأسر.. إن كان لا يمكن إلغاؤها، لأن ذلك سيكون ضد قوانين الطبيعة البشرية، فيمكن على الأقل التحكم في تبعاتها والتقليل من عنفها وتلطيف مرورها من قبل الآباء، بحيث عليهم الانتباه بحزم لمسألة التفضيل التي تحدثنا عنها سابقًا، وبالاستعداد لهذه المرحلة وذلك خلال أشهر حمل الأم التي تكون الفترة المثالية لتأسيس قدوم المولود الجديد، وتقبله بشكل أكبر من قبل الطفل الأول.

على الآباء أن يبتعدوا ما أمكن عن التمييز بين أطفالهم، ويتوجب عليهم أيضًا ألا يسعوا لتصنيفهم سواء ماديًا، أي من حيث ما يشترونه للمولود الجديد ويبخسونه للطفل الأول، فيبقى هذا الأخير طفلًا أيضًا يحتاج لرعاية خاصة وعناية فائقة، ولا يمكنه تفهم احتياجات أخيه الأصغر أو أخته الصغرى، وكل ما يدركه أن هناك تمييزاً يحصل بقدوم هذا الشخص الصغير الجديد، أيضًا من الناحية المعنوية، نجد العديد من الآباء يبلغون حد النسيان أن لهم طفلًا آخر، ولا يلاعبون إلا المولود الجديد، ولا يتحدثون إلا عنه، وأحيانًا يحملون الطفل الآخر مسؤولية بكائه، وكم سمعنا جميعنا جملة معروفة تتكرر حين بكاء المولود الصغير: «ماذا فعلت بأخيك، هل ضربته، لماذا يبكي؟»

هي جملة قد تبدو تلقائية لخوف الآباء على طفلهم الرضيع، ولكنها جملة تضع علامات استفهام كبيرة لدى الطفل الأول، «لماذا ألام على شيء لم أقم به، هل سيستمر هذا الوضع؟ هل كان من الأفضل لو بقيت صغيرًا جدًا لكيلا يحضروا شخصًا آخر أصغر مني؟» إلى غير ذلك من الأسئلة والتساؤلات.

أحيانًا هذه الأسئلة يمكن أن تطرح حتى بصوت عال من قبل الطفل.

هذه المرحلة دقيقة جدًا، وعلى الآباء توخي الحذر الكبير فيها، لكيلا تتحول من مجرد منافسة عادية. قد تكون في أصلها صحية، تجعل الأطفال يعبرون عن اختلافاتهم فيما بينهم وبين إخوتهم وأخواتهم، وأيضًا بينهم وبين الآخرين- إلى إساءة معاملة أو أذية جسدية، ويمكن ملاحظة ذلك من قبل الآباء، فإذا كان ما يظهره الطفل لأخيه متكررًا باستمرار، فهذا يعني أن المنافسة تحولت إلى هاجس وولوع مرضي يؤدي إلى عنف، أما إذا كان يبدي غيرته أو يبكي لإحساسه بالضيق من أخيه، ولكن ليس بشكل غير مستمر، بحيث يعود للعب أو ينسى الأمر، فهنا يتعلق الأمر بمجرد منافسة عابرة بين الإخوة، ولكن لكيلا تتحول إلى عنف مستمر، على الوالدين توخي الحذر.

تقارب السن

في حالة تقارب السن بين الإخوة، فإن المنافسة بينهم غالبًا ما تحدث عنها حوادث صغيرة، ولكن بشكل متبادل وواضح، بحيث يمكن لأحدهما أن يدفع الآخر، ويفعل الثاني نفس الشيء، وينتهي الأمر بعد دقائق أو أقل، ولكن في حالة التعنيف من قبل أحد الإخوة أو التعدي فإنه يظهر واضحًا أنه ليس هناك توازن في القوى، بحيث نرى مثلًا أن أحد الإخوة هو الذي يضرب دائمًا الآخر بسب أو بدون سبب، فالإساءة تقتضي بالنسبة له أن يبرز قوته وهيمنته على الآخر، سواء بضربه أو بإهانته.

ومن الأشياء التي يتجاهلها الآباء في حين تكون واضحة جدًا لمن هو خارج الأسرة، ويؤكدها أيضًا أخصائيو علم النفس التربوي، هو كون تأثير الإخوة على بعضهم البعض أكبر بكثير من تأثير الأبوين على أبنائهم..

دعاء الآباء .. صلاح الأبناء

أحمد المتوكل- المغرب

الدعاء والتضرع إلى الله وطلب الصلاح للأبناء والوقوفُ ببابه وإرادة هدايته وتوفيقه والاعتماد عليه- بعد اختيار الزوجة المؤمنة والتربية الصالحة والتعليم- من أعظم الوسائل التي يتحقق بها هذا الغرض، وفي هذا الموضوع سنقف على أهمية دعاء الآباء لأبنائهم وانغراس الصلاح والتقوى والاستقامة في قلوب الأبناء بسببه.

والذرية من عمل الإنسان تصلُح إن أصلحها، وتفسُد إن أساء تنشئتها، لا يهدي للصلاح إلا الله، لكن الهداية الإلهية يقيض الله لها بشرا يهدون، ولأسبابها يعملون.

والدعاء من أهم هذه الأسباب، و له أهمية كبرى في ديننا الحنيف، فهو العبادة كلها، وهو لبها ومخها، فما تقرب المتقربون إلى الله بمثله، ولا نال المحظوظون ما نالوا إلا به، إليه يلجأ المضطرون عند تقطّع الأسباب المادية، وهو باب عظيم، به تقضى الحاجات والمطالب، وبه تُنال الدرجات وتُحقق الأمنيات، وهو يفتح ما أغلق من الأبواب، ويذلل ما عسُر من الصعاب، ويحصُل به ما لم يخطر على الحسبان، وبه تُعمّر الديار أو تخرب.

والقرآن الكريم دستور حياة، ومنهج قويم يُعَلّمُ الآباء أن يقتطعوا من دعائهم جزءًا فيخصصوه لأولادهم، لأن صلاح الأبناء مرهون في أحد أسبابه بدعاء الآباء، ولأن الدعاء له أثر كبير جدًّا في تربية الأولاد واستقامتهم وصلاحهم واهتدائهم، فما من صالح موفق من الأبناء إلا وقد نال حظًا وافرًا من الدعاء الصالح لوالديه، وكم ردّ الدعاء من شارد ضالّ، وكم أصلح دعاء الوالدين من فسادٍ الأولاد، وآخرين كان لهم الشقاء والضلال والخسران وسوء المصير بسبب دعاء آبائهم عليهم.

إن دعاء الآباء لأبنائهم أو عليهم مستجاب لا يُرَدُّ كما هو واضح من خلال آيات القرآن التي سنراها، وكما تؤكده السنة النبوية المطهرة، وكما هو مشاهد مجرب، يقول النبي الكريم ﷺ: «ثَلاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ لا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ» (رواه ابن ماجه وحسنه الألباني)، وفي رواية الإمام أحمد ورد بلفظ: «وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» (مسند أحمد)، ولقد ورد في بعض الآثار أن دعاء الآباء لأبنائهم كدعاء الأنبياء لأممهم.

فالآباء عندما يدعون الله لأبنائهم ويطلبون من خالقهم وبارئهم أن يتولى أمرهم، ويفوضون إليه أمر صلاح أبنائهم، فهو يأخذ بنواصيهم للخير، ويدبر أمرهم بنفسه تعالى، إذ هو المدبر الحكيم، فيصنعهم على عينه ويوجههم الوجهة الصحيحة الصائبة، ويهديهم الطريق المستقيم، الموصل للسعادة الدنيوية والرضوان الأخروي، ويثبتهم عليه وييسر لهم سلوكه، ويقيض لهم ما يُعِينُهم في سيرهم ويذلل لهم الصعاب، ويعينهم على الأسباب ويدخلهم من الأبواب.

للآباء سر عند ربهم مع أولادهم، ودعوة منهم تساوي مائة دعوة من أكبر أولياء الله تعالى.

وإن سنة سيدنا محمد ﷺ تعلّمنا أيضًا أن ندعو لأبنائنا، فقد كان النبي ﷺ يدعو لابنته فاطمة، ولزوجها علي ولأبنائهما رضي الله عنهم جميعا.

توجيهات في الدعاء للأبناء

كي يُستجاب الدعاء ويحقق ما يرجوه السائل بدعائه، يحسُن بالمؤمن أن يفعل بعض الآداب أثناء دعائه ومنها:

١- اغتنام الأوقات الفاضلة والتماس الدعاء من الأفاضل

على الأبناء أن يعلموا أن من أسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة نيل دعاء صالح من آبائهم وأمهاتهم، فعليهم أن يغتنموا وجودهم في الحياة ويهتبلوا ساعات سرورهم ورضاهم وانشراحهم، ويطلبوا منهم الدعاء لهم، ودعاء الوالدين لأبنائهم أفضل من دعاء غيرهم لهم.

وعلى الآباء والأمهات أن ينتبهوا أشد الانتباه حين الدعاء لأبنائهم، ويتَحَرّوا ويغتنموا الأوقات والأحوال التي يكون فيها الدعاء مجابا، ويُكثروا من الدعاء الصالح الذي ينفع أبناءهم في دنياهم، ويبقى آثره مستمرًا في عقبهم سنين عديدة، مع الاهتمام الشديد والأكيد بما يسعدهم السعادة الكبرى في الآخرة.

كما يَحْسُنُ بهم أن يشملوا كل أبنائهم بالدعاء، وأن يُسمعوهم دعاءهم، وأن يكون ذلك بحضرتهم، لأن ذلك يزيد من سرورهم وانشراحهم، ويدفع في صلاحهم وإحسانهم لآبائهم، ويملأ قلوبهم برًّا وطاعة ورحمة.

وكذلك يجدر بهم البحث عن مجابي الدعاء من أهل الله الربانيين الذين لو سألوا الله ما رد سؤالهم، ولو أقسموا على الله لأبرهم، والتماس الدعاء منهم للأبناء، فقد كان الرسول ﷺ وكبار الصحابة يلتمسون الدعاء لأنفسهم ولأهلهم من غيرهم.

كما ينبغي للآباء أن يبقوا متعهدين أبناءهم بالدعوات الصالحات طوال حياتهم، حتى وإن كبروا وانفصلوا عنهم، وفي أفراحهم وأتراحهم، وفي عسرهم ويُسْرهم وفي كل شؤونهم، كي يشمل الرضى كل أحوالهم وأعمالهم وأعمارهم، ويضفي عليها الخير والسعادة والبركة، ولأنه بذلك تزداد شحنة العاطفة، وتتوطن الرحمة والرأفة واللين في قلب الوالدين والأولاد جميعا.

٢- تعميم الدعاء لأبناء المسلمين

لا ينبغي للمؤمن أن يكون أنانيًّا بأن يقصرَ الدعاء على نفسه وأبنائه فقط، بل عليه أن يعمم دعاءه الصالح لأبنائه وأبناء المسلمين جميعا ليتحقق مراده في أبنائه، ولينال تأمين الملائكة على دعائه وليضمن الاستجابة لأبنائه وأبناء المسلمين، عن أُمِّ الدَّرْدَاءِ أنّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأخيه بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِه مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأخيه بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ» (رواه مسلم).

فَبالدعاء لأبناء المسلمين يضمن المسلم الاستجابة لأبنائه، ويكثر الله بدعائه السالكين في الدرب إلى الله.

٣- الدعاء لهم بالدعاء الجامع

يَحْسُنُ بالآباء حين الدعاء لأبنائهم ولذرياتهم أن يختاروا الصيغ النبوية الجامعة لخيريْ الدنيا والآخرة، كطلب الهداية لهم، لأن من هداه الله عبَد الله حق العبادة ولم يعبد غيره، والتزم حدود الله ولم يتعدها.

وأن يحبّهُم الله ويحبب إليهم محابّه، ويُكرّه إليهم ما يكره، لأن من كان كذلكَ فعل كل معروف، وابتعد عن كل منكر.

وأن يؤتيهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأن يدخلهم الجنة ويقيهم عذاب النار، لأن من سيُدخله الله في الآخرة إلى الجنة ويقيه النار، سيوفقه في الدنيا لكل خير ويصرفه عن كل شر.

وأن يوفقهم لأداء ما وجب عليهم، لأن من كان كذلك عرف حق ربه فأداه، وأدرك حق نفسه فقام به وما تعداه إلى حقوق غيره، وعرف حق غيره فوفى به.

وأن يطلبوا لهم معالي الأمور وأحسنها وأشرفها، وعالي الدرجات في الدنيا والآخرة.

٤- الحذر من الدعاء على الأبناء

ومما تجب الإشارة إليه في هذا الموضوع أن النبي ﷺ نهى أن يدعو المسلم على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، كي لا يصادف وقت إجابة فيحصل ما لا يحب أن يراه الإنسان في نفسه أو ولده أو ماله مما يندم عليه بعد ذلك.

إن الوالدين قد يغضبان لبعض التصرفات السيئة التي يرونها من أبنائهم وقد تكون بسيطة فيدعون بالشر عليهم، ويكون وقت الدعاء ساعة إجابة، فيُستجاب دعاؤهم فيندم الآباء، ويُؤذى الأبناء، ويلاحقهم أثره السيئ طوال حياتهم، ويكون الآباء أول من يكتوي ويتألم لما أصاب أبناءهم، فتنغص حياتهم ويندمون بعد فوات الأوان، وقد يكون الدعاء على الولد سببًا في ضلاله وإفساده وتماديه في العقوق والفسوق والانغماس فيما يسخط الله ويُغضب والديه، وقد يتعدى ذلك إلى خزيهم في الآخرة.

جاء رجل إلى عبدالله بن المبارك رحمه الله يشكو إليه عقوق ولده فسأله ابن المبارك: أدعوت عليه؟ قال: نعم.

والذي ينبغي أن يكون هو الدعاء لهم بالهداية والصلاح والرجوع للصواب وأن يصلحهم الله ويلهمهم رشدهم مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١١).

قال الرسول ﷺ: «لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلا تَدْعُوا عَلَى أَوْلادِكُمْ، وَلا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ» (رواه مسلم).

التعدد بين عدالة الشريعة وتجاوزات الأفراد

مياسة النخلاني - قاصة يمنية

تعدد الزوجات من أكثر المواضيع التي تنال القسط الأوفر من النقاش والجدال، يتوزع أطرافه ما بين مؤيد، وغالبًا هم من شريحة الرجال الذين يرون أن هذا التشريع حق من حقوقهم، وبين شريحة النساء اللواتي يعتقدن أنه إنما يقلص من حقوقهن ويدخلهن في دوامة الغيرة والنزاع على شريك العمر، بل والبعض يرى أن فيه خيانة وعدم وفاء من جهة الرجل لشريكة حياته...

بشكل عام فقد ارتبط في أذهان الكثير تشريع التعدد بالإسلام ظانًا أنه أول دين جاء به، بينما الحقيقة أن نظام التعدد كان سائدًا قبل ظهور الإسلام في شعوب كثيرة متحضرة وغير متحضرة، كشعوب الصين والهند والفرس والمصريين القدماء والعبريين والعرب والشعوب الجرمانية والسكسونية التي ينتمي إليها سكان أوروبا الشرقية والغربية، مثل ألمانيا والنمسا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا والسويد وإنجلترا وبلجيكا وهولندا والنرويج، كما أن هذا النظام لا يزال منتشرًا في الوقت الحاضر في بلاد الهند والصين واليابان وإفريقيا.

إذن، فالأمر ليس كما يعتقد البعض، أو يروج له الغرب بأن الإسلام هو من شرع التعدد وأوجبه على المسلمين، زاعمين بذلك أن الإسلام ينتقص من حقوق المرأة، ويظلمها على حساب الرجل، فقد سبقته إلى إباحته الأديان السماوية التي أرسل بها أنبياء الله قبل محمد ﷺ «اليهودية والنصرانية» كذلك النظم الدينية الأخرى كالوثنية والمجوسية، فكل ما قام به الإسلام هو أنه أبقى على التعدد مباحًا، إلا أنه في ذات الوقت وضع له أسسًا تنظمه وتحد من مساوئه وأضراره التي انتشرت في المجتمعات البشرية التي انتشر فيها التعدد، والتي أدت إلى ظلم المرأة والانتقاص من حقها.

فقد ثبت من الحديث النبوي الشريف أن العرب الذين دخلوا الإسلام كان لدى بعضهم أكثر من أربع زوجات، فقد كان لدى قيس بن ثابت عندما أسلم ثمان زوجات، وكان لدى غيلان بن سلمة الثقفي عشر زوجات، وكان عند نوفل بن معاوية خمس زوجات، فأمرهم النبي ﷺ بأن يقتصر كل واحد منهم على أربع زوجات فقط، ويفارق الأخريات، وهذا أكبر دليل أن الإسلام لم يأت ليشرع التعدد فيجحف في حق المرأة، وإنما أتى ليقوم ويصلح من نظام كان مأخوذًا به لقرون مضت، ولكن للأسف كان يطبق بطريقة تضيع فيه حقوق المرأة، فلا هو منعه فيظلم معه الرجل ليحد من حقوقه فيخوض طرقًا محرمة لإشباع رغباته واحتياجاته كما هو الحال الآن في المجتمعات الغربية التي حددت عدد الزوجات بواحدة، ولا أنه ترك الأمر على غاربه لتضيع معه حقوق الزوجة، فالإسلام أحل التعدد إلا أنه في المقابل قد وضع على الرجل شروطًا وضوابط حازمة تكفل عدم ضياع حقوق الزوجات، وفي حال تقصيره في الالتزام بها فهو محاسب يوم القيامة أمام الله تعالى.

والأهم أن الإسلام لم يجعل نظام التعدد فرضًا لازمًا كما يعتقد البعض، ولا أوجبت الشريعة الإسلامية على المرأة وأهلها قبول الزواج برجل لديه زوجة أخرى أو أكثر، بل إن الأمر اختياري بحت، وقد أعطي لهم كامل الحرية في قبول أو رفض هذا الزواج، ذلك أن شريعتنا الإسلامية إنما أتت لتيسر لا لتعسر، وإن كان هناك تقصير أو مشاكل ناجمة عن التعدد فإنما ذلك نابع من سوء استخدام البشر لهذا التشريع من خلال الأخذ بمبدأ التعدد متجاهلين ومتهاونين بضوابطه وشروطه التي حددت لهم في الكتاب والسنة.

الحكمة من مشروعية التعدد

في كل تشريع رباني حتى وإن لم تكن غايته مفهومة حين أنزلت إلا أن الأيام تأتي ويأتي التقدم العلمي ليثبت أن الله جل وعلا حكيم عليم بحال عباده، وأن تشريعاته إنما أتت في المقام الأول لصالح البشرية بكافة شرائحها وفئاتها، وفي كل زمان ومكان، حتى وإن لم يكونوا على إدراك بذلك.

ففي تعدادات سابقة في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال تبين أن عدد الإناث يزيد عن عدد الرجال بأكثر من ثمانية ملايين امرأة، وفي بريطانيا بلغت الزيادة خمسة ملايين امرأة، وفي ألمانيا نسبة النساء إلى الرجال هي ١:٣، أما في العراق وإيران وإبّان الحرب الضارية التي استمرت بين البلدين زهاء ثمان سنوات (١٩٨٠-١٩٨٨) فقد أعقبها اختلال في التوازن العددي بين الرجال والنساء بصورة مفزعة حتى وصلت النسبة في بعض المناطق إلى رجل لكل خمس نساء، ورجل لكل سبع نساء في مناطق أخرى. والمؤشرات الأكثر إيلامًا وخطورة كانت في جمهورية البوسنة والهرسك التي فرضت عليها حرب عنصرية قذرة طحنت البلاد لأربع سنوات كاملة (١٩٩٢-١٩٩٦)، فبعد الحرب أصبحت نسبة الرجال إلى نسبة النساء رجل واحد لكل سبع وعشرين امرأة.

وإذا ما أجريت تعدادات سكانية في العراق أو أفغانستان بعد الغزو الأميركي عليهما والذي حصد خلال سنوات طويلة أرواح الكثيرين، لوجد أن عدد الإناث يفوق بكثير عدد الرجال، كونهم الأكثر فئة تعرضًا للقتل. حتى في الأحداث التي طرأت على الواقع العربي خلال عام ٢٠١١م في مصر وتونس وليبيا واليمن وسورية، والتي حصدت خلالها ومازالت تحصد أرواح الآلاف المؤلفة من الشباب.. فإذا ما راجعنا قوائم الشهداء لوجدنا أن عدد الشهداء الذكور يفوق بكثير عدد الإناث، بل لا وجود للمقارنة بينهما، إذن فكثير من الأحداث التي تتعرض لها المجتمعات بشكل عام ينتج عنها اختلال في التوازن بين تعداد الذكور عن الإناث، وإذا ما اقتصر الزواج على واحدة فقط كما هي التشريعات الغربية لأصبحت الأعداد الزائدة من الإناث مهددة بخطر شبح العنوسة والذي يجر بدوره إلى مشاكل

اجتماعية لا حصر لها، والتي تعاني منها المجتمعات الغربية حد الطفرة، كالانحراف الأخلاقي، أمراض نقص المناعة – الايدز- الناتجة عن انتشار الفواحش والزنا، الأطفال غير الشرعيين، حتى إن نسبة الأطفال غير الشرعيين في أميركا تصل إلى ٤٥٪ سنويًا ولا تزال في تزايد مفرط، وتقول إحصاءات رسمية أميركية إن عدد الأطفال غير الشرعيين كان ٨٨ ألف مولود سنة ١٩٣٨ ثم ارتفع إلى ٢٠٢ ألف عام ١٩٥٨ ثم قفز الرقم إلى الملايين من ثمرات الزنا في التسعينات وهكذا.

وما المجتمع الأميركي إلا نموذج يمكن تعميمه على المجتمعات الغربية التي تحدد الزواج بواحدة وتمنع التعدد، بينما في المقابل تحل العلاقات الجنسية غير الشرعية، فكما يقول أحد المفكرين الغربيين في هذا الإطار «إن نظام الزواج بامرأة واحدة فقط وتطبيقه تطبيقًا صارمًا قائم على أساس افتراض أن عدد أعضاء الجنسين متساو، ومادامت الحالة ليست كذلك فإن في بقائه قسوة بالغة لأولئك اللاتي تضطرهن الظروف إلى البقاء عانسات».

فإذا كان رب العباد قد ترك لعباده بابًا مفتوحًا في إطار الشرع والحلال وبما يحفظ توازن المجتمع وطهارته ويحفظ كرامة المرأة ويحفظ حقوق أطفالها ليكونوا جميعًا تحت حماية رجل ملزم أمام الله وأمام الناس بالحفاظ عليهم ورعايتهم والستر عليهم، فلماذا نحاول قفله أو ندعي ظلمه وإجحافه لنفتح على أنفسنا سراديب مظلمة تحمل بين طياتها الهلاك للفرد والمجتمع ككل!

التعدد بين الحق والواجب

باستعراض ما سبق يتضح جليًا أن التعدد نعمة من الله تعالى شرعها لإحداث توازن اجتماعي وإقفال المجال أمام الحرام والانحلال الأخلاقي الذي يدمر المجتمعات، وهو حل وضع ليستفيد منه كافة الأطراف في حال تم تحكيم العقل ومراعاة الله جل وعلا في كل صغيرة وكبيرة، وعدم الانجراف خلف العواطف واتباع الهوى والإخلال بالمسؤوليات.

فماذا إن اتبع الرجل هواه ومال نحو إحدى زوجاته دون الأخرى لدرجة التقصير في حقوقها المادية والمعنوية، متغافلًا أنه أخذها من بيت أهلها بمحض إرادته لتكون له شريكة ورفيقة يصونها ويحفظ كرامتها؟ وماذا إن تمادت إحدى الزوجات وحاولت بشتى الطرق استمالة قلب زوجها وعقله بحيث تشغله كليًا عن مسؤولياته تجاه زوجته الأخرى متناسية العقاب الذي سيناله وينالها جراء ذلك بدافع الأنانية وحب الذات، فهل سيظل للتعدد محاسنه ومناقبه التي لأجله أوجد الله هذا التشريع أم سينقلب إلى نقمة ويسود شبح الظلم والتمييز لترزح تحت ثقله روح كسيرة لا ذنب لها إلا أنها سلمت نفسها إلى من لا يخاف على ذمته فيما هو مسؤول عليه، آخذًا بالتشريع متناسيًا الضوابط والشروط مطالبًا بحقوقه متناسيًا واجباته ومسؤولياته، ليكون محاسبًا أمام الله تعالى الذي توعده بعقاب من جنس العمل.

شرط العدل بين الزوجات

إذن، فقد أحل الإسلام للرجل أن يعدد في زوجاته وصولًا إلى أربع، لكن بنفس الوقت وضع له ضوابط وشروطًا تكفل حق الزوجة، ومن هذه الشروط التقيد بأربع زوجات ولا يزيد عن ذلك في أي ظرف كان، والنفقة والتي تشمل الطعام والشراب والكسوة والمسكن والأثاث والقدرة على الإنفاق. وثالث الشروط وهو الأهم أن يعدل بين الزوجات، يقول المولى جل وعلا في محكم آياته: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣).

وكما قال صاحب الظلال، رحمة الله عليه: «جاء الإسلام لا ليطلق وإنما ليحدد، ولا ليترك الأمر لهوى الرجل ولكن ليقيد التعدد بالعدل، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة».

والمراد بالعدل في الآية الكريمة هو العدل الذي يطيقه الإنسان ويقدر على تحقيقه، وهو التسوية بين الزوجات في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمبيت والمعاملة بما يليق بكل واحدة منهن، أما العدل في الأمور التي لا يستطيعها الإنسان ولا يقدر عليها مثل المحبة والميل القلبي، فالزوج قد أعفي منها، لأن هذا الأمر خارج عن إرادته، فالله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، يقول سبحانه: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾(النساء: ١٢٩).

فالرجل في حال التعدد مطالب بالعدل في الأمور الظاهرة، من المعاملة والنفقة وحسن المعاشرة وسائر الأمور الظاهرة، بحيث لا يحدث تمييز بين زوجة وأخرى، بغض النظر عن ميله لإحداهن، أما العدل في المحبة والعاطفة والمشاعر فهذا أمر خارج نطاق إرادة الإنسان، لذا أعفي عنه، فالقلوب ليست ملكًا لأصحابها وإنما هي بين إصبعي الرحمن يقلبها كيف يشاء، وقد كان الرسول ﷺ وهو أعلم الناس بأمور دينه يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» وذلك في عدله بين زوجاته في كل شيء فيما عدا العاطفة التي كانت من نصيب سيدة نساء العالمين، عائشة رضي الله عنها وأرضاها، ولكن ذلك لم يمنعه عليه أفضل الصلاة والسلام عن العدل بين

كافة زوجاته بغض النظر عن اتجاه عاطفته.

إذن فمسألة تعلق قلب الرجل بزوجة واحدة من زوجاته دون الأخريات شيء لابد منه، لكن أن ينجر الزوج وراء قلبه لدرجة تغيب العقل ويؤثر على علاقته بزوجته الثانية أو الأخريات، بل ويؤثر على إنفاقه عليهن لدرجة أن يفضل واحدة عن الأخرى في النفقة والملبس والمبيت وغيرها، فهذا ما لا يحق له، بل لا يجوز له أن يؤول ذلك على أنه من مستلزمات عدم حبه لزوجته الثانية، فطالما أنها لا تزال زوجته فمن حقها عليه أن يعدل في معاملته لها، وهنا حذره الله تعالى من ذلك حيث قال: ﴿فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(النساء: ١٢٩)، ويقول الرسول ﷺ «إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط» كنوع من العقاب الرباني لتقصيره في حق من سلمت أمرها له فظلمها.

العدل بين الاستحالة والإمكانية

أولًا وأخيرًا نحن بشر وتحقيق العدالة الكاملة لا يكون إلا يوم القيامة بين يدي الرحمن جل وعلا، لكن إذا كان الله تعالى قد وضع تشريع التعدد كي لا يضيق على الرجل ويقفل عليه طرق الحرام بالحلال، وحتى يوجد نوع من التوازن الاجتماعي، ولا تضطر الكثير من النساء للعيش تحت شبح العنوسة أو الترمل، لتجرفها سبل الفساد والانحراف الأخلاقي، لا قدر الله، مما يؤثر على أخلاقيات المجتمع ككل، كما هو الحال في الانحلال الأخلاقي الموجود في المجتمعات الغربية التي منعت التعدد وأحلت العلاقات المحرمة، فإن الله تعالى حدد الضوابط والشروط حتى تجنى ثمار التعدد الطيبة، ولا ينقلب من نعمة إلى نقمة، ولا يكون ولن يتحقق ذلك إلا بالعدل، قال تعالى: ﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨) وحتى يكون رحيمًا بعباده، طالب الرجل بالعدل فيما يملك، فإن كان قد أقدم على جمع أكثر من زوجة بمحض اختياره رغم أنه كان قادرًا على الاكتفاء بزوجة تنجب له الأطفال وتصون بيته وعرضه، فهو ملزم أمام الله تعالى أن يحسن معاملته لزوجاته، ويعدل بينهن في توفير الحياة الكريمة لهن، على قدر استطاعته، حتى وإن كان قد أعفاه من العدل في توزيع الحب بينهن، كون هذا الأمر خارجًا عن إرادته، فذلك لا يعني أن يبالغ في إظهار الحب لواحدة دون الأخرى، أولًا لما له من الآثار السلبية على نفسية الزوجة التي لا حول لها ولا قوة سوى أنه اختارها زوجة بمحض إرادته، ثم أحب غيرها، كما أن ذلك لابد وأن ينعكس سلبًا على نفسيات الأطفال إذا ما أحسوا أن والدهم يفرق بين معاملة أمهم وضرتها، فالأمر هنا يحتاج إلى حكمة وفطنة من الرجل، فحتى في الأمور القلبية إن كان ليس بيده أن يوجهها كما يريد، إلا أن بيده التحكم في إظهارها.

وما يقوم به بعض الرجال المعددين من تصرفات تنافي ضوابط الشريعة من الميل الشديد تجاه زوجة لدرجة أنه يهمل زوجته الأخرى وبيتها وأطفالها فيذرها كالمعلقة، فلا هو أطلقها ليبدلها الله بزوج غيره، ولا هو أحسن إليها وصانها.. فمثل هذه التصرفات إنما تعود على هؤلاء الأفراد وليس على التشريع كتشريع قائم بحد ذاته. فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتحرون العدل بين زوجاتهم حتى في الأمور البسيطة، خوفًا من عقاب الله تعالى، ولعلمهم بوجوب العدل بين الزوجات.

علماء أكدوا على عدم تعارض مصلحة المجتمع مع الفرد..

الإنسان..
صانع التنمية بقيم الإيمان

هاجر حسونة - القاهرة - دار الإعلام العربية

الإنسان خليفة الله في الأرض، منحه- سبحانه وتعالى- الخلافة لعمارة وتنمية وإصلاح الكون، وكلّف وحده دون سائر المخلوقات بإعمار الأرض وتنمية المجتمعات، ليتسنى التمكين لتطبيق سنة الله في الخلق.. وفي لقائهم مع «الوعي الإسلامي» يؤكد العديد من العلماء والخبراء أن للإنسان دوراً كبيراً في تنمية المجتمع حسب أوامر الشرع، وأنه جزء من كيان كبير ينبغي أن يعمل على تحقيق مصلحة المجتمع وهيئاته وأفراده.. مؤكدين أن خير مثال على تنمية الذات هو النبي ﷺ الذي كان مثالًا للخير والنماء أينما حل أو رحل.. إلى التفاصيل.

«للإنسان دورٌ كبيرٌ في تنمية المجتمع في ضوء ما أمره الشرع الحكيم».. بهذه الكلمات بدأ د.عبدالله ربيع أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر، حديثه، موضحًا أن الشرع جعل الإنسان خليفة الله في الأرض، حيث قال الله تعالى في محكم آياته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فالله سبحانه خلق كل شيء وسخره لخدمة الإنسان حتى يقوم بدوره في عمارة الأرض، وعمارة الأرض لا تكون إلا بتطبيق شرع الله، وتطبيق شرع الله يكون بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، وهذا هو الميزان الذي يجب أن توزن به الأعمال، مشيرًا إلى أن أيّ عمل أمر الله سبحانه به فيه مصلحة الجميع، وكل عمل نهى الله عنه فيه مفسدة علمها من علمها وجهلها من جهلها.

المصلحة العامة أولًا

وأكد د.عبدالله أنه إذا تعارضت المصلحة العامة مع المصلحة الخاصة فلا بد أن تقدم المصلحة الأولى على المصلحة الأخيرة، وعندما ينتفع عشرة أشخاص من عمل مقابل عمل آخر ينتفع منه شخص واحد فالأولى يكون للمنفعة العامة.. مؤكدًا أن كل مصلحة عامة يقابلها مفسدة خاصة، موضحًا أنه إذا تعارضت المصلحة الخاصة مع المصلحة العامة فإننا نولي اهتمامًا بالمصلحة العامة.

وأوضح «ربيع» أن خير مثال على تنمية الذات هو النبي ﷺ، وهذا جليٌّ في أقواله وحركاته وسكناته، فقد كان ﷺ الخير كله أينما حل أو رحل.. والتنمية الذاتية لشخص النبي ﷺ تتضح عندما زكاه ربه في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، هذا الخُلق لم يكن لنفسه، ولم يكنَّ لأهل بيته فقط، إنما كان للمسلمين عامة، ليس هذا فحسب، بل وللعالمين أيضًا حيث قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

كذلك الصديق أبو بكر حينما وقف موقف الرجال، حيث ارتدَّ بعض المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ ومنعوا الزكاة، وكذلك ذو النورين عثمان بن عفان الذي جهز جيش العسرة، وكان أول من أنشأ أسطولًا بحريًا في الإسلام، وكان أيضًا أول من جمع المسلمين على مصحف واحد، عندما رأى اختلاف الناس في قراءته.. وكل هذه من أعظم الأعمال التنموية التي تخدم الإنسانية.

الإنسان محور التنمية

بدوره، يؤكد أستاذ الشريعة الإسلامية وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، د.محمد الشحات الجندي، أن الإنسان هو محور كل عمل خاصة في مجال التنمية، ولا يمكن أن يكون له الوجود الذي أراده الله له بدون أن يكون بنّاءً، وله جهود خلّاقة، فهذه رسالة الإنسان في الحياة، وبهذه الرسالة فضّل الله الإنسان على جميع المخلوقات بمن فيهم الملائكة.. وأشار إلى أن الحوار الذي جرى بين الملائكة وسيدنا آدم عليه السلام في صدر سورة البقرة خير شاهد على أن الله ميَّز الإنسان بالعقل، وجعل آدم وذريته يعلمون الأسماء التي لم

تعلمها الملائكة.

وأوضح «الجندي» أنه لا يمكن لأيّ مجتمع أن يتقدم إلا بأن يكون لديه بشر يعملون وينتجون ويخدمون دينهم ومجتمعهم بإخلاص.. وبذلك يمكن بناء الحضارة والتقدم والانطلاق على طريق التنمية، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

وأوضح أن مصطلح العمارة يدل على التنمية في كل المجالات بمفهومها الشامل ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي طلب منكم عمارتها، وكما يقول القرطبي: «العمارة متنوعة إلى فرض وإلى واجب وإلى مندوب وإلى مباح».

ونوّه إلى أن تحديد ذلك يكون حسب حال الأمة والوطن، فمثلًا في مجتمع ناشئ تكون التنمية فريضة أو واجبة، فلا يمكن للمجتمع الإسلامي أو البشرية أن تحقق رسالتها في الأرض إلا إذا توفر للإنسان ضروريات الحياة من مأكل وملبس وتعليم وعلاج.

وأوضح «الجندي» أن من الأمور التي يسجلها الإسلام بالنسبة للتنمية ما حدث من الصحابة والتابعين في مسلكهم تجاه الدولة الإسلامية التي بدأت من الصفر في مسألة التنمية، ومع ذلك استطاعت بالتعاون والمشاركة بين الأفراد في بناء المجتمع، فما كان يتبرع به الصحابة مثل عثمان بن عفان في شراء بئر «رومة» من ماله الخاص كان في سبيل مصلحة المجتمع الإسلامي الأول.. وكذلك الصحابي عبدالرحمن بن عوف عندما هاجر إلى المدينة رفض أن يتبرع له بعض الأنصار، إنما طلب منهم أن يدلّوه على السوق، فهذه نماذج تدل على أن المجتمع لا يقوم بدون أن يعمل أفراده على تنميته في جميع المستويات.

وأكد «الجندي» أن تنميه الفرد الذاتية تعتبر واجبة، لأنه إذا لم يكن على قدر من التأهيل والخبرة والاستعداد أن ينمي نفسه ويوفر حاجته الفردية فلن يستطيع أن ينمي مجتمعه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

وأشار إلى أن مجتمعاتنا تحتاج إلى شخص على معرفة وقدرة، ويكون صاحب عطاء، فنحن نعلم أن العطاء لا يحسب بحجمه، فالآية الكريمة تقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، فيجب على الإنسان أن ينمي ذاته، وأن يعمل حتى ولو قليلًا، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾.

وأشار إلى أن تنمية الإنسان مهمة للغاية، ودليل ذلك أن المجتمعات في عصرنا هذا وفي كل العصور تستطيع أن تميز بين المجتمع المتقدم والمجتمع المتخلف حسب القدرة الذاتية لأفراده، فإذا كانوا مؤهلين وذوي علم وعمل يكون المجتمع متقدمًا، والعكس صحيح.

رأس مال المجتمع

أما د.أيمن علي محمد أستاذ الفيزياء النووية بكلية العلوم جامعة القاهرة، ومدرب معتمد للتنمية البشرية، فأكد أن الفرد هو رأس مال المجتمع، وإذا صلح الفرد صلح المجتمع، وما وهنت المجتمعات في هذه الأيام إلا لأنها أهملت في الأصل عملية تأهيل وتنمية هذا الفرد حتى صار إنسانًا بلا هدف أو غاية يسعى لها.. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، فيجب أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، حتى يغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم.

مؤكدًا أن تنمية الفرد نفسه عملية اجتماعية، هدفها تحقيق تقدم المجتمع وتغييره إلى الأفضل، كلما كانت تنميته لذاته ملائمة لروح العصر ومعبرة عن احتياجاته، ومتكيفة مع واقع مجتمعه وأسلوب الحياة فيه.

المسؤولية

أخيرًا، أوضحت د.هبة عمار رئيس مجلة إدارة مؤسسة «جي آند كو» للتنمية البشرية، أن إرادة المولى- عز وجل- للإنسان هو إصلاح الكون، والسياسات التي على الإنسان أن يتبعها في الخلافة موجودة في القرآن الكريم، ومن لديه القدرة الحقيقية على الإصلاح هو الإنسان المسلم، والدليل على ذلك أن أمريكا تصنع القوانين التي ترى أنها تصلح لذلك، وبالتالي وضعت قانونًا لإلغاء حكم «الإعدام» معللة ذلك بأنه يشجع الانتقام والمشاعر السلبية، ووضعت السجن مدى الحياة بديلًا للإعدام، نتج عن ذلك غياب الأمن والأمان، وصرف مليارات الدولارات على التأمين.

وأوضحت «عمار» أن هناك تباينًا بين التجربتين الأمريكية واليابانية في التنمية البشرية، فأمريكا تتبنى المصالح الفردية وتُعلي من قيمة «الأنا»، لكن التجربة اليابانية تقوم على المصلحة العامة.

دار الإعلام العربية - القاهرة

إلى سام بن نوح يعود أصلها، وتضرب مفردات عمارتها الفريدة في القدم، وتنتمي تحديدًا إلى العهدين السبئي والحميّري قبل الميلاد.. إنها «صنعاء».. إحدى أقدم مدن العالم، والتي توصف بأنها كلها متحفٌ مفتوح، وتحفةٌ معماريةٌ نادرة، متناسقةٌ في تخطيطها وألوانها، تحتضن بين جنباتها العديد من المعالم الأثرية المهمّة، مثل: «قصر غمدان» الشهير، و«القُلَّيْس» الرمز الديني والعسكري للأحباش الذين احتلّوا اليمن وحكموها قبل ألف وخمسمائة عام.. و«الوعي الإسلامي»، تستعرض معكم جانباً من تاريخ هذه المدينة العريقة، فإليها.

تضم صنعاء أيضاً «الجامع الكبير»، الذي بني على أنقاض أحد المعابد السبئية، بأمر رسول الله ﷺ ليصبح من أهم المساجد الإسلامية، التي كان لها دورها البارز تعليمياً، كمدرسة علمية إسلامية، وتضم مكتبته أكثر من ١٢٠٠٠ مخطوطة نادرة، بينها مخطوطة القرآن الكريم بخط الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وهناك العديد من المعالم المهمة والحضارية، التي تضمها صنعاء، مثل الحمامات البخارية، والبساتين المتعددة، والأسواق الشهيرة، وقبل هذا وذاك الفن المعماري المتفرد، ففيها نحو (١٤,٠٠٠) منزل، و(٥٠) مسجدًا، وسورها المبني من الطين يبلغ محيطه نحو ٦,٢ كم، وارتفاعه تجاوز ٦م، وبعرض يزيد على ٢م، ولا يزال شامخاً صلباً وشاهداً على ما وصلت إليه الحضارة اليمنية من رقيٍّ في هندسة البناء.

خصائص وسمات

ولمدينة صنعاء خصائصُ وسماتٌ ومزايا تاريخية ومعمارية متفرِّدة، فهي بطرازها المعماريّ والهندسيّ الفريد تمثل - حسب آراء الخبراء الاختصاصيين في فنون العمارة - مدينة نموذجية تتناسب تماماً مع بيئتها وطقسها، وتوفّر كل مزايا السكن النموذجي والصحي.. وتتميّز مبانيّ المدينة القديمة باستخدام مواد من طبيعة المكان نفسه، كالطين الذي تتكون منه قوالب «الياجور»، التي تبنى منها المنازل بعد حرقها في أفران خاصة بها، والأخشاب المستخدمة في الأبواب والنوافذ والأسقف، والأحجار التي تستخدم في الأدوار السفلية من المنازل، علاوة على أن أسواق هذه المدينة وعددها (٤٨) سوقًا تجاريًا لكل منها تخصصه، معزولة بشكل تامٍّ عن المنازل والأحياء السكنية، لتصبح المدينة أكثر هدوءًا وسكينةً.

وتحتضن صنعاء ٣٢ خاناً موزعة على أماكن متعددة من المدينة، وكانت أشبه بالفنادق والبنوك في آن معاً، حيث

كان مرتادوا المدينة ينزلون بها للسكن، ويضعون فيها أموالهم، ويعقدون فيها أيضاً صفقاتهم التجارية.. ولم ينسَ بناة صنعاء القديمة تخصيص مساحات كافية فيها لتكون متنفّسات للمدينة، فخصصوا (٤٥) مساحة لتكون ساحات خضراء مزروعة بأنواع متعددة من الخَضَار الذي يحتاج إليه السكان، وتسمّى هذه المساحات «مقاشم»، لتكون بمثابة رئات تتنفس بها المدينة.

المنزل الصنعاني

وتختزل العمارة الصنعانية كل الفنون، وحسب العديد من الباحثين والاختصاصيين، فإن البناء المعماري القديم كان متطوراً هندسياً، والبناءون القدامى كانوا يعتمدون على مقاييس عالية الدقة، ساعدتهم على عمل الزخارف والنقوش، والأشكال الهندسية الدقيقة، التي تزيّن المنازل القديمة، وجعلتها تتفرد بمزايا جمالية وفنية غاية في الإبداع، سواء في الشكل الخارجي الذي يعتمد على قوالب «الياجور» لعمل الزخارف الخاصة بالحزام ذي الخطوط المتكسرة، والذي يختتم به بناء المنزل الصنعاني، أو داخل الغرف التي تتميز بالنقوش الجبسية المنحوتة في أسقف وجدران المجالس، وغرف الاستقبال والصالات المفتوحة.

وتعتبر العمارة من أهم مجالات الإبداع الفني التي تفوّق فيها اليمنيون منذ ما يقارب أربعة آلاف عام، حيث يتجلّى هذا الإبداع في التقنية واستخدام العناصر والمواد التي تظهر بوضوح على المباني المشيّدة في فترات مختلفة من عصور ما قبل الإسلام.. وهذا يجسّد حقيقة أن اليمنيين أصحاب مهارة وذوق في هذا الفن الذي كان - ولا يزال- محتفظاً بشخصية محلية، تنبع من تقاليد يمنية عريقة في فن العمارة، التي تتميّز بخصائص فنية ظاهرة وصفات

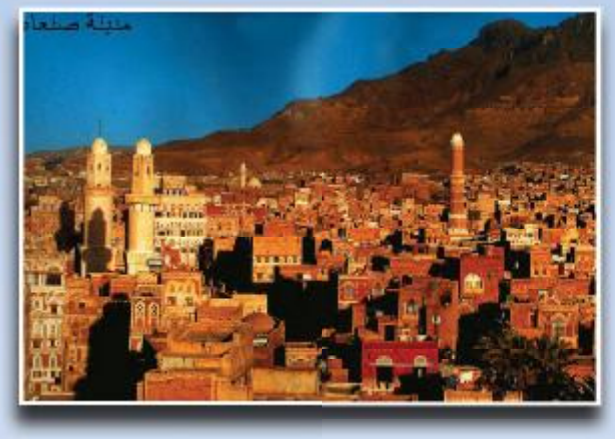

جمالها يفوق إبداعات التشكيليين ومعالمها المعمارية تجذب الزوار

رئيسية، استمدت أصولها من البيئة والطبيعة اليمنية، التي ظلت منذ أقدم العصور أهم عوامل التنوع الهائل، في طراز وأساليب فن العمارة في اليمن.

وعلى الرغم من تعدد جماليات البناء المعماري لمدينة صنعاء القديمة، إلّا أن «القمرية» بشكلها المقوّس الذي يعلو النوافذ، وبألوانها البراقة تبقى واجهة جمالية تشد زوار هذه المدينة العتيقة، وكان اليمنيون القدامى يأخذون أحجار الرخام والمرمر المصقول والقريب إلى اللون الزجاجي ويضعونه على الفتحات العليا للنوافذ، بعد تسويته على شكل نصف دائرة يسمى بالقمرية، لأنه كان يسمح بمرور الإضاءة إلى الداخل.

وجاءت المرحلة الثانية للقمرية باستخدام الزجاج الملوّن على الجبس، الذي يسهّل رسم الأشكال ونحتها عليه، الأمر الذي ساعد اليمنيين -العاملين في صناعة القمريات- على إبداع الكثير من الأشكال والزخارف التي ترتكز على عملية النحت بدرجة أساسية، ومن ثمّ تناسق ألوان الزجاج الذي يتمّ وضعه في أماكن النحت.

ولا يخلو منزل في مدينة صنعاء من «المفرج» -المأخوذ من الفرجة- وهو عبارة عن غرفة مستطيلة تبنى في آخر دور من المنزل، وتكون نوافذها الخشبية واسعة جداً، بحيث تتيح للجالسين مشاهدة أجواء المدينة ومناظرها وبساتينها، وعادة ما يكون المفرج مزيناً بالقمريات وبالنقوش الجبسية التي - دائماً - ما تكون على شكل حزام يربط سقف المفرج بالجدار، علاوة على النقوش الدائرية التي تتوسّط الأسقف.

نبض الحياة

صنعت أنامل اليمنيين القدامى من مدينة صنعاء لوحة فنية تفوق في جمالها إبداعات التشكيليّين، وتتجاوز خيالهم الخصب، وهي لوحة نابضة بالحياة، فمع بزوغ شمس كل يوم تبدأ الحياة والحركة تدبّ في مفاصل وأوردة هذه المدينة، التي يقصدها اليمنيون من كل مكان لقضاء حاجاتهم من أسواقها المتميّزة، كما يقصدها السواح العرب والأجانب الذين يأتون إليها من كل بقاع العالم للاطلاع على معالمها الأثرية والتاريخية، واقتناء النادر من تراثها ومصنوعاتها.

وتمسك مدينة «صنعاء القديمة» إلى جانب كل ذلك بزمام الريادة ثقافياً وفكرياً وعلمياً، فنبغ في أحضانها الكثير من جهابذة العلم والفكر والأدب، وكانت وما تزال منارة العلم، يأتيها العلماء فيجدون فيها ما يبتغون من العلوم والمعارف، وتقدّم لزوارها من الباحثين عن الإرث الإنساني والمتلهفين للوقوف في حضرة التاريخ العريق، ومحاكاة الحضارة تشكيلة ثقافية ومعرفية تجمع بين الأريج الذي لا يزال فوّاحاً بالأصالة والإبداع المعاصر، إنها مدينة صنعاء، متحف متعدد المزايا ومتنوع المحتوى.

العدد (٥٧٥) رجب ١٤٣٤هـ / مايو - يونيو ٢٠١٣م

نحو وعي إسلامي بدراسة التاريخ وتفسيره

التاريخ عند المسلمين (٢)

د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر

(التاريخ): في الراجح كلمة عربية يمنية جنوبية، تواتر أصلها بحروفها - (ورخ) - قديماً في لسان عرب الجنوب تواتراً يتعذّر حصره، محتوياً لمعنى القمر - أو بالأحرى: الهلال - دلالةً على بدء الشهر القمري عند بزوغ هلاله في أوّل ليلة منه، فصارت كلمة(ورخ) بعد ذلك في لسان العرب الجنوبي تدل على معنى كلمة الشهر القمري، ذلك أنّ تأريخهم للأيام والشهور كان تأريخاً قمرياً.

في حين قابلها في لسان عرب الشمال كلمة(العَدّ) - ووحدته الشهر أو الورخ - فهو يخالفها في اللّفظ ويوافقها في المعنى، دل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾(يونس:٥)، ومن صحيح السنة، الباب الذي عقده البخاري في صحيحه بعنوان «باب التاريخ، من أين أرخوا التاريخ»، ثمّ روى تحته خبرًا صحيحًا عن سهل بن سعد ﷺ قال: «ما عَدُّوا من مبعث النّبيّ ﷺ ولا من وفاته، ما عَدُّوا إلّا من مَقدمه المدينة» (صحيح البخاري برقم ٣٩٣٤)، فتأمل مقابلة البخاري بين لفظ الحديث (عَدُّوا) وبين لفظة الترجمة (أَرّخوا)، مما يعني تأكيد ما ذهبت إليه.

ومن الشعر، قول أمية بن أبي الصلت (ديوانه ص ٤٩):

والشَّهْرُ بين هلاله ومُحَاقِه أَجَلٌ لِعِلْمِ الناس كيف يُعَدَّدُ

وقد بدأ التاريخ مع العرب في الإسلام تقويمًا، الغرض منه تقييد الحوادث بالعَدّ أو بالتأريخ، وذلك أنّ الحاجة صارت ملحّة إلى أصل واحد يرجع إليه المسلمون جميعاً عند العَدّ أو التأريخ، يقيّد مصالح المسلمين ومعاملاتهم جميعاً على السواء، كمثل الأمر في جمع القرآن في عصر عثمان ﷺ حين ردّ المسلمين إلى حرف واحد لا يختلفون عليه، فبعد أنْ كانَ كل امرئ يرجع في عَدّه وتأريخه إلى ما شاء بما اشتهر عنده وقومه، صار هذا الأصل الذي اجتمع عليه المسلمون في عهد عمر ﷺ هو الأصل الذي ينبغي للمسلمين جميعاً التقيّد به لمن أراد التوريخ، وترك ما سواه، مع وجوب لزومه في المكاتبات والرسائل، بعد أنْ كان هذا الأمر قبل عهد عمر مهملاً على غير وجهة مضبوطة، أو على الخيار غير ملزم لأحد. فإنه على الرغم من إجماع القُدَماء على وجود تواريخ عرفتها العرب في جاهليتها، فإنّ ما وصل إلينا

من نقوشهم ووثائق معاهداتهم تدل على عدم التزامهم أصلاً بتاريخ واحد يتعارفون عليه، فتاريخ قريش يختلف عن تاريخ الغساسنة، وكلاهما يختلف عن تاريخ المناذرة، ناهيك عن تاريخ اليهود.. ولم يكن مع ذلك ملزما كما قلت، وإلّا فهذه صحيفة المشركين ضد بني هاشم حين حصروهم في الشِّعب، وهذا صلح الحديبية، وهذه كتب النبي ﷺ إلى ملوك الأمصار، وغيرها من العهود والمواثيق أين هي تواريخها؟ وما هي هذه التواريخ؟ وكأنهم اعتبروا بدء توقيع العهد أو الميثاق هو بداية تاريخ المعاهدة، ومنها يبدأ العد أو التاريخ، وكان هذا دأبهم في التوريخ والعَدّ من الجاهلية والإسلام، بل حتى بعد إلزام عمر بتاريخ واحد، واعتبارهم هذا التاريخ لا محيد عنه في العهود والمواثيق، لم نعدم مع ذلك بقاء بعضهم على فطرة العرب الأولى في التوريخ بما اشتهر لديه من حوادث لها شأنها وذكراها عنده، يدل على ذلك كثير من النصوص.

والعرب الشمالية وإن لم يكن لديهم قبل بعثة النبي ﷺ تقويم واحد يرجعون إليه، إذ أرخوا بمشهور الحوادث وبولاية الملوك، فهذا أمر كان كذلك عند الجنوبيين، حتى جاء الإسلام واجتمعوا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تقويم واحد هو التقويم الهجري الذي ألزم به الجميع دون سواه، وهذا المعنى لهذا اللفظ هو ما علمه المسلمون الأوَل من هذه الكلمة، وأكدته تصانيفهم الأولى حين جعلوه علمًا، له أصوله وضوابطه.

وهذا يدفع بنا إلى نتيجة أخرى، هي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمسلمين في عهده لم يبتدعوا في الإسلام تأريخاً كانوا يجهلون معناه قبل ذلك، بل علموه وعقلوه، ولكن كل ما فعله عمر وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين هو إلزام المسلمين بتاريخ لا يُختلف عليه ليس أكثر ولا أقل، ذلك أنّ القائل بابتداع عمر للتاريخ في الإسلام إنما ينفي بذلك عن العرب الأوّلين معرفتهم بالعَدّ أو التأريخ، وهذا خطأ.

ولكن بقي من حديثي هنا التنبيه على أهم ما ينبغي أنْ نخرج به مما سبق بعد التوضيح لدلالة هذه الكلمة (التاريخ) عند أهلها الأوّلين، وهو عدم الخلط بينها وبين ألفاظ أخرى استعملها المسلمون في هذا الباب، ولكن في غير هذا المعنى: كالأخبار، والسير، والمغازي، والأنساب، والأيام، والأنباء، والحديث، والأساطير، والأنساب، والقصص.. وهذه كلها ألفاظ استعملها المسلمون الأُول في هذا الباب، ولكن لتدل على معاني أخرى غير هذا المعنى الذي يحمله لفظ (التاريخ) لديهم، في حين جعل المعاصرون هذه الكلمة جامعة لكل هذه المعاني.

وقد ظل ذلك الفصل واضحاً في تصانيفهم الأولى، فالتاريخ عندهم لا يسمّى تاريخاً إلّا إذا كان محتوياً على الزمن عنصراً فيه، فإذا فقد عنصر الزمن انتقل مفهومه لديهم من التاريخ إلى أنواع أخرى من علوم الرواية عندهم، وهذا أمر قد وضح في تصانيفهم، فإنّا لا نكاد نرى كتاباً عندهم حمل اسم (التاريخ) إلّا وقد ثبتت فيه هذه الصفة.

يقول خليفة بن خياط موضحاً مفهوم التاريخ عنده وعند أهل عصره: «وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عدد نسائهم، ومحل ديونهم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾» (تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، ص٢٣).

وهذا الأمر وإنْ شابَهُ بعض التغييرات منذ القرن الرابع الهجري، حين بدأت الأخبار والقصص تأخذ طريقها إلى كتب التاريخ عند المصنفين المسلمين والعرب، منذ ذلك الحين حتى صارت الأخبار جزءاً لا ينفك غالباً عن التاريخ، فأصبحت بمثابة الجسد له، لا يكاد يتجسد التاريخ إلّا به، وصار كل مؤرخ في هذا العصر أخباريًا مؤرّخًا، وليس العكس.

فضلًا عن أنّ التاريخ حمل منذ ذلك الوقت معنى الأولى والآخرة، سَنَّ ذلك مؤرخ مجدد تزعم حركة انتقالية بين عصر وعصر، شارك في منهاج الأول وابتدع منهاج الآخَر، هو محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في تاريخه، وتبعه مَن بعده أسوة به، فلم يعد التاريخ هو (التأريخ) المطلق كما كان قبل، بل قيّده فهمٌ جديدٌ أضاف لـ (التاريخ) في هذا العصر معنى جديداً، فلم يعد (التاريخ) مجرد العَدّ، ولا مجرد التقييد على الأيام والسنين فحسب، بل صار مع ذلك هو العبرة في الدنيا للفوز بالآخرة، فهو: (تاريخ الرسل والملوك)، و(تجارب الأمم) و(مرآة الزمان)، و(البداية والنهاية)..

فالتاريخ ـ كما قلت آنفا ـ لم يعد منذ هذا الزمان كما كان سابقاً في أوّل الإسلام، التقييد المجرد للحوادث والوفيات عبر الأيام والسنين، فإن الدولة قد اتسعت مع الأيام، تعاقبت فيها ملوك وأتت أخرى، وتقلبت بها أعصار، وأصابتها نوائب ونوازل تستحق أنْ تروى ليُعتبر بها، فضلًا عن أمم سبقت أخبر عنها القرآن احتيج إلى التأريخ لها والتعرف عليها، فكانت الحاجة إلى تقييد ذلك كله واجبة، فكان التاريخ هو وعاء هذه الأخبار، شريطة أنْ يُعتَبر عامل الزمن عند إلحاق هذه الأخبار في ثناياه، حتى يحمل معنى (التاريخ) وإلّا ألحق حسب طبيعة ما يروى بأنواع أخرى من أنواع سرد الرواية والخبر، كالأخبار أو السير أو القصص أو الأيام..

وحول هذا المعنى كانت تدور عبارات من تناول هذا العلم بالدراسة والتحقيق في هذه الأعصر المتأخرة حتى قبيل العصر الحديث.

مصطفى حجازي..
شيخ المحققين وأستاذ اللغويين

التحرير

قيمة علمية وقامة لغوية.. عنوانها البذل والعطاء على مدار عشرات السنين.. ساهم بشكل جلي في إحياء اللغة العربية والتراث الإسلامي، وكان أحد مؤسسي مراكز البحث العلمي واللغوي في عالمنا العربي والإسلامي، إنه العالم الجليل شيخ المحققين الأستاذ مصطفى حجازي، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولد مصطفى عوضين حجازي في قرية برمبال الجديدة في مركز دكرنس بالدقهلية في مصر بتاريخ ١٠ من يناير ١٩٢٣م، وحصل على ليسانس في اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية، من دار العلوم، جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) سنة ١٩٥٠م، ودبلوم في التربية وعلم النفس في جامعة إبراهيم باشا (عين شمس) سنة ١٩٥١م، ودبلوم الدراسات العليا في البلاغة والنقد من كلية دار العلوم سنة ١٩٦٢م.

تأثر ببعض العلماء والشيوخ، على رأسهم شيخنا وأستاذنا الكبير عبدالسلام هارون، والدكتور محمد مهدي علام رحمهما الله جميعًا، وحفظ القرآن على يد الشيخ محمد شبانة، وكان كفيفًا.

دخول المَجْمَع

كان اختياره للعمل في المجمع قصة بدأت عندما كان د.طه حسين رئيسًا للمجمع، وكان د.إبراهيم مدكور أمينًا عامًا للمجمع، فقد رأى المجمع الاستعانة بأحد النجباء لنقص اثنين من الموظفين النجباء في التربية والتعليم، ولسدِّ عجز المجمع في هذا المكان، فاستعين بالأستاذ مصطفى حجازي والأستاذ إبراهيم الترزي الذي كان أمينًا عامًا للمجمع بعد ذلك.

تدَّرج في وظائف عدة، بداية من عمله مدرسًا للغة العربية والتربية الدينية بوزارة المعارف سنة ١٩٥٠، ثم اختياره كمحرر أول للمعجم الكبير في مجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١م، حتى صار مديرًا عامًا للمعجمات وإحياء التراث سنة ١٩٧٨م، وعضوًا في لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للثقافة سنة ١٩٨٠م.

أعير للعمل بكلية الشريعة بجامعة الملك عبدالعزيز بمكة في العام الجامعي ١٣٩٧/١٣٩٨هـ، ثم انتقل رئيسًا لقسم التراث العربي بوزارة الإعلام في دولة الكويت، من سبتمبر ١٩٨٢م، حتى يناير ١٩٨٨م.

اختاره المجمع خبيرًا في لجنة المعجم الكبير في يناير ١٩٨٨م، حتى مايو ١٩٩٢م، وانتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية في ١٨ من مايو سنة ١٩٩٢، وشغل مقعد المرحوم الدكتور أحمد السعيد سليمان، واختير عضوًا مراسلًا في مجمع اللغة العربية بدمشق في ٩ من أغسطس سنة ١٩٩٣م.

حصل مصطفى حجازي على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب (تحقيق التراث) سنة ١٩٨٥م، ومنح نوط الامتياز في العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٥م، ورشحه المجمع لجائزة الدولة التقديرية (في الآداب) في ديسمبر ٢٠٠٣م، وأعاد المجمع ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية في الآداب في نوفمبر ٢٠٠٤م، ثم في أكتوبر ٢٠٠٥م.

نشاطه العلمي

ساهم مصطفى حجازي في التأليف

وتحقيق التراث من خلال الإصدارات التالية:

١- «صفحات عن إيران» بالاشتراك مع الأستاذ/ صادق نشأت سنة ١٩٦٠م.

٢-«الدروس العربية لتلاميذ المدارس الإيرانية» بالاشتراك مع الأستاذ/ صادق نشأت سنة ١٩٦١م.

٣- حقق «تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن» لعبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني: ١٩٦٥م.

٤- حقق «المنازل والديار» لأسامة ابن منقذ، وصدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٦٨م، وأعيد طبعه مرارًا.

٥- حقق عشرة أجزاء من تاج العروس شرح القاموس المحيط، هي الأجزاء (٥ و١٢ و١٧ و٢٢ و٢٤ و٢٥ و٢٧ و٣٠ و٣٥ و٣٧) والجزء ١٥ بالاشتراك بتكليف من وزارة الإعلام بدولة الكويت، وصدرت تباعًا فيما بين سنتي ١٩٦٩م و٢٠٠١م.

٦- حقق الجزء العاشر من «المحكم» في اللغة لابن سيده: وصدر عن معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٧٧م.

٧- حقق الأجزاء: التاسع، والحادي عشر، والثاني عشر من «المحكم» في اللغة بالاشتراك، وصدرت عن معهد المخطوطات العربية في ١٩٩٦ و١٩٩٨ و١٩٩٩م.

٨- حقق الجزء ٣٣ من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري، وصدر عن الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٧م.

٩- كتاب زهر الربيع للرازي، وهو اختصار كتاب ربيع الأبرار للزمخشري، وصدر سنة ٢٠١٠ من هيئة الكتاب.

١٠- كتاب اقتطاف الزهر واجتناء الثمر، لابن بري التازي، وهو اختصار زهر الآداب للحصري، وصدر عن مجمع اللغة العربية سنة ٢٠١١م.

راجع ودقق الكتب الآتية:

وزارة الإعلام استعانت به لإكمال مشروع «تاج العروس»

- «منال الطالب في طوال الغرائب»، لابن الأثير، تحقيق الدكتور محمود الطناحي - وزكاه للنشر - بتكليف من مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بمكة المكرمة، وصدر سنة ١٤٠٢هـ.

- «أدب الطبيب» لإسحق بن علي الرهاوي، تحقيق الدكتور مريزن سعيد عسيري، بتكليف من مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بمكة المكرمة، وصدر سنة ١٤٠٩هـ.

- كتاب «خلق الإنسان» في اللغة لأبي محمد الحسن بن أحمد بن عبدالرحمن، تحقيق الدكتور أحمد خان، الأستاذ بالجامعة الإسلامية ببهاكستان، وصدر عن معهد المخطوطات العربية بالكويت سنة ١٩٨٦م.

- راجع تحقيق خمسة أجزاء من تاج العروس، بتكليف من وزارة الإعلام الكويتية، هي الأجزاء: (٢١ و٢٣ و٢٦ و٣٣ و٣٤).

ذكريات مع الطناحي وشاكر

كان للأستاذ مصطفى حجازي ذكريات مع العلامتين محمود شاكر ومحمود محمد الطناحي، فيقول: كان الطناحي من الباحثين الجادين والمعهود فيهم سمات العالم الفذ المتواضع، وكان يشجع الشباب، وانتهج خط أستاذه عبدالسلام هارون، وأفاده أنه احتكَّ بالأستاذ محمود شاكر في الفترة التي شرف فيها المجمع بعضويته، وكان أبوفهر مقلا في البحوث وكان يساعد الباحثين في الدول العربية، لأنه كان يحوز مكتبة عظيمة.

نشاطه المجمعي

صحب الأستاذ حجازي المعجم الكبير منذ الدورة المجمعية الثامنة والعشرين (١٩٦١- ١٩٦٢م)، التي رسمت فيها خطته، ووضع منهجه، فكان المحرر الأول له، ثم صار رئيسًا للتحرير، فمديرًا عامًا للمعجمات وإحياء التراث.

اضطلع بإخراج الجزء الثاني من المعجم الكبير، فضبط أصوله، ورقمها، وراجع تجاربه كلها، وصدر في مطبوعات المجمع سنة ١٩٨١م، ووضع كتابًا بعنوان «المعجم الكبير: المنهج والتطبيق» بسط فيه منهج المعجم في إيراد مادته اللغوية، وترتيب مداخلها الفعلية والاسمية، وأسلوبه في الاستشهاد في المعاني والاستعمالات، ومنهجه في إيراد مادته الموسوعية، من: المصطلحات، وأعلام الأشخاص، وأسماء المواضع والبلدان، والحيوانات... إلخ، وأورد نماذج لتحرير كل منها، وصدر في مطبوعات المجمع سنة ١٩٨١م.

كما أشرف على وضع ومراجعة «فهارس ديوان الأدب» للفارابي، و«فهارس كتاب الجيم» لأبي عمرو الشيباني، وصدرت في مطبوعات المجمع سنة ١٩٨٣م، وأشرف على إخراج «المعجم الوجيز»، وكتب مقدمة طبعته الأولى، وصدر سنة ١٩٨٠م.

شارك في إعداد وإخراج الجزأين: الثاني والثالث من كتاب «في أصول اللغة» وصدرا سنة ١٩٧٥م، وسنة ١٩٨٣م، والجزء الأول من كتاب «الألفاظ والأساليب»، وصدر سنة ١٩٧٧م.

خَلَفَ المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارون في الإشراف على مراجعة وإخراج معجم ألفاظ القرآن الكريم

سنة ١٩٨٩م.

بعد اختياره خبيرًا بالمجمع لِلَجْنَتَي المعجم الكبير من ١٩٨٨-١٩٩٢م، عمل عضوًا في اللجان الآتية:

١- لجنتي المعجم الكبير (العامة والتنسيق) ثم صار مقررًا لهما من سبتمبر ٢٠٠١م.

٢- لجنة إحياء التراث، ثم صار مقررًا لها خلفًا للمرحوم الشيخ محمود محمد شاكر من أكتوبر سنة ١٩٩٨م.

٣- لجنة مراجعة المعجم الوسيط لتحديثه وإعداده للطبعة الرابعة (٢٠٠٤م).

لجان التحكيم

١- حكم كتاب «المسلمون والأقباط» في إطار الجماعة الوطنية، للمستشار طارق البشري ط١٩٨٠، وأجازه للتداول والنشر، وتلقى عنه خطاب شكر من وزير الثقافة حينذاك، السيد عبدالحميد رضوان.

٢- اختير مقررًا للجنة تقييم الأعمال المقدمة لجائزة الدولة التشجيعية في الأدب (تحقيق التراث) سنة ١٩٩٣م.

٣- حكم بحوث لبعض المجلات المحكمة، ولاسيما «مجلة مجمع اللغة العربية الأردني»، و«مجلة معهد المخطوطات العربية»، و«مجلة الأحمدية» التي تصدرها دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث في حكومة دبي.

٤- اختير عضوًا محكمًا في البحوث التي تقدم في الدراسات الإسلامية للجائزة التي تمولها وزارة الأوقاف الكويتية، وتشرف عليها جامعة الأزهر، منذ العام الجامعي ٩٨/١٩٩٩م.

٥- اختير مقررًا للجنتي المعجم الكبير، وإحياء التراث منذ سنة ٢٠٠١.

مراجعات

١- راجع تحقيق الجزأين: الرابع والخامس من كتاب «غريب الحديث» لأبي عبيد، وصدرا في مطبوعات المجمع (١٩٩٣ و١٩٩٤م).

٢- راجع تحقيق الجزء السابع من «تكملة القاموس» للزبيدي، وصدر ١٩٩٦م.

٣- راجع تحقيق الجزء الرابع من كتاب «ما يعول عليه للمحبي»، وهو قيد الطبع.

٤- راجع تحقيق الجزء الثالث من «شرح ديوان رؤبة»، وهو قيد الطبع.

شيخ المحققين

يقول عنه أمين عام مجمع اللغة العربية الأستاذ فاروق شوشة، في مقدمة كتاب «المجمع وإحياء التراث» الصادر ٢٠٠٧م: العالم الجليل الأستاذ مصطفى حجازي عضو مجمع اللغة العربية، ومقرر لجنة المعجم الكبير، ولجنة إحياء التراث بالمجمع، هو شيخ المحققين في زماننا، ورأس مدرسة في التحقيق اللغوي - بوجه خاص- تتلمذ ويتتلمذ عليه فيها أجيال من الباحثين والمحققين، من أبناء المجمع، ومن الخبراء والفنيين في إدارة المعجمات وإحياء التراث، والجامعات المصرية والعربية.

هذه المكانة العلمية واللغوية للأستاذ مصطفى حجازي لم تأت من فراغ، وإنما هي نتيجة عمل دائب، وجهد موصول، هو بالنسبة لصاحبه رسالة حياة، منذ وهب نفسه وكل طاقاته لهذا العمل، وأخلص له الإخلاص الذي يتحقق به نجاح بعد نجاح، وتوفيق إثر توفيق. نذكر منه كتاب «الشوارد» للصاغاني، وتحقيق أربعة أجزاء من «تكملة القاموس» للزبيدي، والجزء الأول من «التنبيه والإيضاح» لابن بري، والجزء العاشر من «المحكم والمحيط الأعظم» في اللغة لابن سيده، والمشاركة في تحقيق ثلاثة أجزاء أخرى منه، وتحقيق عشرة أجزاء من «تاج العروس» وجزء آخر منه بالاشتراك، بالإضافة إلى مراجعته لتحقيق الجزأين الرابع والخامس من «غريب الحديث» لأبي عبيد.

والأستاذ مصطفى حجازي - العالم الكبير في جوهره وحقيقته، الشديد التواضع في سمته وإطلالته - نموذج فريد للجمع بين موسوعية العالم وثبات المبدع، من هنا كانت اهتزازاته الشعرية - في العديد من المناسبات المجمعية والحياتية - كاشفة عن وجدانه الشديد الرهافة والحساسية، المتوهج بأنبل المشاعر والأحاسيس الإنسانية، والزاخر دومًا بالمحبة الخالصة والصفاء المطلق في علاقاته مع كل من حوله، وكأنه النسمة الصافية التي يستروحها المجمعيون - في كل درجاتهم ومستوياتهم - كلما اشتدت بهم الحاجة إلى تجديد الأنفاس والمزيد من حفز الطاقات. ولاشك أن المحقق الذي يسكنه ولا يفارقه قد أفاد كثيرًا من ذوق المبدع وحساسية الشاعر الكامن فيه، يشير ويوجه ويتخير.

منهجية التحقيق

عرف الأستاذ حجازي أنه كان يعتمد على بعض الأدوات الأساسية للتحقيق، منها النسخة القديمة للسان العرب لابن منظور، وليست طبعة المعارف، و كانت عليها بعض التعليقات بخط يده، كذلك هناك نسخة أخرى للمعجم الوسيط الذي أصدره المجمع ممهورة بتعليقات وإفادات.

تجربته في الكويت

كان الأستاذ عبدالستَّار فراج رحمه الله مسؤولًا عن التراث العربي بوزارة الاعلام الكويتية، وعلى وجه التحديد مشروع تحقيق ونشر كتاب تاج العروس، ولقد رشح الأستاذ حجازي لهذا العمل، وعندما توفي عبدالستار فراج رأت وزارة الإعلام الكويتية الاستعانة بالأستاذ مصطفى حجازي، ولقد كان هو من استكمل العمل في كتاب تاج العروس.

لماذا حرم ديننا الحنيف الخمر؟

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:٩٠).

وفي الحديث عن النبي ﷺ «وما أسكر كثيره فقليله حرام».

يتضح لنا جليًا من الآية الكريمة والحديث الشريف مدى تأكيد ديننا الحنيف على تحريم الخمر، بسبب أضرارها السيئة على النفس والجسم كما أثبت ذلك الطب الحديث.

فمن أهم أضرار الخمر على جسم الإنسان أنها تضر بمعظم أجهزة الجسم الرئيسية، كالجهاز الهضمي، ويبدأ الضرر به ابتداء من الفم إلى الشرج، وقد تلتهب الأغشية المخاطية المبطنة لهذا الجهاز، مما ينتج عنه تقرحات، وتظهر أمراض كثيرة في صورة اضطرابات هضمية متعددة.

ومن أخطر العواقب:

١- أنها تضر الكبد أضرارًا خطيرة، تصل إلى درجة حدوث تليف في الكبد.

٢- الجهاز العصبي، فتسبب التهاب الأعصاب، مما يجعل من شارب الخمر مضطربًا عقليًا وفكريًا.

وقد يؤدي شرب الخمر إلى نوع من أنواع الجنون، ولهذا علم العقلاء من الناس في الزمن الماضي والحاضر أضرار الخمر على الأعصاب والمخ والنفس، فتجنبوه من تلقاء أنفسهم حتى على أيام الجاهلية.

فقد ذكر عن عباس بن مرداس أنه لم يشرب الخمر، لأنه كان سيدًا في قومه، ولم يرض لنفسه أن يصبح سفيهًا من سفهائهم.

٣- العين والبصر، الخمر تضعف قوة الإبصار مما يؤدي إلى عدم وضوح الرؤية، وقد ينتهي الأمر بشارب الخمر إلى فقدان نعمة البصر بالكلية.

٤- الأنف والحنجرة، الخمر تسبب التهابات متنوعة، منها الحادّ والمزمن في الحلق والحنجرة والبلعوم.

٥- الكلى، الخمر ترفع نسبة السموم في الدم، فتضعف قدرة الكلى على طرد السموم من الجسم.

٦- الأوعية الدموية والقلب والرئتين، الخمر تؤثر على الأوعية الدموية مما يؤدي إلى تصلب الشرايين، مما يؤثر على عضلة القلب والرئتين وضغط الدم وغير ذلك، وقد يكون من ختام تلك المضاعفات الموت المفاجئ.

من هذا يتبين لنا أن تحريم شرب الخمر جاء لفائدة الإنسان وغيره، من الوجهة الدينية والصحية. وطاعة الله سبحانه وتعالى والاستماع إلى أوامره وتجنب ما نهى عنه إنما هو اتباع لأحسن تعاليم وصفت لخير البشرية وللناس عامة.

د. محمد عبدالله الصديقي
طبيب كويتي

إعداد : محمود محمد الكبش
باحث بوحدة البحث العلمي في إدارة الإفتاء

● **أنواع الفتوى وطرقها:**

قال الإمام الشّاطبي رحمه الله: «الفتوى من المفتي تحصل من جهة القول، والفعل والإقرار». «الموافقات» (٥/٢٥٨).

يؤخذ من قول الشاطبي أنّ بيان الفتوى يحصل بالقول والفعل والإقرار، وهذا مشهور لا خلاف فيه، معروف من جهة الاستقراء والتتبع لموارد الفتوى في الكتاب والسنة.

وإليك بيانَها والوقوفَ على أمثلة طرقها:

النّوع الأوّل- الفتوى بالقول أو اللّفظ:

قال الإمام الشّاطبي بعد بيان طرق حصول الفتوى: «فأمّا الفتوى بالقول فهو الأمر المشهور، ولا كلام فيه».

يقول الإمام القرافي رحمه الله تعالى: «والأحسن أن يكون البيان له (أي للمستفتي) باللّفظ دون الكتابة، فإنّ اللّسان يُفهم ما لا يُفهمه القلم، فإنّه حيٌّ، والقلم ميّت، فإنّ الخلق عيال الله، وأقربهم إليه أنفعهم لعياله، لا سيما في أمر الدِّين، وما يرجع إلى العقائد». «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام» (١٢٧).

ومن أمثلة الفتوى بالقول، وهي كثيرة، بل هي أغلب نصوص الشّريعة:

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة:٤)، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:١).

ولمّا سُئِل رسول الله عن الوضوء بماء البحر قال: «هو الطهور ماؤه، الحلّ ميْتَتُهُ» (رواه مالك في الموطأ).

النّوع الثّاني- الفتوى بالفعل: وقد بيّن الإمام الشّاطبيُّ أنّ هذا النّوع

فتاوى الوعي

شروط الوصيّة وأين توثّق؟

(٩/٣٠٨/٢٧٤٠)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصُّه:

ما هي شروط الوصية؟ ما الصيغة الشرعية والقانونية لها؟ هل يجوز الوصية لأشخاص يعيشون في دول أخرى؟ هل يوجد أي نصائح يمكن الاستفادة منها؟

فأجابت اللجنة بالتّالي:

الوصية الشرعية لا ينبغي أن تكون لوارث، ولا أن تزيد على الثلث، ولا أن يوصى فيها بمحرّم. والله أعلم.

ثم وجهته اللجنة إلى وزارة العدل لتسجيل الوصية وتوثيقها.

هل تقسم التركة أولًا أم تخرج الوصية؟

(٥/٣٠١/١٦٠٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصُّه:

عند توزيع التركة يبدأ أولًا باستخراج (الثمن) للزوجة أم (الثلث) الموصى به؟

فأجابت اللجنة بالتّالي:

إن التركة شرعًا تكون بعد الوصية والدَّين، فإن الله تعالى بعد أن قسم التركة ذكر أن هذا التقسيم: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ (النساء: ١٢)، فتقسيم التركة حسب الأنصبة التي بينها الله تعالى في سورة النساء يكون بعد الوصية والدَّين، فالزوجة تستحق ثمن التركة إذا كان نصيبها الثمن فيما يبقى بعد الوصية أو الدين. والله أعلم.

هل للورثة أن يعترضوا على وصية مورثهم؟

(٧/٢٤٦/٢١٦٥)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصُّه:

رجل وهب لزوجته بيتًا، وهذه الزوجة تريد أن تجعل هذا البيت وقفًا لله تعالى، فهل يحق للورثة أن يعترضوا على ذلك، علمًا بأن لديها تركة أخرى من زوجها جعلتها لورثتها؟

- وقد أفادت المستفتية بأنها تريد أن توقف البيت بعد وفاتها على ابنتها ثم ذريتها وذرية ذريتها.

فأجابت اللجنة بالتّالي:

يجوز لها أن توصي بأن يكون البيت المذكور وقفًا على ذريتها وفعل الخير، ولا ينفذ إلا في حدود الثلث، إلا إذا أجازه

(أي بيان الحكم الشرعي بالفعل) من وجهَين:

أحدهما: ما يقصد به الإفهام في معهود الاستعمال، فهو قائم مقام القول المصرح به، كقوله عليه الصلاة والسلام: «الشّهر هكذا وهكذا وهكذا» وأشار بيديه» (رواه البخاري)، وقال: «يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج. قيل: يا رسول الله وما الهرج؟ فقال هكذا بيده، فحرفها، كأنه يريد القتل». (رواه البخاري).

والثاني: ما يقتضيه كونه أسوةً يقتدى به، ومبعوثًا لذلك قصدًا، وأصله قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ (الأحزاب: ٣٧)، وقال ﷺ: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي» (رواه البخاري)، و«خذوا عنّي مناسككم» (رواه مسلم) («الموافقات» (٥/٢٥٨) وما بعدها).

ويدخل في الفتوى بالفعل الفتوى بالإشارة والكتابة، وهو ظاهر، وأمثلتُهُ مشهورة.

قال ابن القيم: «وقد كان رسول الله ﷺ يُرسل كتبه إلى الملوك إلى الأمم يدعوهم إلى الإسلام؛ فتقوم عليهم الحجّة بكتابه، وهذا أظهر من أن ينكر» «إعلام الموقعين» (٤/٢٦٥).

وقال الإمام السيوطي: «وأمّا القادر على النّطق، فإشارتُهُ لغوٌ إلّا في صُوَر: الأولى إشارة الشيخ في رواية الحديث كنطقه، وكذا المفتي». «الأشباه والنظائر» (ص٣١٢). ومن ذلك: لما سئل عليه الصلاة والسلام في حَجَّته، فقال: «ذبحتُ قبل أن أرمي»، فأومأ بيده، قال: «ولا حرج» (رواه البخاري).

النّوع الثّالث– الفتوى بالإقرار: قال الإمام الشّاطبي: «وأمّا الإقرار، فراجع إلى الفعل، لأنّ الكفّ فعلٌ، وكفُّ المفتي عن الإنكار إذا رأى فعلًا من الأفعال كتصريحه بجوازه، وقد أثبت الأصوليّون ذلك دليلًا شرعيًّا بالنسبة إلى النّبيّ ﷺ، فكذلك يكون بالنّسبة إلى المنتصب بالفتوى، وما تقدّم من الأدلّة في الفتوى الفعلية جارٍ هنا بلا إشكال». «الموافقات» (٥/٢٦٥).

ومنه: قول أبي بن كعب رضي الله عنه: «الصّلاة في الثوب الواحد سُنَّةٌ، كنّا نفعلُهُ مع رسول الله ﷺ، ولا يُعابُ علينا» «مسند أحمد» (ح٢٠٣١٦).

الورثة بعد الوفاة.

وقد قدمت المستفتية وثيقة صادرة من المحكمة تفيد أنها أوقفت البيت وقفًا معجلًا، لكنها تؤكد أنها لا تريد أن تجعله معجلًا.

وأفادتها اللجنة:

بأنّ عليها أن ترجع إلى المحكمة لتغير الوثيقة من وقف ناجز إلى وصية بالوقف بعد الوفاة. والله أعلم.

وصية المريض اليائس

(٢/١٤٨/٥٠٤)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصُّه:

ما حكم وصية المريض بمرض ميئوس منه يتوقع وفاته؟

فأجابت اللجنة بالتّالي:

وصية المريض مرضًا ميئوسًا منه صحيحة ما دام عقله سليمًا، وتكون نافذة في حدود الثلث، فإن زادت عن الثلث فيتوقف نفاذ ما زاد على الثلث على إذن الورثة بعد وفاته. والله أعلم.

المراد بالوصية للخيرات والمبرات

(٧/٢٤٨/٢١٦٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي، ونصُّه:

ترد في إقرارات الوصايا بالثلث التي تعمل في المحكمة الشرعية في الكويت أن الوصي أوصى من بعد موته بثلث ما يملك للخيرات والمبرات، ومن احتاج من ذريته؛ فليأكل منه بالمعروف.

والسؤال: ما معنى (الخيرات والمبرات)؟ وهل تدخل بعض الحاجات المستجدة مثل التكييف والتلفزيون والثلاجة والسيارة، أو ترميم البيت، أو بناء غرف إضافية فيه؟ فهل تدخل هذه في إطار الخيرات والمبرات؟ وما المعيار لتقدير ذلك؟

فأجابت اللجنة بالتّالي:

المراد بالخيرات والمبرات كل ما يسد حاجة أساسية للفقراء والمحتاجين كالطعام والكساء والعلاج والتعليم والإيواء، وذلك بإعطاء المستحقين من الفقراء ما يوفون به هذه الحاجات، أو بناء مرافق عامة ينتفع بها الفقراء كالمستشفيات والمدارس ودور الأيتام، وما يتعلق بهذه المرافق من سيارات أو تكييف يحتاج إليه، أو ثلاجات يحتاج إليها، وترميم هذه المرافق، أو بناء غرف إضافية فيها إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وأما التلفزيون فلا يكون شراؤه للاستعمال الخاص للأسرة من المبرات والخيرات، وأما في المؤسسات الخيرية فيجوز أن يكون من الخيرات إن احتيج إليه للتعليم لا للترفيه والتسلية.

والمعيار لتقدير ذلك هو سد حاجة الفقراء الذين لا يجدون ما يوفون به حاجياتهم الأساسية. والله أعلم.

الوعي نت

إعداد : خالد محمد

تفاصيل الهجوم الإلكتروني على المواقع الصهيونية

وفقاً لما أعلنته مجموعة تسمي نفسها (الأنونيموس) قامت باختراق آلاف المواقع الإسرائيلية وآلاف حسابات البريد الإلكتروني، بالإضافة إلى اختراق قواعد بيانات بنك القدس ووزارة الشؤون الخارجية ومسحها بالكامل، وكشفت المجموعة عبر تويتر عن تعطل وتضرر أكثر من ٩ آلاف موقع إلكتروني يخص إسرائيل، في إطار العملية التي أطلقت عليها باللغة الإنجليزية اسم (OpIsrael).

وقامت المجموعة بهجمات حجب الخدمة (DDoS) الشهيرة، ونشرت لائحة بأسماء ٦٥٩موقع إنترنت إسرائيلي تم اختراقه وإيقافه عن العمل.

ووجّه أعضاء أنونيموس رسالة إلى العالم من خلال مقطع فيديو على اليوتيوب ذكروا فيها أن «أقوى المخترقين من مختلف أنحاء العالم قد قرروا أن يتوحدوا في كيانٍ واحد تضامُنًا مع الشعب الفلسطيني ومحو إسرائيل من على الإنترنت».

وعن الانتهاكات التي تقوم بها الحكومة الإسرائيلية، قالت أنونيموس «أنتم لم تتوقفوا قط عن انتهاكاتكم التي لا تنتهي لحقوق الإنسان.. لم تتوقفوا قط عن المستوطنات غير الشرعية، لم تحترموا وقف إطلاق النار، بل حتى لا تحترمون القانون الدولي».

وبحسب موقع عالم التقنية الإخباري، نشرت المجموعة لائحة أخرى تحوي أكثر من ألفي عنوان بريد إلكتروني مع كلمات المرور الخاصة بها، تمت سرقتها من قاعدة بيانات تعود إلى موقع dirotmodiin. co.il المتخصص بالعقارات، وعدد كبير أيضًا من حسابات البريد الإلكتروني على مواقع خارجية.

كما تمت مهاجمة موقع بلدية تل أبيب الرسمي tel-aviv.gov.il ومواقع رسمية أخرى ومسح كافة قواعد بياناتها.

وأشارت تقارير لموقع البي بي سي إلى أن من بين الجهات التي استهدفت مواقعها على الإنترنت مكتب رئيس الوزراء ووزارتي الدفاع والتعليم ومكتب الإحصاءات المركزي.

تقنية جديدة تتيح للمدرسين تتبع ما يقرأه طلابهم

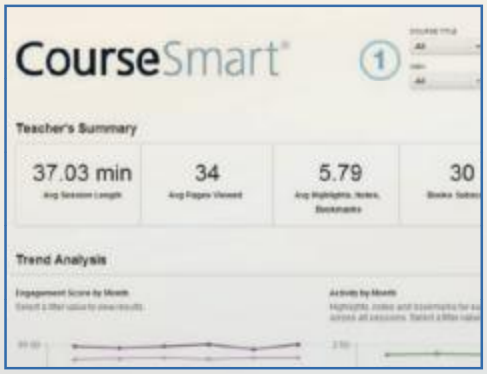

كشفت شركة cour sesmart الأميركية عن تقنية جديدة تتيح للمدرسين معرفة ما إذا كان طلابهم يقرأون الكتب المطلوبة منهم قراءتها أم لا.

وأوضحت الشركة أن التقنية الجديدة تقوم بإنشاء إحصائيات تفصيلية حول ما قام الطالب بقراءته، سواء عدد الصفحات أو مدة القراءة. وقدمت CourseSmart تلك التقنية في كتب إلكترونية تقوم هي بإعدادها ونشرها على الإنترنت، كما توفرها في شكل تطبيقات للأجهزة الذكية.

وبحسب البوابة العربية للأخبار التقنية، توفر الإحصاءات القائمة على التقنية التي أطلق عليها CourseSmart Engagement Score Technology، تنبيهات بأسماء الطلاب الذين لم يهتموا بإنجاز فروضهم، بالإضافة إلى أسماء أكثر الطلاب اهتمامًا بقراءة ما طلب منهم. وتشير الشركة إلى أن مثل تلك الإحصاءات ستسهل على المدرسين التنبؤ بالطلاب الذين قد يهبط مستواهم الدراسي بسبب عدم اهتمامهم بقراءة الكتب المطلوبة منهم أو إنجاز فروضهم.

يذكر أن التقنية الجديدة تلك يمكن استخدامها مع أي كتب إلكترونية تفرضها مدرسة ما أو معهد أو جامعة على طلابها، حيث وفرت الشركة إمكانية إضافة تلك التقنية لكتب أي مؤسسة تعليمية باتفاق مسبق.

واجهة اجتماعية للفيسبوك على أندرويد

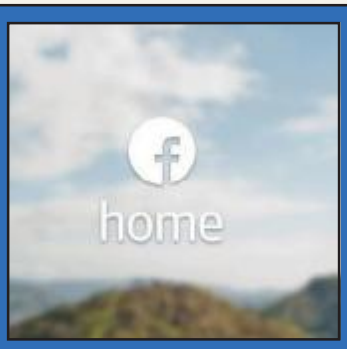

أعلنت إدارة موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك خلال مؤتمر صحفي عن واجهة جديدة تعمل على الهواتف الذكية بنظام الأندرويد، ويطلق عليها اسم فيس بوك هوم facebook Home، وتم نشر التطبيق في عدد محدود من الهواتف وهي HTC One X، HTC One X+، Samsung GALAXY S III and Samsung GALAXY Note II. HTC One ،GALAXY S٤

ووعدت فيسبوك بتعميمه قريبًا على جميع الأجهزة.

عند فتح التطبيق لأول مرة على جهازك سيسألك إن كنت تريد تحديده كواجهة أساسية لجهازك، لدى القيام بالاختيار ستستطيع التمتع بالميزات الجديدة للواجهة، حيث يمكن عرض المحتوى المنشور من الأصدقاء بطريقه جميلة وواضحة، خصوصًا عندما يكون العرض عبارة عن صورة، وعند الرغبة بكتابة تعليق يمكن ذلك من خلال الضغط على زر أيقونة التعليقات الموجود في الأسفل، وعند الضغط على زر الإعجاب فإنه يتم بطريقه سريعة من خلال الضغط على الشاشة مرتين، كما تستطيع دائمًا العودة إلى واجهتك الأساسية عبر الدخول إلى إعدادات التطبيق واختيار إلغاء الواجهة.

تويتر الوهمي يحقق مليون دولار في أسبوع

أصبح من المعروف أن أساليب التربح من شبكة التواصل الاجتماعي «تويتر» إنشاء حسابات وهمية تحصل على عدد كبير من المتابعين، ومن ثم استخدام هذه الحسابات في الدعاية التجارية أو بيع أعداد المتابعين (الفلورز). والمفاجأة أن هؤلاء المتابعين أيضًا قد يكونون وهميين.

وفقًا لتقرير نشرته صحيفة نيويورك تايمز، ونشر ترجمته العربية موقع عالم التقنية، والذي أعده الباحثان الإيطاليان آندريا ستروبا وكارلو دي ميكايلي، والذي كشف عن حقائق وأرقام مثيرة خلال شهرين من بحثهما، وهي:

- عدد الأيام التي يستغرقها بائعو هذه الخدمة لإنشاء ما يصل إلى ١٠٠ ألف متابع وهمي جديد، هي خمسة أيام فقط.
- مليون دولار، هو ما يمكن أن يتحصل عليه أصحاب الحسابات الوهمية خلال أسبوع واحد.
- وصلت التقديرات إلى أن عدد الحسابات الوهمية على تويتر هي ٢٠ مليون حساب.
- متوسط سعر ١٠٠٠ متابع وهمي هو ١٨ دولار.
- يمكنك الحصول على ١٢٥ إعادة لتغريداتك يوميًا ولمدة شهر بسعر ١٥٠ دولار، ولمن يبحث عن الجانب الأقل تكلفة، هناك من يقوم بخمس إعدادات للتغريد مقابل ٩ دولار في اليوم الواحد.
- أعلى مكسب يستطيع تحقيقه أصحاب مشاريع الحسابات الوهمية تتراوح بين ٤٠ دولار إلى ٣٦٠ مليون دولار.
- نسبة مستخدمي تويتر الحقيقيين الذين نتابعهم هي ٤٠٪.

وقال چيم بروسر – المتحدث الرسمي باسم تويتر – إن الشركة تقوم بدورها الفعّال لمكافحة ما وصفها بـ «مصادر وهمية خبيثة»، وقد تم رفع دعوى قضائية ضد الشركة المسؤولة عن خمسة من أكثر البريدات الإلكترونية غير المرغوب فيها، والأكثر استخدامًا على تويتر في هذه الخدمة، وذكر أن المشكلة الحقيقية تكمن في الحسابات الوهمية وصعوبة تمييزها عن الحسابات الحقيقية، وقال بروسر معترفًا بذلك «إنها مشكلة صعبة بالفعل».

وختم بروسر حديثه قائلًا «مازالت لدينا مجموعة متنوعة من الضوابط الآلية واليدوية في حوزتنا، وسنعمل باستمرار على مكافحة هذا الاحتيال والقضاء عليه».

تويتر هو أداة قيمة بالفعل، لكن كيف يصبح أكثر قيمة من خلال ارتفاع الحسابات المشكوك فيها؟ بغض النظر عن الإجابة، نصيحتي هي استخدام تويتر بحكمة، وعليك أن تتأكد بأن ما تتمتع به من متابعين مغردين هم أشخاص حقيقيون، وفي الحقيقة، قد يكون كل متابعيك أناس وهميون، بما فيهم أنا!

القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:
info@alwaei.com
aelbarbary@live.com

السعادة التي يمكن لها أن تعود

تعقيبًا على المقال العميق للأستاذ المحترم د .خالد كمال، بعنوان حلم السعادة الطائر،.. ومحتواه الرائع.. ننوه إلى أن السعادة ومكمنها فيما لخص الأستاذ خالد في الرضا بقضاء الله عز وجل.. ونبدأ على بركة الله عز وجل ونقول: سار حكيم يومًا فرأى أعرابيًا عمره مائة وعشرون عامًا، فقال له الحكيم: ما أطال عمرك؟ فقال الأعرابي قولًا حكيمًا، يا حبذا لو وفقنا الله عز وجل للعمل به، قال: تركت الحسد فبقيت.. الله الله على هذا الرد الجميل الرائع، هذا هو سر السعادة الحقيقية.. السعادة أن ترضى بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وهذا من قول رسولنا ﷺ.. ولا يفوتنا هنا أن نذكر قصة الرجل الذي بشره رسول الله ﷺ بالجنة ثلاث مرات، والصحابة يجلسون معه فقام خلفه عبدالله بن عباس ليرى ماذا يصنع.. فلم ير عليه عبادات زائدة.. فحكى سيدنا عبدالله له بشرى رسول الله ﷺ ومعها سؤال: ماذا تصنع يا رجل؟ فقال الرجل: أنا لا أقوم بعبادات زائدة غير أني أنام ولا أحمل في قلبي غلًا أو حقدًا لأحد.. الله.. الله.. فلنربط بين القصتين فنرى أن ملخص السعادة والمادة الخام لها هي الرضا بقسمة الله ورزقه، ولا أشغل نفسي بما يرزق الله بقية العباد من رزق.. يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه: ١٣١).

من هنا ومن هذا المنبر العظيم «الوعي الإسلامي» نناشد جميع المسلمين في كل بقاع الدنيا، هيّا نتمنى الخير للجميع، هيّا لا نحسد ولا نحقد على أحد ونرضى بقسمة ربنا عز وجل، ونسوق في الختام هذه الأبيات الجميلة للإمام الشافعي:

إذا شئت أن تحيا سليمًا من الأذى
وعيشك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ
فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايبًا
فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
وفارق ولكن بالتي هي أحسن

خميس أبوطالب - مصر

دور المدرسة في تربية الأطفال على الوطنية والمواطنة

إن تنمية الوطنية والمواطنة في نفوس الأطفال، لابد أن يشارك فيها الكبار في كافة مؤسسات المجتمع الاجتماعية والتربوية والإعلامية، وأن يشتركوا في ذلك بالوسائل المختلفة.

والمدرسة هي المؤسسة الاجتماعية الرسمية الأولى التي وظيفتها التربية، فالمدرسة التي يعول عليها المجتمع، ويعلق عليها آماله في إعداد ناشئة قادرة بما أوتيت من كفاءات بشرية، وإمكانات مادية على أن تؤدي وظيفتها على أكمل وجه، لهذا ظل المربون والمفكرون والباحثون منذ عقود كثيرة من الزمن يؤكدون على أن تحقيق الشورى والعدالة وغرس الوطنية والمواطنة في نفوس الأطفال أمور مرهونة إلى حد كبير بتحقيق الشورى والعدالة في المؤسسة التعليمية التربوية، ويبينون في الوقت نفسه أن التربية على الوطنية والمواطنة لا يمكن أن تتحقق من خلال الدروس النظرية وحدها، فرغم أهمية هذه الدروس وقيمتها المعرفية، فإن التربية على الوطنية والمواطنة يحتاج تحقيقها إلى عمل مكثف، ومجهود متواصل لإرساء القيم التي تكتسب أهمية خاصة، توازي بل تفوق أهمية المعرفة المدرسية.

وتكمن أهمية قيام المدرسة بتنمية الوطنية والمواطنة في نفوس الأطفال انطلاقًا من أن الوطنية والمواطنة بمنزلة الهدف من التربية ككل.

محمد عباس محمد عرابي

سر شقاء العالم

التفاعل الثقافي من أهم العلاقات الإنسانية بين البشر، فهم يختلفون في الألوان واللغات والعقائد، ولكنهم يتفاعلون دائمًا في ساحات «الفكر» ولعل هذا ما أعطى للثقافة الإنسانية الإسلامية عمقًا وثراء في كل المجالات. لذلك نجد في الإسلام دعوة «للعدل»، ونشرًا للخير بين كل «البشر»، وهذا فيه الحل لجميع المشكلات والأزمات في المجالات كافة، بدءًا من العقيدة وانتهاء بالطعام والفقر والجهل والأمن العالمي والثقافة والحريات.

ويواجه المسلمون الآن وفي كل مكان رياحًا عاتية وعواصف حادة تريد اقتلاعهم من فوق أي أرض يضعون عليها أقدامهم.. ويجتمع الكفر والإلحاد لقهرهم وإذلالهم، لكن الإسلام الذي ارتضاه الله جل جلاله، يقف دائمًا صامدًا في مواجهة خصومه، شريطة أن يعتمد المسلمون على الله جل جلاله، ويعملون على تنفيذ شريعته وتحكيم دينه في أرضه في كل أمورهم.

وعلى المستوى العالمي سجَّل الميزان الدولي اختلالاً في الاقتصاد العالمي وإنذارًا لجميع الشعوب بأنها تقف على حافة الجوع والهلاك، وأن العالم يعاني من نقص الطعام والثمرات والماء، كما سجلت الأحداث العالمية خوفًا وفزعًا ينتشر في ربوع العالم بفعل منظمات إرهابية خدعت «الشباب» بالمال والنساء، وشاع قتل «النفس» التي حرم الله عز وجل قتلها إلا بالحق.

ولم تكن كل هذه الظواهر إلا دليلًا «جديدًا» يؤكد ضرورة «عودة المسلمين إلى الإسلام وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في كل مكان من أرضه».

سماء محمد محمد السحرتي
مصر - دنديط- دقهلية

تنويه

نشر في عدد (٥٦٠) فبراير ٢٠١٢ مقالاً بعنوان «إسماعيل الفاروقي.. رائد مشروع إسلامية المعرفة» منسوباً للكاتبة شيرين حسن، وللتصحيح فإن المقال المذكور صاحبه الكاتب د. حسان عبدالله حسان، وقد تم وضع اسم شيرين حسن بالخطأ .. لذا وجب التنويه.

المرأة المسلمة.. والتحديات المعاصرة

● لعل ما ينظر إليه الإنسان ذكرًا وأنثى.. هو كيفية تحقيق النظرة المستقبلية.. والتساؤل: هل النظر تحمل وعي تاريخي؟ والإنسان في حركة الحياة الإنسانية يمر بنوع من التجارب والتحولات والتقلبات الصحية والنفسية.. والارتباط الأسري.. والتحولات المجتمعية التي ترتبط هي الأخرى بالاقتصاد والثقافة والسياسة والتعليم. كما طرأت على رؤى العصر.. انتشار وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، وهناك القنوات الفضائية وما أكثرها.

● ومن أجل وعي مستقبلي للمرأة المسلمة نطالع الخطاب القرآني وهو يبين معالم شخصية المرأة وبيان حقوقها وواجباتها.. وقد كانت المرأة في مجتمع النبوة تشارك في المجالات الاجتماعية. وقد أوضحت الكثير من التشريعات شخصية المرأة، ومكانتها في الأسرة، وأهمية موافقتها في قضية اختيار شريك حياتها.

لأن هدف الزواج: ترويح النفس.. راحة القلب.. والسكن.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(الأعراف: ١٨٩).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الروم: ٢١).

وقال الرسول ﷺ: «النساء شقائق الرجال» (رواه أبوداود والترمذي).

● الإسلام دعم شخصية المرأة، ورفع من قدرها، وأكرمها وليدة، وناشئة، وزوجة، وأمًا.. واعتبرها متساوية مع الرجل في العبادات والتشريعات والمعاملات، لأن الغاية تحقيق العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل: ٩٧).

يحيى السيد النجار

هل حقًا عرفنا محمدًا؟!

هل حقًا عرفنا محمدًا ﷺ؟.. وهل حقًا عرفنا: كما ينبغي أن يكون؟!
فمن هو محمد ﷺ؟
وهل يمكننا أن نكتب عن رسول الله ﷺ سطورًا بسيطة واضحة مفهومة لكل إنسان، أيًا كانت لغته وثقافته وعقيدته.. دون أن نتوه في جلال الحب الخالد، فلا ننطق إلا بما يغشى قلوبنا وأرواحنا من نور؟
ولأنه قمة القمم فقد اعترف كثير من علماء الغرب بعظمته فقال:
المفكر والفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندي توماس كارلايل:
«إنما محمد شهاب قد أضاء العالم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».
وقال الأديب الروسي ليو تولستوي:
«أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد، الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضًا آخر الأنبياء».

الشاعر الألماني غوته:
«بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي العربي محمد.. وإننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد».

الشاعر الفرنسي لامارتين:
«أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة وافية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود.. ليس هناك رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك محمد، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ!، لقد هدم الرسول المعتقدات الباطلة التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق».

عالم اللاهوت السويسري د.هانز كونج:
«محمد نبي حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمدًا هو المرشد القائد إلى طريق النجاة».
أما الفيلسوف الإنجليزي «برناردشو» فقد أكد أن محمدًا هو منقذ البشرية

إذا صلى كل المسلمين الفجر

سؤال سألته الضيفة إلى المذيعة في حوارها على إحدى الفضائيات الشهيرة عندما كانت تتحاور عن الربيع العربي، ووصول الأحزاب الإسلامية إلى الحكم في ظل أوضاع اقتصادية متدهورة، وكأن لسان حالها يقول: إن ألمانيا تتقن العمل وهي لا تعرف الصلاة، أي إن العبرة هي بإتقان العمل وليس بكثرة الصلاة، وأرد عليها بأن صلاة الفجر قال فيها الحبيب المصطفى ﷺ «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».
فأرزاق العباد بين يدي الله تعالى، وببركة صلاة الفجر ترزق العباد.
وإذا لم تكن الصلاة بهذه الأهمية فلماذا قال القائد العسكري الصهيوني «سينتصر علينا المسلمون حينما يكون عددهم في صلاة الفجر كعددهم في صلاة الجمعة» لماذا خص صلاة الفجر بالتحديد؟
ثم إن الذين يستيقظون مبكرًا لصلاة الفجر هم أنشط الناس في رأي العلم، حيث إن نسبة «الأوزون» تكون متزايدة في هذا الوقت من الصباح، فتساعد على زيادة نشاطهم العضلي والذهني، فأهل صلاة الفجر هم أكثر الأيدي نشاطًا وإتقانًا للعمل.
فإذا صلى كل المسلمين الفجر فلن يكونوا فقط مثل ألمانيا، ولكن سيصبحون أفضل، ووقتها سنقول «إن المسلمين يصلون الفجر» فالحقيقة إذن: «أن الألمان والمسلمين – إلا من رحم ربي – لا يصلون الفجر».

وفاء عبدالحكيم أحمد يوسف

فقال: «اطلعت على أمر هذا الرجل (محمد)، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدوًا للمسيحية، بل يجب أن يُسمى منقذ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.. إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد. هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالد خلود الأبد».

هذا قليل من كثير، أردنا فقط أن نبرهن به على أن علماء وفلاسفة وعظماء الأرض ممن لا يدينون بالإسلام يعترفون لمحمد ﷺ أنه قمة القمم على مر العصور..

علاء سعد حميده

فضل القرآن

ما أجمل حفظ القرآن
في كل زمان ومكان
آيات الخالق شافية
تلمس أمراض الإنسان
في حب وجمال وهدى
وصفاء ورضا وحنان
نقرأ ونحس ونفهم ما
يغنينا عن كل بيان
ونعيش مع الإيمان فلا
ننسى الخالق بضع ثوان
وإذا رضي الخالق عنا
هان عناء العمر الفان
نزن الأعمال لنعملها
بعد موافقة الرحمن

شعر: عبدالرحيم الماسخ

قطوف من حدائق الإيمان

روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ما انتفعت بكلام أحد بعد النبي ﷺ كانتفاعي بكتاب كتب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه كتب إليّ: أما بعد فإن المرء يسوءه فوت مالم يكن ليدركه، ويسره درك ما لم يكن ليفوته، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها.

وما نلت من دنياك فلا تكثرن به فرحًا، وما فاتك منها فلا تأس عليه حزنًا، وإن الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يضرب عنكم الذكر صفحًا، بل أكرمكم بالنعم السوابغ، وأرصد لكم الجزاء، فاتقوا الله وجدّوا في الطلب، وبادروا بالعمل قبل هاذم اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، فإنها دار ممر إلى دار مقر، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يحزن لشقاء، ولم يفرح لرضا، فإنها سريعة الذهاب وشيكة الانقلاب، فاتعظوا بالعبر، واتقوا الله تقية من وجل وحذر وأبصر، فاحتث طلبًا ونجا هربًا، وكفى بالله منتقمًا ونصيرًا، وبالكتاب خصمًا وحجيجًا، وبالجنة ثوابًا وبالنار عقابًا.

رضا إبراهيم عبدالله - مصر

ردود سريعة

- الأستاذ محمد فؤاد علي من مصر، وصلتنا مساهماتكم بشأن بعض الشخصيات الشهيرة أمثال الشاعر علي الجارم، ونود أن نلفت نظر سيادتكم إلى أن سياسة تحرير المجلة تحول دون نشر سير المشاهير إلا إذا كانت هناك إضافة إبداعية في طريقة العرض لها، وإذ نشكركم على الجهد، نتوقع منكم مساهمات أخرى.
- الدكتور عزالدين عناية من تونس، بعض ما ترسله لنا من عروض للكتب يتناول أشخاصًا بعينهم، كما ورد في كتابك «نحن والمسيحية في العالم العربي وفي العالم»، ولأننا نحجم عن التعرض لأي شخص، آثرنا نشر مشاركاتكم الأخرى المحايدة.
- الأستاذ الطيب أديب، نشكرك على بحثك الطيب «عباقرة الغرب.. لماذا أنصفوا الإسلام؟» ولولا أن الموضوع مطروح من قبل عدة مرات لكان وجد سبيله للنشر بين دفتي المجلة.. في انتظار مساهمات أخرى.
- الأستاذ شريف قاسم من السعودية، موضوعكم «رب ضارة نافعة» يلمس جرح الأمة التي ابتليت بالفرقة والتشتت، لكن معالجة الموضوع نشرناها من قبل.
- تهيب مجلة «الوعي الإسلامي» بالمشاركات والمشاركين اعتماد المراسلات عن طريق البريد الإلكتروني فقط، وذلك لسرعة الإرسال والتعامل مع مساهماتكم.
- تصل المجلة بعض المساهمات التي تعارض في مجملها سياسة التحرير، لكن قد تصلح بعض فقراتها للنشر في باب «بريد القراء»، آملين في موافقة أصحاب هذه المقالات على هذا الإجراء، أو إعلامنا بعدم الموافقة عبر البريد الإلكتروني.

القراء الأفاضل: لم يتسع المقام للتعقيب على كل ما وصل المجلة من مساهمات واقتراحات ونأمل في الأعداد المقبلة الإشارة إلى ما تيسر منها إيمانًا من إدارة التحرير بأن كل حرف يخطه قارئ «الوعي الإسلامي» له به علينا حق الرد مع الشكر والامتنان دومًا.

ينابيع المعرفة

إعداد: تركي النصر

ثمن الجوار

يروى أن رجلًا كان جارًا لأبي دلف ببغداد، فأدركته حاجة وركبه دَيْن فادح، حتى احتاج إلى بيع داره، وطلب ثمنًا لها ألف دينار، فقالوا له: إن دارك لا تساوي أكثر من خمسمائة دينار، فقال: أجل، ولكنني أبيعها بخمسمائة، وأبيع جوارها بخمسمائة أخرى، فبلغ القول أبا دلف، فأمر بقضاء دينه، ووصله وواساه.

(كشكول ابن عقيل، ص:١٠٠)

المَحَبَّة مُفتَاح كُلِّ خير

قال الربيع بن يونس لأبي جعفر المنصور: أسأَلُكَ أن تقربَ عبدك الفضل بن الربيع ابنه وتؤثِره وتُحبَّه، قال: يا ربيع، إن الحبَّ ليس بمالٍ يُوهبَ، ولا رتْبة تُبْذَل، وإنَّما تُؤكِّدُه الأَسْبَاب، قال: فاجْعَلْ له طريقًا إليه بالتَفَضُّل عليه.

قال: صدقتَ، وقد وصلته بأَلْفِ درهم ولم أَصِلْ بها أحدًا غير عُمومتي؛ لتعلمَ ما له عندي، فيكونَ منه ما يَستَدعي به محبتي.

ثم قال: فكيف سألتَ له المحبَّة يا ربيع؟ قال: لأنَّها مفتَاحُ كلِّ خير، ومغلاقُ كلِّ شرٍ، تُستَرُ بها عندك عيوبُه، وتصير حسناتٍ ذنوبُه.

قال: صدقت.

(زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحق القيرواني).

الغفلتان والمنزلة بين المنزلتين

«النوم والقدر والموت، كالشيء الواحد، فالنوم: غفلة تُخرج الحي هنيهة من الحياة، وهو فيها على حالة أخرى. والموت: غفلة تخرجه من الحياة كلها إلى حالة أخرى. والقدر: منزلة بين المنزلتين: يقع على أهل السعادة بأسلوب النوم، ويجيء لأهل الشقاء عنيفًا في أسلوب الموت. ولن يجلب شيئًا أو يدفع عن نفسه شيئًا من هذه الثلاثة إلا مَنْ يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام، أو يحفظ نفسه عن الصغر والكبر فلا يموت، أو يضرب بيديه على مدار الفلك فيمسكه ما شاء أو يرسله».

(مصطفى صادق الرافعي).

أطفئ نار الذنوب بدمع الندم

الواجب على العاقل أن يحذر مغبَّة المعاصي، فإنَّ نارها تحت الرماد.

وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من دمع العين، لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبت الحاكم في حكمه.

(صيد الخاطر لابن الجوزي).

التغافل

حدَّثَ رجلٌ لأحمد بن حنبل ما قيل: «العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في التغافل»

فقال الإمام أحمد: «العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل».

(دقائق أولي النهى:٥/٣٣١).

من حِكَم المنطقي

لأبي سليمان المنطقي المتوفى سنة (٣٨٠هـ) حكم بليغة منها:

- بالاعتبار تظهر الأسرار.
- بتقديم الاختبار يصح الاختيار.
- لو لم يكن في النوم من الحكمة إلا أنه شاهد على الميعاد لكفى.
- من ساء نظره لنفسه قلّ نصحه لغيره.
- فضيحة حسيب لا أدب له، أفظع وأشنع من فضيحة أديب لا حسب له.
- نحن نقضي ما علينا، ونجتهد فيما لدينا، ويجري القدر بما شئنا أو أبينا.
- إنما تخرج الزبد من اللبن بالمخض، وإنما تظهر النار من الحجر بالقدح، وإنما تُستبان النجابة من الإنسان بالتعليم.
- مَن التمس الرخصة من الإخوان عند المشورة، ومن الفقهاء عند الشبهة، ومن الأطباء عند المرض؛ أخطأ الرأي، وتحمل الوزر، وزاد سقمًا.

(الحديقة لمحب الدين الخطيب رحمه الله).

ثلاث كلمات تغني عن التطويل

كتب العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، رسالة من تبوك إلى بعض أصحابه في الشام، -وهي بحق زاد المهاجر إلى ربه- قال في آخرها: «وقد كان يُغْني من كثير من هذا التطويل ثلاث كلمات كان يكتبها بعض السلف إلى بعض، فلو نقشها العبد في لوح قلبه يقرؤها على عدد الأنفاس لكان ذلك بعض ما يستحقه، وهي:

١-من أصلح سريرته؛ أصلح الله علانيته.

٢- ومن أصلح ما بينه وبين الله؛ أصلح الله ما بينه وبين الناس.

٣- ومن عمل لآخرته؛ كفاه الله مؤونة دنياه».

(الرسالة التبوكيّة لابن القيم ص:٩٢).

قيمة الوقت

«إِضَاعَة الْوَقْت أَشد من الْمَوْت، لأَن إِضَاعَة الْوَقْت تقطعك عَن الله وَالدَّار الْآخِرَة، وَالْمَوْت يقطعك عَن الدُّنْيَا وَأَهْلهَا، الدُّنْيَا من أَولهَا إِلَى آخرهَا لَا تَسَاوِي غم سَاعَة، فَكيف بغمِّ الْعُمر».

(الفوائد لابن القيم ص:٣٢).

عالم وقاطع طريق

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «عُلَمَاء السوء جَلَسُوا على بَاب الْجنَّة يدعونَ إِلَيْهَا النَّاس بأقوالهم، ويدعونهم إِلَى النَّار بأفعالهم، فَكلما قَالَت أَقْوَالهم للنَّاس: هلمّوا، قَالَت أفعالهم: لَا تسمعوا مِنْهُم، فَلَو كَانَ مَا دعوا إِلَيْهِ حَقًا، كَانُوا أول المستجيبين لَهُ، فهم فِي الصُّورَة أدلاء، وَفِي الْحَقِيقَة قطّاع الطّرق».

(الفوائد لابن القيم ص:٥٧).

البررة الأتقياء

قال الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى: (إِنَّ لله عِبَادًا كَمَنْ رَأَى أَهْلَ الْجَنَّة فِي الْجَنَّة وَهُمْ مُخَلَّدُونَ، وَكَمَنْ رَأَى أَهْلَ النَّار فِي النَّار مُعَذَّبُونَ، قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَحَوَائِجُهُمْ عِنْدَ اللَّه مَقْضِيَّةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَن الدُّنْيَا عَفِيفَةٌ، صَبَرُوا أَيَّامًا قِصَارًا، لِعُقْبَى رَاحَة طَوِيلَة، أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافَّةٌ أَقْدَامُهُمْ، تَسِيلُ دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ، يَجْأَرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، رَبَّنَا رَبَّنَا، وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ بَرَرَةٌ أَتْقِيَاءُ، كَأَنَّهُمُ الْقِدَاحُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ، فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: قَدْ خَلَطُوا، وَقَدْ خَالَطَ الْقَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ).

(الفوائد والزهد والرقائق لابن نصير البغدادي ١٤/١).

النفاق الناعم

د.خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

المحن والأزمات التي تمر بها أي أمة تكشف وتعري طوائف المجتمع، فتظهر لنا مطارق العسرة مقامات الإيمان وروح الوطنية عند طائفة، كما تظهر لنا طائفة «إن بيوتنا عورة»، وطائفة «لو نعلم قتالاً لاتبعناكم»، وطائفة «المعوقين والقائلين هلم إلينا والذين لا يأتون البأس إلا قليلًا»، وأخطر هذه الطوائف طائفة من قالوا «ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا»، وهي صاحبة النفاق الفاجر والمتآمر الذي تخطى النفاق الناعم، الذي يتوارى وراء الحجج الواهية خوفًا من الملامة ووقوع العقوبات.

لكن أصحاب النفاق الفاجر والتآمر لا يكتفون بأنهم تخلفوا عن جهادهم ومشاركتهم في الحفاظ على دينهم ووطنهم، بل يأمرون غيرهم بهذا التخلف ويعملون على زلزلة المجتمع وتقويض بنيانه في بجاحة ووقاحة، كما فعل عبدالله بن أبي بن سلول، حيث رجع بثلث الجيش في غزوة أحد؛ وذلك لأن تياره السياسي لم يفز بالأغلبية ولم يؤخذ برأيهم؛ لأن صندوق الاقتراع ومجلس الشورى الذي عقده النبي ﷺ لمشاورته لأصحابه اختار أن يخرجوا لملاقاة المشركين (وقد كان هذا هو رأي الشباب ومن لم يشارك في غزوة بدر)، بينما كان الانتظار في المدينة حتى يأتي المشركون فينقض عليهم المسلمون هو الرأي الآخر، (وهذا كان رأي الرسول ﷺ والشيوخ، ورأي رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول)، ولم يكن رأي هذا المنافق من أجل تحقيق المصلحة، ولكن هروبًا من المواجهة ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب:١٨).

وهذه هي صفات أهل النفاق الفاجر والتآمر، الذين ينشطون وقت الأزمات، لقلب الحقائق وإظهار الباطل وأهله في صورة الحق، وتضليل الرأي العام عن طريق إحداث الفتنة الإعلامية، وقنوات النفاق المتآمر الفاجر، قنوات الألسنة الحداد التي تتكلم بكلام اليوم وتهدمه الغد، لا تنظر إلا إلى المصالح الشخصية، مصلحة الدرهم والدينار والملايين، ولو أدى ذلك إلى إحراق الوطن، وقد تآمر هؤلاء وأعلنوا الحرب على كل من يقف في طريق مصالحهم، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

والنفاق بكل أنواعه (الناعم، والفاجر، والمتآمر) خطره عظيم على الأمة، فقد ذاقت الشعوب ويلات النفاق، مما يحدثه المنافقون من بلبلة وإضرابات عقدية وفكرية وسياسية واجتماعية؛ وما إسقاط الخلافة الإسلامية منا ببعيد، فالسبب الأساسي في إسقاط الخلافة هو أهل النفاق؛ لذا جعل القرآن المنافقين العدو الأول للمسلمين، قال تعالى: ﴿هم العدو﴾، كأنه لا عدو لنا بالليل والنهار إلا هم؛ لذا يجب مواجهة النفاق، ومواجهة هؤلاء يحتاج إلى الآتي:

- تعرية وكشف المنافقين، وهذا أمر شرعي وواجب وطني، والقرآن الكريم في أول سورة بعد فاتحة الكتاب يذكر طوائف المجتمع ويقسمهم إلى طائفة الإيمان، وطائفة الكفر، وطائفة النفاق، ويذكر صفات المؤمنين المتقين في خمس آيات، وصفات الكافرين في آيتين، وصفات المنافقين في ثلاث عشرة آية، ضعف الصنفين السابقين تقريبًا، وخصص لهم سورة (المنافقون).
- الحذر من تمرير المصطلحات التي في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب، هذه المصطلحات التي تتصادم مع عقيدة ونظام المجتمع الإسلامي مثل العلمانية، التي تريد أن تعزل الدين عن الحياة كلها تحت شعار «الدين لله والوطن للجميع»، وإيهام الناس بأن هذه المصطلحات ستحقق لهم التقدم والرقي.

مجلة

الوعي الإسلامي

تهديكم جديد إصداراتها

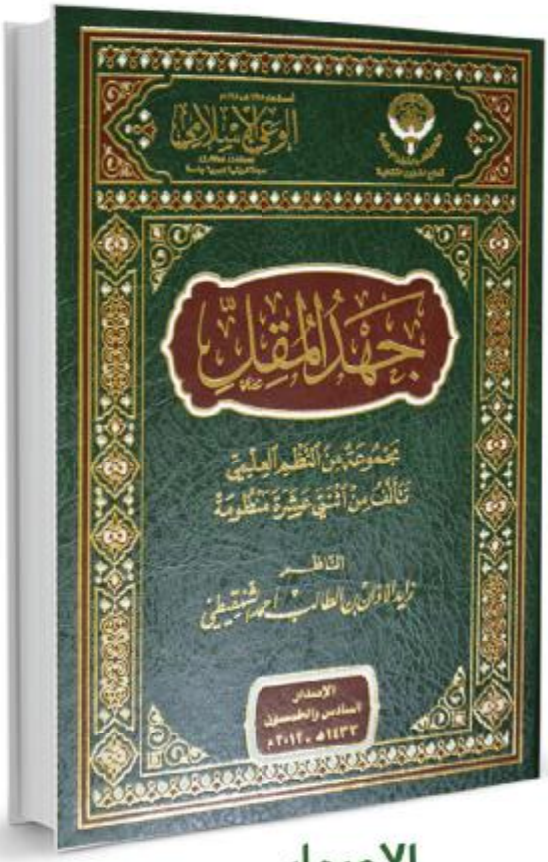

الإصدار
السادس والخمسون
١٤٣٣هـ-٢٠١٣م

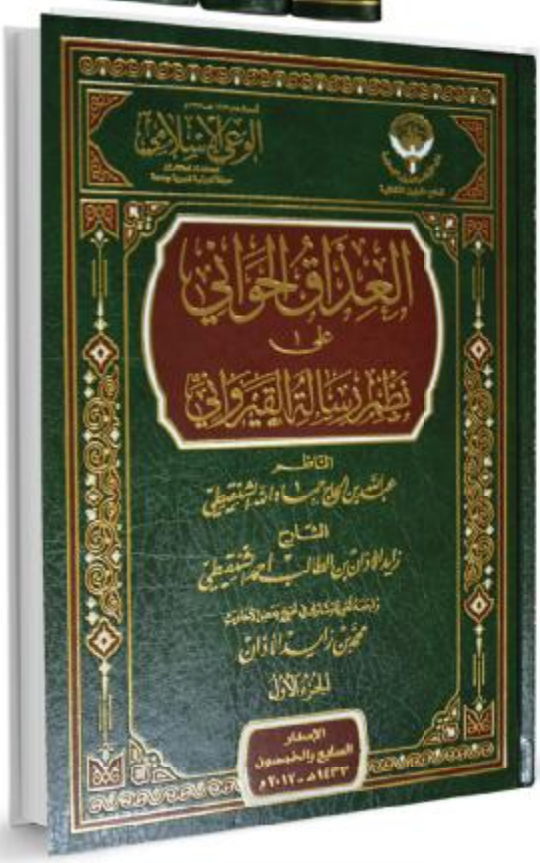

الإصدار
السابع والخمسون
١٤٣٣هـ-٢٠١٣م

صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ الكويت هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
البريد الالكتروني: info@alwaci.com - manager@alwaci.com

الوعي الشبابي

للقيمة معنى...

www.shabab.alwaei.com

- مواضيع حيوية ومعاصرة
- حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
- مقالات لأبرز الكتاب الشباب

«الوعي الشبابي» مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير: فيصل يوسف العلي

البريد الإلكتروني
info@shabab.alwaei.com

للتواصل زوروا موقعنا
www.shabab.alwaei.com